سقط الأزرق من السماء

رواية

منذر بدر حلّوم

-1-

في مدرسة الشياطين

كعادتها، راحت بدلة الخاكي تتمشّى في ممر المدرسة الطويل، ملقية نظرة على هذه القاعة وتلك، مبقيةً، كعادتها، شعبة الحادي عشر الأدبي الوحيدة في المدرسة إلى نهاية جولتها الصباحية. فهناك يحتاج الأمر لأكثر من وقفة صغيرة عابرة. منذ جاءت بدلة الخاكي إلى المدرسة راحت تفعل كل ما من شأنه أن يُدخل الرعب إلى نفوس التلاميذ. هذه المرّة أيضا تحركت بدلة الخاكي ببطء ثقيل في الممر الطويل. وبعد وقفة متوعّدة قبيل الباب، دخلت البدلة الشعبة الأخيرة وانتصبت، كعادتها، سادّة بمنكبيها العريضين الباب، محرّكة رأسها المضلّع إلى اليمين واليسار، ماسحة التلاميذ المضطربين بنظرة متوعدة. وكعادتها، راحت بدلة الخاكي تنقّل نظراتها الجائعة إلى الصفع، من وجه إلى وجه، لكي تحطّ الرحال، كعادتها أيضا، على وجه درويش. وكعادتها للمرّة المائة، راح يبدو عليها أنّها تقاوم رغبة شديدة في الانقضاض على عيني درويش، العينين اللتين لم يكن يزيحهما صاحبهما عن البدلة الغاضبة، كما كان يفعل الآخرون. ثمة شيء تجاوز العادة هذه المرّة. فقد ارتسمت على وجه البدلة ذراع قوية متوترة العضلات تمتّد مجلجلة لاقتلاع درويش من مقعده وإلقائه كخرقة ممزقة على طريق القصر، حيث ضلع المدرسة الطويل لا يترك إلا رصيفا ضيّقا للراغبين في الاستمتاع بظل البناء الأصفر المتسخ. لكنها لم تفعل. لم يكن درويش يعرف سببا لكره بدلة الخاكي- هكذا راحت الشلة تسمّي مدرّب الفتوة ضرغام جراد- كرها شديدا له ولكاسر وغريب. هذه المرّة أيضا ثبّت درويش عينيه الساخرتين في عيني البدلة الكارهتين، وإذا بالعتمة تهبط فجأة!

ما حدث، حين التقت العيون، لم يكن عقل بدلة الخاكي قادرا على استيعابه. كان يوم السبت الكبّاس، كما سماه طلاب المدرسة بعد ذلك، آخر يوم في حياة بدلة الخاكي في مدرسة الشياطين، كما صار يُطلق عليها منذ اللحظة التي هبط فيها الظلام. كان درويش وكاسر وغريب قد خططوا لهجوم معاكس يجعل بدلة الخاكي تراجع حساباتها. في

البداية، اقترح كاسر على درويش أن يُدخلوا إبراهيم أيضا في اللعبة، لكن درويش اعترض بشدة. فهو لا يثق بإبراهيم ويعتقد بأنه سرعان ما سيذهب إلى بدلة الخاكي حاملا وشايته. اتفق الثلاثة مع معظم شباب الشعبة على عملية الكبّاس الصباحية، التي لم يكن يعرف تفاصيلها إلا قلّة منهم. ومع ذلك فأيٌّ ممن يعرفون، كما بيّنت الأحداث فيما بعد، لم يش بالخطة. اقترح درويش أن يأتي أفراد المجموعة صباح السبت الموعود حاملين سكاكين الكبّاس معهم إلى المدرسة. كان كل منهم، بطبيعة الحال، يخفي بين كتبه أو طيّات ملابسه، سكينا مطوية مخدّدة النصل من ذلك النوع المسمّى بالكبّاس. في نهاية دوام يوم الخميس السابق لسبت العمليّة دقَّ درويش في وسط الحائط الذي يعلو عارضة الباب من الداخل سيخ حديد أحضره خصيصا، تاركا معظمه يبرز إلى الداخل، بعد أن تأكّد من ثبات السيخ جيّدا، وقدرته على حمل الوزن المطلوب. لم يكن درويش يثق كثيرا بالآخرين، وعموما فهو شخص لا يسلّم مصير الأشياء التي يريدها لأي كان. صحيح أنّه يثق بكاسر ثقة مطلقة، لكنّه لا يريد لكاسر أن يتحمّل مسؤولية الأشياء الخطيرة. فمن الأفضل لكاسر أن لا يعرف. فهو لو طُلب منه أن يحكي، أو ضُغط عليه ليقرّ بما يعرفه فلن يقول شيئا يُضرّ بدرويش، وسيتحمّل نتيجة عناده عذابا إضافيا، لا يتمنّاه درويش له. كان هناك كيس خاص يجب إحضاره. ودرويش هو من سيحضر هذا الكيس. كان هذا الكيس إضافة منه على الخطة، إضافة لم يُخبِر أحداً بها على الإطلاق. هو فقط استشار كاسر. لكن كاسر أبدى اعتراضا شديدا وتخوفا كبيرا من النتائج. وعده درويش بأن لا يفعل. لكن، كان دوما من الصعب ثني درويش عن تنفيذ فكرة اقتنع بها، خاصّة إذا رأى في ذلك عقابا لظالم. كان درويش يشعر برغبة لدى بدلة الخاكي في إذلال الجميع. وربما كانت بدلة الخاكي ترى في عيني درويش أشعة تكشف الشر الذي تحاول عينا البدلة إخفاءه. راح درويش يرى أحلاما يعاقب خلالها بدلة الخاكي. راحت الأحلام تتكرر بصور مختلفة: فها هو يدلق دواة الحبر على البدلة فيصبغها بالأسود، حينا، ويشعل النار فيها ثم يبول عليها كي يطفئ النار، حينا آخر، ويعتلي البدلة ويضربها بقضيب أخضر من الريحان، تارة على مؤخرتها وتارة أخرى على رأسها، كما يفعل الأولاد بحمار يتنّح ممتنعا عن متابعة المسير. وها هو يأتي بعلبة تنك فارغة يحشر رأس بدلة الخاكي فيها ثم يقرع عليها، داعيا أصدقاءه إلى الرقص حولها على إيقاع قرعه، وها هو في حلم آخر يربط رأس البدلة بذيل حمار ويربط ذيلها برأس ثور، بعد أن يعلّق عليها من الخلف خرقة حمراء... راح درويش يمارس في أحلامه أشكالا مختلفة من العقاب، أشكالا يخالطها جميعا اللعب ومتعة اللعب، المتعة التي طالما كانت تدفع درويش لفعل أشياء هو نفسه لا يتوقعها.

في السبت الموعود، دخل الجميع غرفة الصف مسرعين. وما أن دخل آخرهم حتى قام درويش وأغلق الباب بسرعة، ثم وقف أمام السبّورة شارحا، ببضع كلمات، خطته للجميع. علت الوجوه الستة والعشرين ألوان حماسة اللعب المرقّطة بالأحمر. وراحت الوجوه تخبط الأرض بأرجلها بانتظار اللحظة الحاسمة. قال درويش لكاسر مُطَمْئنا: لم أُحضر ما حدّثتك عنه، أحضرت بدلا منه شيئا آخر، خفت أن تفضحنا الرائحة. أخرج درويش كيسا أحمر خاطه من بقايا سروال عتيق، بطّن به، بخفّة، سلّة المهملات، ثم أفرغ في قاعها ماسورة من الصمغ المعد لاصطياد الفئران، ربط السلّة بخيط ومرره فوق السيخ المثبت فوق الباب، السيخ الذي سبق أن دقّه يوم الخميس. استأذن درويش كاسر لشغل مكانه المحاذي للباب، للإمساك بطرف الخيط، وكادت تقع مشادة لولا سماع صوت خطوات بدلة الخاكي تقترب في الممشى. أمسك درويش بطرف الخيط. جاءت بدلة الخاكي. وكعادتها، لم تكد تتجاوز العتبة حتى توقفت، يداها خلف ظهرها، ماسحة الجميع بعينيها الشريرتين. لاحظت البدلة أن درويش ليس في مكانه، كما لاحظت أنّ الجميع ينظرون إلى أعلى الباب. كانت هذه ثغرة في الخطة من المستحيل تلافيها. فمن هو الذي يستطيع في هكذا لحظة أن يمسك عن النظر إلى هناك، فقد تفوته فرصة رؤية اللحظة الأهم في العملية. لاحظت بدلة الخاكي ذلك فالتفتت إلى أعلى. تحرّكت عينا البدلة بسرعة ورأتا شيئاً ما أحمر هناك، لكنّ استجابة يد درويش كانت أسرع. فسرعان ما سقطت السلّة،

ولبست رأسَ البدلة المضلّع. جاءت السلة، في البداية، منحرفة قليلا، ثم استقرت كما هو مقرّر لها أن تستقر. تحركت يدا بدلة الخاكي بعصبية شديدة. أمسكت اليدان بسلة المهملات ونزعتاها بعنف. استجابت السلة وخرجت، لكن الكيس الأحمر لم يستجب. كان ذلك نجاحا كبيرا لم يتوقّعه درويش. راح المتمردون في هذه الأثناء يدقون على المقاعد ويضحكون ويصخبون، في حين فرّ بعض المترددين من غرفة الصف خائفين. مع الصراخ والوعيد قلبت بدلة الخاكي الكيس فبدا وجهها مزرقا وعيناها حمراوين. اندفعت البدلة هائجة نحو المقاعد، ففوجئت بأيدي المتمردين تنجر خشب المقاعد بالسكاكين. رأت البدلة السكاكين في أيدي المتمردين ففرت عبر الممر إلى طريق القصر مستنجدة بالموجِّهِ وأمين السر والمدير. كانت بدلة الخاكي قد نسيت أنّها صادرت دور الموجّه وأنّ الأخير صار يأتي، حين يأتي، متأخرا، فلا أحد يلقي إليه بالا هنا. لاحق درويش وحَمَلة السكاكين بدلة الخاكي إلى الطريق. كانت خطة درويش تقضي بأن يتجه هو، بمجرد خروج البدلة هاربةً من باب المدرسة، إلى دار أم محمود المقابل لباب المدرسة. كان لدى أم محمود ثور تتركه مربوطا طوال النهار إلى جذع شجرة التوت. قال درويش: نفلت الثور ونهيّجه ثم ندفعه باتجاه بدلة الخاكي.. فرح المتمردون الهائجون للفكرة.. فالثور، سيتولى بنفسه ملاحقة رأس البدلة الأحمر. لكن فرحتهم سرعان ما بُترت، فقد وجدوا أنفسهم، بمجرد خروجهم إلى الطريق، يرشقون بالحجارة سيارة حكومية تعلّقت بدلة الخاكي ببابها، راجية الابتعاد عن المهاجمين. بقي ثور أم محمود دون عمل! فالسيارة اللعينة أفسدت نهاية اللعبة. لم يعد أيّ من المتمردين إلى مدرسة طريق القصر، أو مدرسة الشياطين، بعد ذلك اليوم. فقد فُصل درويش من جميع المدارس الرسمية فصلا نهائيا، وألغيت الشعبة ونقل جميع طلابها إلى مدارس أخرى متفرقة. وكان ذلك نصيب حتى غير المتآمرين منهم. فقد عوقبوا جميعا لأنهم لم يُنبّهوا بدلة الخاكي إلى وجود مؤامرة. تقدّم درويش إلى امتحانات البكالوريا حرّا ونجح فيها من المرّة الأولى. لم يبذل جهدا كبيرا في التحضير للامتحانات. فلم يكن يحتاج إلى كثير من العلامات. كان همّه أن يتقدم إلى امتحانات القبول في كلية الفنون الجميلة وينجح، وكان له ذلك. انتقل درويش إلى دمشق وما أن استأجر غرفة في مخيم اليرموك حتى جاءه عزيز. لم يكن درويش قد دعا عزيز لزيارته ولم يكن يصادقه. كثيرون كانوا ينفرون من عزيز. فقد كان ينقل لأبيه آذن المدرسة أسرار زملائه، فيتولّى أبوه الآذن نقلها إلى إدارة المدرسة، كما كان أبوه يتولّى تزويده بأخبار الإدارة وأسرار المعلّمين. كانت هذه المعلومات ضرورية لعزيز عضو قيادة وحدة شبيبة الثورة. كان عزيز، حين جاء لزيارة درويش، قد سجّل للدراسة في كلية الحقوق، ووجد لنفسه عملا في اتحاد الطلبة. فرّغوه، هناك، لمصلحة أحد مكاتب قيادة الاتحاد، وصاروا يعطونه راتبا. وجد درويش نفسه أمام لعبة لا يريدها، لعبة يجب أن يخرج منها عزيز خاسرا. على درويش أن يجد الحيلة للحيلولة دون تكرار زيارة عزيز، عليه أن يجدها قبل أن يملأ الدخان صدره. فقواعد اللعبة هنا مختلفة، وقد لا تفيد معها خبرة السبت الكبّاس. فعزيز يعرف جيّدا إلى بيت من يأتي، ويعرف لماذا هو يأتي. لكنه قد لا يتقن الوقوف عند العتبة التي يكون بعدها الانفجار. شيء ما يشبه الدخان يتصاعد في روح درويش عند رؤية أمثال عزيز، شيء تستجيب له الصواعق. وعلى عزيز أن يعرف كيف لا يثير دخانا في روح درويش، دخانا قد يستثير انفجارا ينسف كل شيء.

استقبل درويش زائره بسؤال ساذج:

– كيف عرفت بيتي!؟ فأجابه عزيز مبتسما ابتسامة تخفي عينيه الضيقتين:

– ولوّ! أنا فيني عيش بلاك! لم ينتظر عزيز دعوة للدخول. أمّا درويش فوجد نفسه يتراجع أمامه مفسحاً الطريق لدخوله:

– حلوة غرفتك، فنّان، يا أخي، فنّان طول عمرك فنّان.. حتى بالمشاغبة فنّان! قال عزيز ذلك بينما عيناه تمسحان جدران الغرفة. كان ملصق كبير لغيڤارا يغطّي الباب من الداخل، وصور أخرى صغيرة له معلّقة على الجدار المقابل، وثمة قطعة صغيرة من بساط عتيق عُلِّق عليه شعار معدني يحمل رسما للينين، كان درويش قد تلقّاه من بحارة روس.

–2–

حائط مبكى

(أنت حائط مبكى! قالت فاطمة لدرويش)

المطر يعيد ترتيب الأوراق المبعثرة وأكياس البولي إيتيلين المرمية في الشارع على هواه. المطر يهطل لليوم الثالث على التوالي، غير مكترث بحاجة البقال أبي أحمد إلى فسحة على الرصيف، يعرض عليها بضاعته، وبحذاء طفل سقط في تيار الماء، بينما كانت أمّه تحاول نقله من رصيف إلى رصيف. أمّا درويش فينضح في حجرته المغلقة النوافذ، النوافذ التي لا تطل إلا على حجارة كبيرة لجدران عالية سميكة في دار عتيقة في أحد زواريب حي السجن، ينضح عرقا أو شيئاً آخر من طبيعة الماء، عيناه مليئتان بضجر حيواني من ذلك الذي تراه في عيون الوحوش الحبيسة.

راحت أصابع درويش تدبّ من شق في الحائط إلى شق آخر. الحائط مبنيٌّ من قطع كبيرة من الصخر الرملي، قطعٍ ملأ درويش الشقوق التي بينها بقصاصات ورق، بل بأوراق كاملة مطوية، كان قد نزع بعضها من دفتر جدّه الذي سرقه في طفولته مضيفا بين سطور صفحاته ما كان يخطر بباله في أزمان مختلفة من نشأته، ومن دفتر خاله رستم، الدفتر الذي لم يوفر درويش فراغا إلا ورسم أو كتب عليه شيئا ما. أمّا أوراق الجامعة فلم يبق منها أي شيء. فبعد تخرّجه أضرم درويش النار في كل ما كان لديه في دمشق من أشياء كتبها ورسومات وضعها على الورق وأفكار لخّصها، لكنّه لم يحرق صور غيڤارا..أشعل في أشيائه النار وقرفص قربها يقلّبها كي تحترق آخر الكلمات والخطوط فيها..راح يحرقها على تخم حقل مفتوح مجاور لشارع الـ15 في مخيم اليرموك، متمنيا لو يحترق العالم كلّه مع هذه الأوراق. جاء كاسر يومها. كان عليهما أن يغادرا معا. لكن كاسر وصل متأخرا، وصل بعد أن تحوّل كل شيء إلى رماد.. أمّا هنا، في هذا البيت العتيق، في حي السجن، فما زالت الجدران تحتفظ بكثير كثير مما يضع درويش في مركز الزمن، حيث الماضي والمستقبل يتبادلان الاتجاه، يتبادلان الأحمال، يتبادلان أكياس الأسئلة ويسخران من السائل. هنا، يجد درويش نفسه بين جدران، ليس روح الحجارة ما يسكنها إنّما شيء آخر، شيء ليس هو روح الأرض أيضا. فعلى الأرض أن تعتذر كما على السماء.. فكلاهما تنازع درويش حتى أضناه. فإذا به أمام أسئلة عتيقة لم تعد تفيد معها النار أو الماء، أسئلة تتوسل إجابات من طبيعة أخرى. كان ثمة صراخ، صراخ ممض لا يدري درويش من أين يأتي من موسكو أم من دمشق؟ أم من لينينغراد؟ حيث أمضى عامه اليتيم وأشلاء عام. صراخ يشكّل موجة تدفع درويش إلى الجدران حينا وعنها حينا آخر.

راح درويش يخرج بعض الأوراق المودعة في حائطه. يقرأ ما كتب عليها ثم يعيدها إلى المكان الذي رقدت فيه، ربما بانتظار أن يقرأها أحد ما في يوم من الأيام، وربما بانتظار أن يتشربها الحائط نفسه فيكتسب من روحها شيئا يمكّنه من تجاوز روح الحجارة. راح درويش يقرأ

– جدي الشيخ خليل يؤمن بالخمر والبارود ولكنه لا يؤمن بغيفارا، وغيفارا لا يؤمن بجدي. جدي الآن نائم. الصباح رباح.. بعد بضع صخور، بعد بضع خطوات، هناك عناق ما قبل الانطلاق، هناك جزع عظيم وعينان تخرجان من عينيه لتستطلعا المكان وابتسامة ما قبل الانفجار.

– مات صدّيق إبراهيم عن ثلاثة وثلاثين. مات صامتا، هو لم يشكُ ولا أحد قال لماذا مات. الشيخ تأكد من موته.

– سألني عبد الرؤوف: لماذا يموت كثيرون اليوم بالسكتات وبالجلطات وبالأورام؟ وحين وجدني أفكّر باحثا عن إجابة، قال: لا، لا تفكر فلن تجد إجابة في الطب.

– قبل مغادرة الحياة بساعتين، نصب الرجال خيامهم، واستلقوا حالمين. كانت السماء لا تزال تعلو الأفق بعدة أمتار. لا شيء يدل على لا شيء. سحلية دخلت عبّه، قبل الموت بسنتيمتر. دفعته إلى الابتسام.

– لا أحدا من المقاتلين يموت في الحرب. معادلة رياضية بسيطة – لا يوجد حرب، لا يوجد موت في الحرب، لا يوجد مقاتلون.

– كثيرون يبتسمون حين يرون الموت، لكن أحدا لا يبتسم حين يرى الحياة. أمّا من يبتسمون كثيرا فهم صنف آخر من البشر لا أعرف عنهم إلا القليل. ولمن سيعترض دفاعا عن ابتسامة الحكمة، أقول: ليس بينهم حكماء، فهم كثيرا ما يقهقهون.

– حتى يوم قريب، كان للخمر معنى آخر، وسيعود هذا المعنى، في يوم قريب.

– خرج عامر رمضان من بيته منذ أسبوع ولم يعد. كان عامر مسافرا إلى دمشق، لكنه لم يصل. لا أثر لعامر في المستشفيات، ولا نقود لديه. ضرب أبو عامر كنّته بالعصا حين علا صوت بكائها، صارخا: عامر، يا بهيمة، ما مات!

– ما رأيك بكأس من الخمر؟ لدي خمر مصنوع من دم ديدان السماء، معتّق في جذع بلّوطة تُمسك جذورها بصخرة عظيمة عليها كائنات كثيرة وماء وأنا وهو وشلال عظيم من الدم يتدفق في الجذع لا يدخل إليه ولا يخرج منه. إذا كان سينتظر الانفجار قد لا يخرج أبدا. قل له: جفت عروقنا ولا ماء.

– عودي إلى مرقدك مطمئنة وادخلي حائطي راضية مرضية.

– هاجر جابر طرّاف إلى أستراليا، وهاجر موسى علي إلى الولايات المتحدة، وهرب صفوان سعد مع صديقه السوداني سر المفتاح إلى اليونان. سُمِع طرق شديد على باب جابر منصور بعد منتصف الليل. خرج جابر في بيجامته البيضاء المخططة بالبني ليفتح الباب. خرج ولم يعد.

– حصل خالي رستم على منحة من جمعية الصداقة وهو يستعد للسفر إلى الاتحاد السوفيتي. أنا أيضا أريد أن أسافر إلى الاتحاد السوفيتي. قال لي خالي: "أنت ماهر بالرسم" ووعدني بتأمين منحة لدراسة الفنون هناك عندما أنجح في البكالوريا.

وبينما كان درويش مستغرقا في قراءة رسائل الحائط، دوّى قصف صاعقة، فما زالت مزاريب السماء تدق في الساحة القريبة من بيته ومازال مسعود يغنّي متنقلا بين رصيف وآخر.

– زرع جدّي ياسمينة بطول سلوى. عندما تقف سلوى بجانبها يلتف رأس الياسمينة على عنقها.

– سألتُه مرارا ولم يقل شيئا يشبه ما هو فيه. حذار من هذا الذي لا تراه. تأكد من أن شيئا لا تقوله مازال فيك. تظنني لا أستطيع. مخطئ أنت. خمرك يندلق على الأرض حين أكف عن أن أريد. وأنا كلما شعرت بأنني لا أستطيع أزداد رغبة، لكنني لم أعد على يقين مما أريد. كل ما يقولونه عن العجز هراء. يأتيني في الحلم بوم عظيم. السماء، لا يسكرها الخمر. لكن حامل البوق سكران. لا يستطيع التعرّف علي. يريدني أن أغدو مشابها للجميع. ليس مهمّا ما يقول فأنا أجيد تمييز الألوان.

– من يرد قميصا يخفي جلده لا لون له عليه الأمان، واللعنة عليه. حدّقْ حيث تقف ترى كثيرين. أمّا أنا فأجلس وحيدا عند مهوى سحيق، ويطفر الدمع من عينيّ، غير أني لا أبكي.

– اشربْ، هكذا من أجل أن الأرض نائمة والسماء نائمة والناس نيام. المجد لمن يعاند جفنيه، يحرس دودة صغيرة تدبّ على الصخرة مرتعدة الأوصال: "لا، لا تخافي– يقول للدودة التي يذهلها أن الجميع نيام – ما زلت خضراء على النبيذ... عودي إلى مأواك بسلام".

– دُعيَ عادل عمران لشرب فنجان قهوة مع أصدقاء لا يعرف منهم أحدا في سيارة بيجو ولم يعد!

– صدرت نتائج البكالوريا. قالوا لي إنني ناجح. سأكتب رسالة لخالي. أرجو أن يفي بوعده. لا تخدعني يا خالي.

– هكذا إذن يا جدي! اشربي بمشيئتك. تذوّقي طعم الدم. لسوف ترضى عنك السماء و ينبجس دم كثير يخصب ذريتك حتى تأتين على كل ما في الأرض.

– يقولون لينينغراد مدينة جميلة. يقولون موسكو عاصمة العدالة والمساواة.

– مبارك ما يهطل من فوق. مبارك ما ينبثق من تحت. مباركة أنت. ملعونون نحن. لا تخافي أمامك كثير من الدم تولدين منه. ستسكنك روح تتعرفين إليها حين تبلغين.

– لا تصدّق– قال جدي– ليس هناك آخرة ولا حساب. هنا الجنة وهنا النار.. إذا أردت أن تفعل شيئا افعله الآن. سدد ديونك وحصل ديونك من الآخرين قبل فوات الأوان.

– لا، لن أترك لجدي أن يعبث بك.

– مات صالح جاد بالجلطة عن ثمانية وأربعين، وفجّر محسن قدسي نفسه بالديناميت، ولا أحد من أهله يعرف السبب. في هذا اليوم نفسه، انتحر علي زريق. أسند صدره إلى فوهة بندقية كلاشينكوف وضغط الزناد فخرجت ثلاث رصاصات. لم يكن يهيم بفتاة، ولم يكن قد أغضبه أحد من أهله أو أصحابه. قالوا إنه وجّه البندقية في البداية باتجاه آخر، ثم باتجاه ثان، ثم نظر إلى جهة كان يبدو من عينيه أنه يراها. الله أعلم أين كان مقصده. وأخيرا وجه البندقية إلى صدره مبتسما ابتسامة سخرية مرّة وهو يضغط الزناد. ماتت أم زكريا بالولادة. كانت تريد أن تسمي الوليد زكريا، لكنها ماتت ومات معها. مهنّد، يأكل كثيرا ويبتسم بكسل محيياً من يرفع يديه.

– أحد ما بشعر طويل ممُسِّد بعناية وممسوح بزيت الزيتون، راح يكتب على جدار طاحون أبي جلال، بفرشاة عريضة، بالبويا الحمراء، بعد منتصف الليل: أحبّك يا نجوى، يلعن أبو إسرائيل، ويلعن أبو أولاد القحبة. أمّا فريد فكسر أنف زوجته مفيدة لأن بدلته العسكرية لم تجف قبل موعد ذهابه إلى الثكنة في الصباح. مفيدة غسلتها متأخرة. ليس لدى فريد ثياب قتال أخرى.

– البومة، تنعب على سطح بيت أم مصطفى لليل الثالث على التوالي. الجيران فرحون لأنها ليست على أسطحة بيوتهم. ليس لدى أم مصطفى بندقية لقتل البومة.

– مهنّد ما زال يأكل مبتسما، أو ربما ليس مبتسما. أبو مصطفى مشلول. الحمد لله!

– لو كان هناك هاتف لاتصلت بخالي. لا بد أنه يعرف أن النتائج صدرت، وأنني أنتظر.

– عرشت الياسمينة على شباك الأوضة. سلوى فرحة بها وتقطف من أزهارها. أمّي متضايقة: تحجز الهواء! لا أستطيع رؤية أحد. لا أرى، لا أسمع، لا لون، لا صوت.

– قال لي جدي: اكتب كل شيء، كل ما يخطر ببالك. ما تكتبه يمكن أن تتلفه فيما بعد، أمّا ما لا تكتبه فيموت. ستجد أشياء كثيرة أمامك كنت ستنساها. بالتأكيد كنت ستنساها. اكتب. كان جدي يتمنى أن يقول لي اقرأ، ولكنه لا

يملك الحق بذلك! لم يكن يعرف أنني سأكتب على دفتره، سأكتب بين صلواته وشكوكه، أو ربما كان يعرف وكان راضيا عمّا أفعل! جدي هو جدي ولا يشبه المشايخ الآخرين.

– اللون ضوء، والصوت لون. ولكن أين الناس؟ أهؤلاء الذين يدبون حولي هم! ما عليك، يقول لي، إلا أن تكف عن النظر إلى الوراء، و تملأ فمك من دم السماء حتى تراني وأراك.

– أسوأ الأشياء أن يصل المرء إلى درجة لا يكون لديه عندها ما يفقده. لا تحشر وحشا في زاوية ستكون أنت الباب الوحيد.

– الصلوات التي لا تجعلك تكف عن النظر إلى الوراء ليست صلوات حقيقية. حين ينطفئ الضوء وأنت تصلّي لا تأسف على شيء. افعل ما يدفعك العتم إليه: ولكن ألم يقولوا إننا سنقوم أبكر من أجل أن يأتي العيد أبكر! يقولون إن الأشياء التي لا نراها يكون العالم مليئا بها. هراء. هكذا أنا إذن. هكذا هم.

– ليت الحشيش ينبت على هذه الصخور ويخفي ما كنا كتبنا عليها بانتظار الفجر.

– تطوع عمّي رسلان في سلك الشرطة، ولكنه لم يقتل أحدا حتى الآن. أي شرطي هو. عمّي طيب رأيته مرّة يبكي، فهربت قبل أن يراني.

– هراء! أهناك فجر بعد، أم أنه أرهقه الانتظار فما عاد يعرف من يكون؟ أيكون الفجر هو نفسه حين ينتظره الناس وحين لا ينتظرونه؟!

– حبلت أم علي بالولد التاسع عشر، وأنجبت عنزة أم حسن سخلتين وجديا.

– أريد أن أؤمن بأن الأشياء التي نريدها هي التي تكون، بأن الأشياء تكون كما نريد لها أن تكون، لكنني لم أعد أستطيع. أشعر بأنني على شفى أن أرحل عن نفسي واحتسي من دم السماء. لأجل أن نشرب تتعرى كل يوم فيصير الدم نبيذا، لا نراه ما لم نرفع من أجله صوتا بلونه.

– المجدُ للّون. بيد أنني لا أرى سوى الفراغ والخيبة كلما أطلقت صوتي، كأن أحدا لا يعنيه، أم أن أشياء أخرى لا أراها ستتضح منه لو أجدت الانتظار. أم أن اللون وَهْمٌ تسخر منا بواسطته الأشياء؟ ملعون هو الانتظار يطفئ الروح. ملعون هو الهواء الذي يدخل رئة الصمت ويغذي دمها الفاسد بالأكسجين.

– إذا كان هناك من يريد أن يأتي معي فليحدّق بي وليقل أريد، دون أن ترمش عيناه، وليخرج رأسه من بين كتفيه. سنلتقي عند قرمة البلوطة العتيقة. لكن البلوطة لا تستطيع. جذورها معلقة في الهواء. سأعيد ترتيب نفسي كيما تعود الجذور إلى الأرض. كيف هي السماء العاشرة!؟ السماء لا حاجة بها إلى جذور السنديان وأقدام البشر التي تغسل عنها الأرض.

– اختفت سميّة بنت جمعة طرّاف، تلاشت على باب الجامعة. رأت زميلاتها ما يشبه فستانها يدخل سيارة جيب.. لاحقني عزيز بائع اليانصيب: اشتر بطاقة تربح مليون ليرة. قلت له: لن أربح.

– يقولون إن المكان ثابت ونحن ضيوف طارئون عليه. بل الوطن هو الضيف. اللعنة على الوطن!

– كتب خالي رستم قائلا إنه حاول تأمين منحة من أجلي لكنّه، للأسف، فشل: ولكن لا بأس– كتب لي– بعد أن تتخرج في كلية الفنون من دمشق، تكمل دراستك هنا في الاتحاد السوفيتي. تأجّلَ سفري، إذن، أربع– خمس سنوات، ومع ذلك سأسافر.

– انفجر الديناميت بيد علي كامل الثانية. بترها. الأولى، بترت قبل عامين.

– لم يجدوا سرحيل، أخذوا أخته!

– المطر، خير!

– هم يحضّرون لك شطيرة وأنت تعلم مما تكون. ساخنة لزجة ستكون. قاتلة. لأننا نحمل ضيوفنا سأحاول البحث عما هو فيك ويُثقل عليّ. ولكن إياك أن تبكي.

– يكتب لنا خالي رسائل من موسكو. أريد أن يمضي الوقت بسرعة، أن تركض السنوات. أريد أن أسافر إلى هناك.

– من له كل هذه الأرض وكل هؤلاء الجند لا يبكي. ملايين الأيدي ستمتد لالتقاط الدمع المنهمر من عينيك، لكنها لن تفعل أكثر من أن تحجّره وتقذف به السماء. سيكون للدمع صوت ولون المفقودين الذين لا تقع عليهم عين ولا تطولهم يد، وهم يئنّون. أنا المفقود أنتظر من يسقيني كأس خمر لأعود. إياك أن تقول لا خمر لمن لا تسبقه رائحة البارود والدم، لكنك تقول. اللعنة على البارود والدم. اللعنة عليك يا أنا الذي هناك. لن أعود إذا سافرت قبل عشر سنوات.

– أترى ثلاثة آلاف الأعوام منغرزة في الرمل! الزمن لا يزال دافئا منذ انسلخت الشمس. الضيوف يسرقهم النوم لحظةً فيستفيقون على مائة ألف عام في جيوبهم. ينتظرون أن يغلبك أنت أيضا النعاس. أشياء كثيرة بانتظار أن تغفو لتتدلق عليك. هو الخوف وحده يغلق الأبواب. لا تنس صوّانتين جرّحتا قدميك العاريتين من تكونان، والعشب فيّ وفيك وفي كل مكان يدب فيه اليباس.

– البلوطة تتحسس وقع خطوات مرّت من هنا ثم تلاشت. يختلط دم السماء بنسغها من أجل أن تتضج الأقدام.

– ضربت صاعقة خرنوبة أبي يوسف فشقتها نصفين. حرقت الصاعقة ابنه غازي وقتلته بينما بقيت جحشته ديبا على أحسن حال. ديبا جحشة حكيمة. كان غازي يلعن الآلهة. الآلهة يحبون الدم وبه يغتسلون.

– تشرب من لب الأرض حمم الرغبة. طوبى لمن يمد يده إلى ذلك اللاهب الطري.

– يقولون إن للأقدام النحيلة صدى عظيما في السماء، كوقع الأقدام الثقيلة في الأرض. تنفتح لها أدنان خمر ينضج طربا حين تأتيه. اشرب منه، تغدُ عظيما كما لم يكن أحد مثلك من قبل. هنا، يعبدون الأقدام الثقيلة، أمّا هناك فعلى المرء أن يخلع حذاءه كي تخف قدماه. وأنا أنبش الرمل لأخرج قشرة الشمس من تحت أقدام العابرين. الشوك يدمي قدمي. كذّابون. هراء. هذا ليس دمي، ليس لي. يخرج مني إليك. يقول هلمَّ لنستحم بماء ملعون، ليس لمن يلعقهم لسان آلهة الأرض سواه. أريد أن أرى كيف يغادر الدم الأقنعة. لا يحزننك دم الشاحبين. البلوطة، جسد آخر تصل إليه.

– هاجر نوح سالم إلى جبل النامور، آثر سكنى الجبال. بنى غرفة من الحجارة والصخور لنفسه ولزوجته وابنه الوحيد شمعون، وأخرى أصغر منها للعنزة ساميلا. كان نوح مهندسا جيّدا، لكنه لم يعد يطيق ..أي شيء، بل كل شيء، الكل. باتت طرقات روحه بحاجة إلى هندسة. جاء صديقا طفولته إدريس وجاثم لزيارته محاولين إقناعه بالعودة. جاثم يعمل مقدما في الجيش. بينما كانوا يشربون الشاي أعطى جاثم مسدسه لشمعون كي يلعب به. خرجت رصاصة.

– أحرقت هندية بنت لمياء جميع كتب أخيها راجي. كان معتز صديق راجي قد خرج متأبطا أحد كتبه ولم يعد.

– تسلّمتُ رسالة جديدة من خالي رستم، لكنّه لا يدعوني فيها لزيارته. يقول فيها إنه يفكر بالسفر للعمل في ليبيا. لا يهم. سوف أسافر إلى موسكو يوما ما.

أحس درويش كأنّ أحدا يقف خلفه، فالتفت إلى الخلف بسرعة، فيما قشعريرة تجتاح جسده. لا أحد في الغرفة! ومع ذلك فقد رأى ظلاّ يتحرك على الحائط. جنون! أراد الابتعاد وترك الحائط وشأنه، لكنّ ما شده إليه كان أقوى من إرادته. كثيرون كانوا يأتون إلى درويش شاكين باكين ويغادرونه مبتسمين بعد أن يكونوا قد حشروا في صدره أوراق آلامهم. رأته فاطمة يتلقّى الأحزان دون أن يتخفّف منها. زميلته في الجامعة فاطمة أحبته بصمت. لم تشأ أن تحشر شكواها في

صدره، كالآخرين. قالت له مبتسمة بحزن: أنت حائط مبكى.. ثم أكملت صامتة: كم أنت مُحبّ.. ما أسهل استحضار الدمع في عينيك!!

– الجنون لا ينجبه العقل ولا تنجبه الروح، إنما عقل الروح وروح العقل، حين يغدو كل شيء عاريا، ألف أعمى من لا يراه، وألف ملعونة روحه وملعون عقله من لا يريد.

– اكتب يا بني، ليقرأ أحد ما، فلا بد من أن العتبة مسكونة، ولكن ابتسم قبل ذلك لجان جدك. أم أن صورته لا تذكّرك بشيء من هذا القبيل. لم لا! فليكن. إنما اللقاء يتم على العتبات. الجان شيء نريده فلماذا نخاف النار! العتبة شيء لعين يمكن أن تعبرها ويمكن أن تتكب على وجهك أو تسقط على قفاك وأنت تحاول اجتيازها. لن تكون بنا حاجة لعتبات وأبواب بعد اليوم، فنحن أنفسنا عتبات. أحد ما سيحترق على عتبتي، سيموت، وسأنفث ريحا تزيل رماده عن وجهي. لن أقف على العتبة مرّة أخرى. لن أجلس على ذلك الكرسي اللعين. تخيل نفسك واقفا على باب معبد، مقدمتك في مملكة الله ومؤخرتك في مملكة الشيطان. عليك أن تسرع بالدخول قبل أن يدخل معك، أو يدخل فيك.

– كنا نقف حين غادروك على عتبة اللقاء، لكنها كانت رخوة فابتلعنا القاع. وأنت كنت تريد أكثر مما تحتمل العتبات. هي لا تشعر بالشوق والحنين. هي هلام لا يدري كيف تكون الأشياء وكيف يكون. من يرى وينسى فسوف يبحث بين الركام ألف ألف عام عن قشرة شمس تدفئ قدميه الحافيتين الباردتين. الذين ينسون حفاة دائما، باردين يُطردون. القمامة وحدها تنسى تاريخها. لا أريد أن أنسى.

– احترق بيت مؤونة الشيخ أبي البنات، خرجت ابنته الصغرى إلى الحاكورة، ليلاً، ولم تعد، ومعها اختفى ابن الشرطي سمير. لم يعلنا عليها الحداد سبعة أيام. ضرب الشيخ إبراهيم بالمندل، ثم ابتسم راضيا: اطمئنوا إنها في أمان.. هي في حضن ابن أبي سمير في الشام.

– تحتفل الأرض على طريقتها. تعج بهوام تكاد تغلق منافذ السماء. ترسم طريقا يخرج من الأرض إلى الأرض. من أجل أن الهواء أرضٌ نحكّ رؤوسنا بلا شيء. لا لقاء لمن لا ذاكرة له. سيرى من سيأتي، إذا بقي هناك من يأتي، كيف تكون الأشياء خارج نفسها. إلى أين يذهب الناس؟ لماذا هم صامتون؟

– الثآليل تزول إذا استطاع المرء أن يصوم عن الكلام أربعين يوما بعد أن يضع حبة شعير في مكان لا يعرفه سواه. هكذا قالت العجوز قرنفل وتهدّم بيتها بعد ذلك وغادرته الخراف ثم ماتت مدهوشة على عتبة القطيع. ربما هم يريدون إزالة الثآليل عن أرواحهم، لكن ثآليل الروح لا تزول بالصمت والثوم. الزمن المضغوط ينهش الأقدام رغبة بالتفتح. من يَبُل على الأرض فزعا تصوّب الأرض إلى خصيتيه لعنة تصيب ذريته بحصار الحلم.

– غداً سأذهب إلى ترجمان محلّف لترجمة القبول، ثم سأذهب إلى شعبة التجنيد، للحصول على موافقة. حسنا أنني وحيد. إذا تمّت الأمور بخير سأذهب بعد غد لتقديم أوراق جواز سفر.

–3–

من القنيطرة إلى عين الغار

نزح غريب مع أمه من القنيطرة في حرب الـ 67. استأجرت أمّ غريب دار عجوز قديم قرب بيتنا. عملتْ سقّاء في المدرسة، لم تكن هناك شبكة مياه، وكان الجميع يشربون من ماء العين. كان ذلك يعني نقل الماء من أسفل الوادي إلى

أعلى السفح وإلى قمة الجبل حيث تتوضع بيوت الضيعة. كان لا بد من تأمين الماء للصغار في المدرسة. وهذا الماء كانت تنقله أم غريب على كتفها مقابل قليل من الليرات، تشتري بها "زمبيلة" تمر منسوجة من سعف النخيل، وكيس تين يابس للشتاء، أمّا البرغل وزيت الزيتون فكان يزودها بهما الجيران، وبيت جدي طبعا. كان العمل شاقا على أمّ غريب النحيلة، وكانت الغرفة التي تسكنها وغريب معتمة. وكانت ابنة صاحبة الدار قد قضت فيها، قبل انتقال أم غريب وابنها إليها بوقت قصير، بمرض السل. وهكذا، فلم تمض سوى بضعة أشهر حتى أصيبت أم غريب بالسل، ولم يمض وقت طويل على نوبات السعال حتى راحت تبصق الدم. ماتت أم غريب صبية، تاركة غريب في مريلته القصيرة وحيدا على عتبة الدار. لم يترك كاسر رفيق مقعده في غرفة الصف الثاني وحيدا، إنما راح يقاوم رغبة المختار في تربية غريب بين أولاده، ويصر على أن غريب سيبقى معه هو، ويعيش ويدرس معه. لم تتحقق رغبة كاسر، فقد رأى الكبار غير ذلك. ولكن غريب كان يرافق كاسر إلى بيته بعد المدرسة كل يوم تقريبا. كان أبو غريب قد قُتل في القنيطرة. لم يصدّق أن الإسرائيليين احتلوا المدينة. لم ير أية دبابة إسرائيلية. ولذلك حين أُمِرتْ وحدته العسكرية المنتشرة في العمق من القنيطرة بالانسحاب، بعد أن أَعلنَ بلاغٌ عسكري سوري سقوط المدينة، لم يشأ الانسحاب مع وحدته. أراد أن يعرّج على البيت ويرى بأم عينه إذا كان هناك إسرائيليون أم لا. لم ير أبو غريب أيّا منهم. وحين لم يرهم قرر انتظارهم في بيته لمقاتلتهم. قُتل أبو غريب. وقد علمت زوجته بذلك بعد انتهاء الحرب من أحد رفاقه في السلاح. لكن أحدا لم يَقُل لها كيف قتل. وهي لم تفهم، حين وشى لها ذلك الرفيق، بأن الإسرائيليين دخلوا مدينة فارغة أُعلن سقوطها قبل دخولهم بعدة أيام. لماذا أُعلن سقوط المدينة، طالما أنّ أبا غريب ورفاقه كانوا قادرين على القتال والصمود، عدة أيام أخرى على الأقل؟ لم تفهم أم غريب. لم تكن أم غريب تفهم في السياسة.

لم يسأل أحد أم غريب عن أصلها ولماذا جاءت إلى هنا وليس إلى أهلها وأقربائها. فحين حاولت أمّي مرّة بحذر معرفة شيء عن أهلها، أجابت أم غريب بقسوة واقتضاب:

– لا أهل لدي! وذلك لم يمنع أمّي ابنة الشيخ، التي كان يعني لها الحسب والنسب الشيء الكثير، من معاملتها معاملة طيبة. قالت أمي لأبيها الشيخ:

قلبي يقول لي هذه المرأة مظلومة.. لولا الظلم ما جاءت مع طفلها إلى ديار غريبة عنها. ابتسم جدي قائلا لأمي:

– أراك تتعاطفين مع امرأة غريبة حتى على حساب الأصل!

– أنا أتعاطف مع جميع الغرباء– أجابته– أصل الغريب هو شرفه وأخلاقه.. ما بك غريبة، غريبة.. كلنا غرباء. أعجب الشيخَ جوابُ ابنته.

– أحسنت القول.

تابع غريب العيش في بيت المختار، وراح يزاول مختلف الأعمال كي يكسب بعض النقود.. يساعد في قطف الزيتون وقص السماق وجني الحمضيات وفي التعشيب وتوزيع السماد البلدي ويرافق صيادي السمك إلى البحر.. وهكذا، فلم يبلغ الثانية عشرة من عمره حتى امتنع عن قبول أية صدقة، عدا الركن الصغير الذي أُفرد له في غرفة خارجية في دار المختار. صار غريب يعتمد على نفسه، وصار أهالي القرية يطلبون غريب لعمل هنا وعمل هناك. لم يكن ينقص غريب الذكاء. صحيح أنّه كان يأتي إلى الصف في الكثير من الأيام دون أن يحل وظيفته المدرسية، إلا أنه غالبا ما كان يطلب الصعود إلى السبّورة لحل التمارين، فينال إعجاب المعلم. وبالفعل فقد تابع غريب دراسته، وما أن حصل على البكالوريا، حتى تجرّأ على إعلان أنّه سيدرس في قسم الجغرافيا من كلية الآداب. فرح كاسر لنجاح غريب وفرحت أنا. صار بإمكاننا أن نكون في جامعة دمشق معا.. غريب سيجد لنفسه عملا هناك، سيعمل في الليل ويدرس في النهار.

– سأعمل زبّالا، فللمعلم جاد قريب في المحافظة، وعدني بتأمين عمل في مصلحة تنظيفات دمشق، سأرجوه أن يكون العمل في وردية الليل ..لا، لا ليس خجلا، إنما لأتمكن من حضور المحاضرات في النهار! لم يسجل غريب في قسم الجغرافيا لأن علاماته كانت قليلة. لا، إنما لأنّه أراد دراسة الجغرافيا، وقد اتفق مع كاسر على أن يدرس هو الجغرافيا وكاسر التاريخ وهذا ما كان.

– الأذكياء المجدّون، لا يدرسون التاريخ والجغرافيا، كلّهم يريدون أن يصبحوا أطباء ومهندسين، لندرس التاريخ والجغرافيا نكاية بمن لا يريدنا أن ندرسهما. اتفق غريب وكاسر وتعاهدا دون مزيد من الكلام.

درسنا الابتدائية والإعدادية معا في مدرسة الضيعة التي صارت تسمّى مدرسة الشياطين بعد حادثة بدلة الخاكي، على الرغم من أنّ اسمها على الورق منسوب إلى عدنان المالكي. وبين الاسمين سميت بمدرسة طريق القصر لأنها بنيت على طريق جديد شُقَّ ليخدم القصر الرئاسي الصيفي. لا أدري لماذا لم يكن جدي يحب عدنان المالكي. أمّا الآخرون فلم يكن يعني لهم اسمه شيئا، فقد تبين أنه أضعف في أذهان الناس من مشبّك داهود، فقد خلع داهود بائع المشبّك الصاج الذي كتب عليه اسم الشهيد ونبذة قصيرة عن حياته البطولية وصنع منه سقفا لعربته التي كان يبيع عليها، إضافة إلى المشبك، الجوزية، والعوّامات. لا بد أن تكون عربة داهود موجودة في مكان ما الآن! يا إلهي، كم كان داهود نحيلا حين رأيته آخر مرّة! رحل الذباب مع حمرة وجهه إلى مكان ما. هل هناك من ينادي على العوامات اليوم؟ هل يأكل غريب العوامات؟ لماذا قطع اسكندر ابن المختار أصابع يديه؟ من سيضع العوامة في فمه بعد رحيل داهود؟!

علّمت الحياة غريب كثيرا من الحيل التي لم يتعلمها كاسر أو درويش. فهما لم يضطرا مثله للعمل هنا وهناك والعيش في أسرة غريبة تراقب كل الحركات. فلم تكن عائلة المختار بالطيبة التي تتظاهر بها، وخاصة زوجته، وابنته الكبرى. وقد كان غريب يشكو لكاسر في كثير من الأحيان معاناته، ويرجوه أن لا يخبر أحدا بذلك، وأن لا يطلب منه المجيء للعيش عندهم، لأن ذلك سيتسبب للمختار المسكين بكثير من المشاكل. سيعاتب زوجته، فهو يخمّن أنها كهينة، وهي ستعاقبه، كما تفعل دوما حين يتلفظ بكلمة واحدة لا تعجبها، بل تغلق باب البيت بالمفتاح، مما يضطره للنوم في غرفة غريب الخارجية. علّمت الحياة غريب كثيراً من الأشياء. وكثيرا ما كان يلجأ إليه كاسر وغيره من مجايليه طلبا للمشورة.

–4–

جاء جاد ولم يعد

حين جاء جاد للتعليم في عين الغار، تاركا أبويه العجوزين في مخيم الرمل الجنوبي، كان يظن أن مكوثه هنا لن يدوم أكثر من فصل أو فصلين، أو عام أو عامين على أبعد تقدير. لكن عينيه كانتا تقولان غير ذلك. كان فيهما درب طويل مقفر إلا من ريح صفراء، وأشياء تعبث بها هذه الريح، أشياء تشبه البشر. كان ذاك الدرب يمتد على صفحة محيط يهدد بالخروج. وكان هو، هو جاد في قاع ذلك المحيط، وكان هو عيني حاله.. لو كان هناك جهاز غوص يسمح بسبر أعماقهما لاكتشفنا كثيرا، كثيرا جدّا من الألوان المُرّة التي يخفيها الأسود! نعم، يكون اللون مرّاً كما يكون طعم الأشياء. إنه الأسود يغطي كل الألوان، الأسود نفسه الذي يبدو أبيضَ هنا وهناك. لكنّها الألوان موجودة وستظهر

يوما ما!: لا! تقولُ لي عينا جاد، لا ليس في الأفق ما يزيل السواد عن صفحة الماء. لم يسعف جادَ السكرُ في رؤية أي لون في الأفق. راح جاد يسكر كل يوم، بل يخيل إلي أنه كان يأخذ بطحته معه إلى المدرسة. وكان الجميع يفهمون ذلك ويسكتون عنه. لم يعد الشراب بالنسبة له يقتصر على الخمّارة حيث يلتقي كل مساء مع معلمين آخرين، مع أبي إبراهيم، أو أبي طافش كما يخاطبه البعض، والضابط العجوز المتقاعد أبي حسن الذي ما زال منذ رحيل فرنسا يلعن الساعة التي رحلت فيها، مع أنه حين كان طفلا كان يحلم، كما يقول، بيوم يكبر فيه ليلتحق بالثوار ضد فرنسا... صار جاد يشرب في البيت، ثم صار يشرب في كل مكان.

قال له الضابط العجوز مرّة:

– الأفضل أن تذهب وتقاتل الإسرائيليين وتموت، الأفضل أن تموت من أجل فلسطين من أن تنتحر بالعرق. نظر جاد في عينيه نظرة فيها من الغضب والاحتقار واليأس وهو يقول:

– وهل تقاتل أنت إسرائيل؟

عندما وجد الضابط نفسه مهزوما، قهقه قائلا:

– أنا! وما علاقتي أنا، أنا تقاعدت عن القتال.

لم يمض وقت طويل حتى فُصِلَ جاد من التعليم، هو في الواقع لم يفصل. ففي البداية كان يعمل معلما وكيلا في الابتدائية ثم كُلِّف بساعات لغة إنكليزية من خارج الملاك في الإعدادية، وإذا بهم يكلّفون واحدا بدلا منه، وربما كان ذلك بعد أسبوع من سؤاله عن قتال إسرائيل. أُبعدَ جاد عن التعليم لكنّه لم يرحل إلى أي مكان، فقد كان تزوج من ناديا، وناديا كانت حبلى بعائد. أمّا ناديا فمن أسرة فقيرة جدا. أمها كانت قد ماتت قبل ذلك، وبقيت قبل موتها مشلولةً طريحةَ الفراش لمدة سبع سنوات، ووالدها العجوز مبتور اليدين، انفجر الديناميت بين يديه وهو يعده لاصطياد السمك. وكان لناديا أخ قتل في لبنان وأختان أكبر منها متزوجتان، زوج الصغرى بينهما يعمل في لبنان، أما زوج الثانية فيعمل سائق دبابة، وهو طوال الوقت يشرب المتة سواء هناك أم هنا مع زوجته السمينة في البيت، بينما أولادهما الخمسة يتسلقون مرتفعات حي الستة وثمانين. في الواقع هم ليسوا هنا، هم هناك. المهم.. أي مهم! لا شيء مهمّا، ومع ذلك أنا أكرر كل مرّة مثل ببغاء المهم.. المهم، اللعنة على هذه الحياة! ولكن كيف تدبر جاد أمر البقاء على قيد الحياة والكرامة؟ ألم يجد لنفسه عملا؟ لو أنه أعطى دروسا خاصّة! لم تكن الدروس الخاصة دارجة في ضيعتنا. كل المعلمين تقريبا كانوا من الضيعة نفسها، كانوا يحبون المدرسة والتعليم ويحبون التلاميذ، وكنا نحن نحبهم. كان الجميع مستعدين للمجيء إلى أي بيت لإعطاء درس إضافي، لكن أحدا لم يكن يفكّر بأجر مقابل ذلك، لا، فقد كان ذلك مستحيلا، كان ذلك إهانة أن تعرض على معلم أجرا مقابل علمه. ولكن لم يمض وقت طويل حتى صارت الدروس الخاصة هي الأهم. لم يعد أحد يعطي شيئا دون أجر.

صار صيادو السمك يأخذون جاد أحيانا لمساعدتهم، وصار أحيانا يصطاد لنفسه. اشترى لناديا بقرة، وصار يتاجر بالحمير. نعم بالحمير. كان يأتي بها، في البداية، من أماكن أخرى. لكن أمد تجارته لم يطل فقد تكاثرت الحمير حتى صارت موجودة في كل مكان. صارت الحمير تُنتج محليا. لذلك عاد جاد إلى البحر، صار يسكر أقل من ذي قبل، صار يسكر فقط في المساءات. كنا نذهب أحيانا لزيارتهم كاسر وأنا، نشرب الشاي عندهم، يحدّثنا عن فلسطين، عن بيت جده في القدس، البيت الذي لم يره، البيت الذي رسمته في مخيلته أحاديث والده بكل ما فيه من دفء. لم يعش جاد طويلا، مات في الشتاء قبل أن يكمل الأربعين.

أفاقت ناديا في ذلك الصباح على نداء عائد. كان يحاول الإفلات من ذراعي والده دون جدوى. مات جاد معانقا عائدَ ويبس في تلك الوضعية قبل أن يكتشف موته أحد. اللعنة على الموت! بل اللعنة على الحياة التي تدفع إلى هكذا موت! لو رأيتم كاسر في تلك اللحظة، لو رأيتم الوجوم الذي أصابه وهو يحدق طويلا إلى عيني جاد المغمضتين. أجل، مات جاد مغمض العينين على حلم ما. أما كاسر وأنا فحزنّا طويلا، ورحنا نزور قبره، نمضي هناك بعض الوقت نتحدث إليه، و.. ربما كان يتحدّث إلينا أيضا.

لم أكن أفهم، ولا الآن أفهم كيف يقبل الله أن يموت الفقراء والمقهورون دون أن يتذوقوا طعم حياة أخرى، حياة بلا قهر ولا عوز ولا مذلة. لكن جاد مات، ومات معه بعض إيماني بالعدالة الإلهية. ومع موته صرت أفكّر أكثر بأن العدالة ما لم تتحقق على الأرض فإنها لن تتحقق في أي مكان. فهنا يجب أن يحق الحق، وهنا يجب أن يقوم القصاص. رحت أقتنع أكثر فأكثر برفض دستويفسكي الغفران.

راح كاسر يقطف من أجل جاد الياسمين، ورحت أنا أقطف بعض الأزهار البرية. رحنا نقطف الأزهار ونضعها عند رأسه، عند الحجر الذي رقد رأسه تحته. بعد ذلك صار كاسر يأتي بالياسمين إلى بيت ناديا لتضعه قرب صورة جاد. كانت ناديا تعجب كاسر كثيرا، وربما كان يحبها، لكنه لم يكن يجرؤ على قول شيء أو فعل شيء. كان يخلق ألف حجة للذهاب إلى هناك، وكان يقنعني كل مرّة بضرورة الذهاب معه لزيارة ناديا، وكنت أوافقه متظاهرا بعدم فهم رغبته الحقيقية، فهو لم يحدثني عن ذلك صراحة، وأنا لم أسأله. كنت أفكر أحيانا بأنه يصطحبني معه لزيارة ناديا ليس خوفا من ألسنة الناس كما يخطر بالبال، إنما خوفا من نفسه، خوفا من أن يجد نفسه فجأة معها دون أحد آخر، فلا يجيد الصمت ولا يجيد البوح. لكنه لم يذهب، أبداً، وحيدا إليها، لم يذهب، ولا هي شجعته على ذلك، فقد كانت تنظر إليه نظرتها السابقة، نظرتها إلى صغير، وكان يشعر بذلك فيرتبك ويومئ إليَّ أن حان وقت الانصراف، حتى قبل أن نشرب كأس الشاي.

-5-

مسرح العرائس

ما زال المطر يهطل غزيرا، وما زال صوت دراجة مسعود ذات العجلات الثلاث يقطعه صوت الرعد، يخبر عن استمرار انسداد البلاليع. مسعود ينقل السيدات عبر ساحة الثامن من آذار التي تحولّت إلى مستنقع، رافضا نقل الذكور. مسعود يحتقر الذكور. لا رجال بينهم! يقول.

يخبط أحد ما بقوّة على خشبات الباب. ينظر درويش بالعين الساحرة فيرى عزيز في بزّة سفاري رمادية. التمعت بدلة الخاكي في ذاكرة درويش!!

في غرفة التحقيق لا يرى درويش إلا حذاء المحقق. كان مجرّدا من كل شيء إلا ملابسه، والطمّاشة على عينيه، وسؤال عن معلومات مصدرها عزيز بالتأكيد، ولكمة مفاجئة على الوجه.. عزيز بالباب! الساعة التاسعة والنصف من صباح ربيعي جميل. أغصان شجرة الفلفل الكاذب تحجب سيارة البيجو الواقفة قرب باب كلية لآداب، عزيز يتأبط صديقه إياد، يُرتّب معه حفل عشاء مستعرضاً أسماء المدعوين، وبين عنقود فلفل كاذب وآخر ينسل به إلى السيارة. لم يعد إياد، وفي اليوم التالي اختفى مصطفى واختفت علياء، علياء التي أوهمها عزيز بحبه الكبير ثم وضعها عارية بين أصدقائه ساخرا من حبّها. كان أصدقاؤها قد اختفوا جميعا. وأما بعد، فأشياء وأشياء... عزيز، بالباب!؟ بيتك مثل القبر يا درويش! تعال يا كاسر! إنّه هنا.. لا تستطيع المجيء!.. عاد درويش إلى حائطه، ماسحا صفحته الخشنة بعينيه، محاولا تجاهل الخبط العنيد على الباب. لكنّ شيئا ما دفعه إلى تفقّد خشبة المسرح قبل أن يعود إلى أوراقه. ثمّة عرش وحبل مدلّى من السقف، حبل ليس كالخيطان الناعمة التي تُربط بها الدمى إلى أصابع الممثل اللاعب، إنما هو حبل ثخين عُقِد على شكل أنشوطة نازلة من السقف، أنشوطة معدّة للالتفاف حول أعناق الدمى. الدمى التي ينصّبها درويش على كرسي كبير مصنوع من خشب البلّوط ورثه عن جدّه الشيخ خليل، ينصّبها على كرسي العرش الموضوع تحت الأنشوطة قبل أن يلف الأنشوطة حول عنقها، وبعد ذلك، بعد ذلك فقط يبدأ طقسه المسرحي، الذي ينطلق من حوار بين الدمية ودرويش الذي يدور راقصا حولها، بيده ريشة وفرشاة وسكين وسعفة نخيل، يدور حولها عاريا مؤديا حركات راقصة كرقصة كاهن أفريقي حول ذبيحة مقدّسة. وبعد ذلك يكون على الدمية أن تموت. لكن الدمية قبل أن تدخل طقس درويش الأسطوري تُحضّر تحضيرا خاصّا يحتاج إلى كثير من المعرفة والخبرة والسحر.. وهذه كلّها أشياء تدرّب عليها درويش وأتقنها. أمّا الأشياء التي تحتاج إلى الرسم فكانت تخرج من تحت يديه حيّة، حتى إذا شُنقت دمية زهقت حياة حقيقية، هنا وليس في مكان آخر كما يفعل الشامان، أو ربما كما يفعل الشامان بالضبط. من يدري! فما أسهل أن يتحوّل درويش في بيته العتيق المغلق، الذي لا تدخله الشمس إلا من شق ضيق قبيل الغروب! ما أسهل أن يتحوّل إلى شامان في مجتمع ينسلخ ناسه أمام عينيه إلى كائنات تشبه البشر لكنها ليست بشرا، كائنات تجمع الدمية وشخصها في كيس جلد واحد. أجل أكياس جلد! فهذه الكائنات التي تعيش حول درويش، تأكل وتشرب وتغنّي وترقص وتتناكح.. أشبه بقُرَبٍ منفوخة بالقهر حينا وبالوهم حينا آخر، وبالجهل في أحايين ثالثة، وباللؤم والحيوانية في كثير من الأحيان.. فلماذا لا يصنع هو كائنات مثلها ويشنقها؟ فقد يقل عدد تلك التي تجوب الشوارع منها، وتلك التي تنسلُّ إلى البيوت، وتلك التي تزرع الليل بالمخاوف والأوهام والقذارات؟! لماذا لا يصنعها ويزرع في كل واحدة منها ألف روح واقعية؟ ألفاً! أجل، إذا زرع في كل واحدة ألف روح تكاد حياته لا تكفيه للتخلص من الأرواح الشريرة. وبعد ذلك، حين يكون حاجباه قد تهدّلا ونما عليهما شعر أبيض طويل غليظ معقوف يبحث عن عينين صارختين.. عندئذ، قد يرى الشوارع نظيفة ويرى ضحكة حقيقية على وجوه الناس. أمّا الآن، فأمامه كثير مما يتوجّب فعله. إنّه عزيز بالباب! عزيز ليس بحاجة إلى الرسم. هو بالنسبة لدرويش أكثر من قربة وأكثر من دمية.. سيكون عزيز ممثلا وربما سيكون عليه أن يُشنَق. بل قد يحتاج درويش إلى وضع بعض اللمسات على وجهه. أجل يجب أن يثبّت عليه تلك الملامح التي سترتسم وتتوضح شيئا فشيئا مع تصاعد الرعب في روحه. أمّا بعد أن يُخرِجَ رأسَ الدمية من الأنشوطة فلن يكون بحاجة إلى تلوين وجهها. ليجمّلها الآخرون. فما أكثر محترفي تجميل وجوه الموتى! من أجل من يفعلون ذلك؟ هل من أجل أن لا يرى الله ملامح وجوه عباده فيكتشف فجأة أنهم غرباء هناك حيث يبدون له من عليائه كائنات بالغة الضآلة، كائنات تقوم بحركات تافهة وتشغل نفسها بأشياء تافهة؟ يكتشف أنّهم غرباء وأنه سيحتاج إلى وقت طويل للتعرف عليهم، وأنّ مسحهم براحة اليد أو بجرة قلم أسهل من النظر في أحوالهم.. لم يعد هناك طين إلهي. صار البشر يُصنعون من مواد أخرى. وها هو درويش يصنع منهم في محترفه الصغير من يشاء وينصّب منهم على العرش من يشاء، نافخا فيه

الروح.. ولكن روح مَنْ هذه التي ينفخها فيهم درويش ثم يسحبها منهم؟ إنها من أرواحهم التي تأتي حال استحضار أسمائهم.

ما زال أمام درويش ما يفعله، فعزيز بالباب! وهناك أشياء بحاجة إلى الرسم في مسرح دمى درويش. أشياء سيحتاج إليها طقس تنصيب عزيز وما بعد التنصيب. أجل هناك الكثير. فعلى كل دمية أن تجسد شخصية معيّنة، فلا يجوز أن يرحل عزيز وحيدا، لا بد من جوقة ترافقه إلى الجحيم. على درويش أن يجمع جوقة أرواح ويزرع فيها جميعا روح الرحيل. فتكون هذه المرّة طوع يديه، ويكون هو مالك قدرها، يكون السيد الذي بيده أنْ يفتح باب الهوة أو لا يفتحها. على كل روح أن تحلّ في دمية، وبعد ذلك لا تعود الدمية دمية، إنّما نظير حقيقيا لذلك الذي هناك، شفعا لا يكون دون شفعه الآخر، فإن زال أحدهما زال الثاني. درويش ليس شامانا، أو ربما هو شامان خاص، لا يطرد الأرواح الشريرة ولا يعالج المرضى ولا يستحضر الأرواح، إنّما يستحضر أولئك القابعين خلف سبعة أسوار، كما يقول غاليتش:" خلف سبعة أسوار. خلف سبعة أسوار. هناك نسور ستالين. يأكلون اللحم المشوي ".. يستحضرهم إلى مسرحه الصغير صغارا، يعيدهم إلى طفولتهم ويترك لروحهم الصغيرة أن تستدعي روحهم الآثمة عبر طقس سحري، فما أن تحضر الأخيرة حتى تجد نفسها أسيرة دمية رأسها في أنشوطة، رهنَ يد درويش. كم من الدمى صنع درويش وكم منها عَلّق في مسرحه المنزلي، مسرح الحجرة، ولكن ليس مسرح المؤلف الواحد والمُخرج الواحد والممثل الواحد! فالأشياء التي تتشكل بين يدي درويش ليس هو الذي يُشكّلها، إنّما هي تكتسب بين يديه شكلها الحقيقي، هنا تظهر على مسودة الواقع، كما ترتسم الصور في محلول الكاشف، تظهر لا كما يجعلها درويش بل كما تكون في الواقع؟ عدد الدمى ليس كبيرا بعد، وليست العبرة في الرقم، فالواحدة منها تتسع لألف روح من بنات جنسها. عزيز بالباب! بعض من شنقهم هنا اختفوا هناك. هو مسرح الحجرة، هو مسرح العبث واللامعقول والمسرح الواقعي معا. درويش هنا وعزيز هنا.

كان درويش في الأشهر الأخيرة قد امتنع عن الخروج من البيت. نجوى هي من يجلب له طعامه، وأخوها الجريح فادي يعلم بذلك ويسكت عنه، بل يباركه دون أن يصرّح لها بمعرفته أو يوحي بها: لست بحاجة إلى الخروج إلى الحياة. لتأت الحياة بنفسها إليّ. وهنا، هنا سأصفي حسابي معها! قال درويش لنجوى. الخارج لا يطاق، أمّا حين يأتي إليّ فسيكون كما أريد أنا. هنا سيعرف الواقع نفسه. عزيز بالباب، وبعد قليل سيكون في مكان آخر.. تأكّد درويش من الأنشوطة المعلّقة في حلقة حديد تبرز من السقف. هو حين علّق الأنشوطة، لم يخطر بباله أن يشنق نفسه، ولم يعلّق الأنشوطة من أجل أن يفعل ذلك، ولم يخطر بباله أن هذا الحبل سيلتف حول عنق أحد ما. عزيز بالباب!.. الأنشوطة حقيقية، متينة، يمكنها أن ترفع جسدين معا.. هو فقط في لحظة انسجام مع ما يحيط به، شعر أنّ الحياة أشبه بمسرحية كاذبة، أو في أحسن الأحوال مسرحية عبث، وأن الخلفية الوحيدة المناسبة لهذه المسرحية هي المشنقة التي تتدلى على مسافة من الرأس. قد لا تراها العينان، ولكنها موجودة. وأمّا في المسرحية فيجب أن تكون موجودة، بل يجب أن تُسلَّط عليها بقعة ضوء، فمن شأن الإنسان أن يكتشف نفسه تحت المشنقة ومن شأنه أن يكتشف أشياء كثيرة لم يكن يعرفها من قبل، بل لم يكن ممكنا أن يخطر مثلها بباله. وليس فقط من يعيش تحتها يحدث له ذلك إنما المتفرّج أيضا. أمّا المشنقة فشيء تافه لا معنى له إذا لم تلتفّ حول عنق أحد ما. عزيز بالباب! أصدقاؤه راحوا يسكنون الدمى، وراحت الدمى تقتلهم!

مكتوب في دفتر درويش: ما معنى أن يقرأ الإنسان ويكتب؟ ما معنى أن يعيش الإنسان من أجل القراءة والكتابة؟ والرسم والألوان!! لا وجود للألوان. هي خدعة الضوء لنا. هي وهمٌ في رؤوسنا. والكلمات الجميلة جيف. أنا لا أريد أن أصبح مقبرة كلام، بل يخيل إليَّ أن جثث الكلمات أشد عفونة من الجيف. جيف تبتسم وترتسم مخادعة على بطاقات المعايدة.. جيف، ولكنها حيّة وسرعان ما تغافل وتقتل.. لا أريد أن أغدو مقبرة صبر.. الحكمة قبر ملئ بالجيف. أن تُخرج ما يملأ روحك ضبابا هو البوح، أن تجسّده في شيء مادي هو الخلق، وليكن بعدها ما يكون، فما سيكون هو ما يجب أن يكون. البوح هو ذلك الترياق الذي يخشاه الموت، وهو الموت

– وشى هاني علي بأخيه الأكبر حسن. قال إن شبابا لا يعرفهم يأتون لزيارته مساء كل ثلاثاء.. اختفى حسن، وثلاثة من شباب الحي، بينهم عيّاض وحيد أمّه على ست بنات. كان عيّاض يقرأ دروس التاريخ والجغرافيا بصوت مرتفع على سطح بيتهم الصغير، لذلك صار اسمه عيّاط

– لا، ليس كما يقولون. المكان للجميع. كل حبة تراب، كل ذرة هواء، كل كلمة، كل شيء يستتر بغبار الصمت. اخلعْ جسدك عنك وافتح عينيك بعناد. بُحْ بجسدك وروحك وعقلك ولسانك، يفرُّ منك الغبار. لزجة هي المسافة، فالهواء مكتظ بأجساد زلقة تتبادل السؤال. لكنْ لا عليك. نحن ننتظر الرحيل إلى مكان آخر. أليس كل مكان يصير آخرَ بنا؟ ثم ماذا لو أن ما هنا صار شيئا آخر غير الذي هو عليه فمن سيكون العائد إليه؟: طوبى لمن يصير حاضنة للقاء. إنهن يستطعن وإنهم يستطيعون، وأنا أبحث عن شيء خبّأْتُه في جعبتي قبل أن ينسفني البوح. أعرف ذلك الشيء الذي يمكن أن أبوح به، هو أنا الذي يجب أن يعيش. أمّا ما يستتر خلف هذه الخرق فلا يستحق البقاء! سأنظّف روحي من عتمة الليل الطويل. الضوء سيهطل عمّا قليل. سأفتح عينيّ وأكسر خوابي روحي، كيلا يعشش فيها الظلام. سأعيش إن استيقظت وأرى وأريد.

– عاد متّى الأصفر إلى حارة الشيخ خليل حاملا على كتفيه ضبعا خنقه بيديه. أحزن متّى أن الحارة نائمة، وتمنى لو تُبعث في الضبع الحياة.. وفي الصباح خرج عشرة رجال وخمسون امرأة لدفن برهانة بنت الشهرين. لم يسمحوا لأبيها بالخروج معهم. اكتشفها أبوها تحت جسده السكران عندما غالب النهوض للتبول عند الفجر.. هل حقا فات الأوان؟! لا يُسمح لأحد بالرحيل دون مقلتيه. بيد أن المقلتين لا ترغبان عادة في الرحيل. من ينتظرني ويعيدني إلى مقلتيّ؟ لن أغمض عيني. ليس من أجل الدمع تكونان. لا بأس، سأسفح منه قطرتين من أجل الغضب والحب. من يصون دمعه يراه المسكونون بروح اللقاء. سيكون لقاء أو لن نكون نحن في أي مكان. أجل ما الذي يثبت أننا موجودون! ليس على الانتظار وحده يتكئ الرجال. أمّا أنا فأنتظر، أنتظر، كم هو مخجل أن لا يفعل الإنسان إلا الانتظار! متكئا على رغبتي، مسكينة هي رغبتي! ألن تصبح يوما كعصا الأعمى أتمسّك بها فقط كيلا أسقط في حفرة أو أرتطم بجدار؟ لكن عصاي هي عصاي أنا وحدي اليوم، إن تعثرت أسقط وحدي.. عصاي، هي عصاي أنا، وربما هي كعصا موسى يسكنها الله والشيطان معا! لتكن كذلك. ستبقى عصاي خضراء، هو اليابس لا يصلح إلا أن يلقى في النار، أما الأخضر فله أشياء أخرى يقولها كيف يشاء. الأخضر دائما يقول، فلماذا الصمت؟ ولكن، هل يعني إذا كنت صامتا أنني لا أقول شيئا؟ الصمت لغة مسكونة بالنار. بالنار!

– شرير من يدفع آخرَ إلى الصمت، ومن يدفعه إلى البوح شرير: ماذا عساي أكون كتبت عن الصمت يوم كانت النار أقوى من اللغة؟ الكلمات كالرصاصات لا معنى لها ما لم تُطلق، ونحن بنادق كلام بعضها يقتل الوحوش وبعضها

يقتل العصافير وبعضها يقتل الناس، ومعظمها لا يطلق إلا الصوت، أمّا هذه الأخيرة فلو أنها تصمت خجلا على الأقل. إيه! لو أن جدران العالم كلها تنهار!

– تزوّجَ عابد زوجة أخيه القتيل سرحان. كان سرحان يسافر في الليل إلى مكان ما ويعود قبيل الفجر أو لا يعود. عادت جثته هذه المرّة، أمّا هو فلم يعد. لم يعد عابد عاطلا عن العمل. صار يعمل زوجا لامرأة أخيه القتيل، وصار يسافر في الليل إلى مكان ما!

– ماذا يعني أن يصمت الشيء، ألا يعني أن تقوله الأشياء الأخرى؟ حقيقة أن يكون الشيء خارج كينونته هي لا حقيقته. يريدونني أن أصمت وأن لا أجاهر بالصمت. قليلا، قليلا تكون الأشياء كما تستطيع أن تكون. لو كانوا يدرون كيف هي تكون حين تستطيع. أمّا أنا فيخيّل إليّ أنني بت أدري ما أريد وما أستطيع.

– الجنود في الجنوب يتسلون بقصف التلال المقابلة. عشرات جثث الخراف، وجثة واحدة لراعٍ وحيد ما زال بيده المزمار. لكن المزمار صامت.. والجنود في الغرب يشربون المتة ويلاحقون مؤخرات النعاج.

– أن تبقى صامتا يعني أن تصبح ذا حظوة عند إيل ويصبح لك مسكن في قبة ذات غطاء، فيها ماء زلال.. قراح.. كما تريد ونار مما يكون في الأجساد.

– غارقون نحن. فهل يصمت الغارقون أم يصرخون؟ لا مكان للّعاب في حضرة الآلهة ولا مكان للصمت. إذا كنت تريد فلا تقل شيئا، فالرغبات لا يعبّر عنها بالكلام ولا تدع لعابك يسيل.

– سخر شاعر الضيعة جميل اسكندر من جدي الشيخ خليل. قال لي: تعال، أنا سأكتب لك أرقية، ابتسم جدي قائلا: أجل تستطيع، ومن لا يستطيع! ليكن إله من صمتك يدفئ جوف نون ويصنع من لاوجودك إلها صغيرا فيه. ليكن أن لا تريد الخروج من الماء، الخروج إلى قشرة تدب عليها كائنات رخوة لا هي صلبة ولا هي ماء. للصمت هناك معنى آخر، فالماء يضج بالكلام. حين تكف عن أن تريد، ينثقب الماء فتنسرب إلى اللاوجود. اغسل وجهك بالماء سبعا وسبعين، وافتح عينيك في ماء العين وهناك قل لهم ما تشاء فسيكون ذلك الاندماج الجميل.

عزيز بالباب: لحظة، لحظة..!

–6–

كرسي الأخ الكبير

تمزّقت السماء عن رعد عظيم وانفجار. صمتت دراجة مسعود. مسعود ناقل جيّد للكهرباء!

عزيز بالباب!

مضت ثلاثة الأسابيع على آخر زيارة لعزيز إلى بيت درويش، الزيارة التي جلس أثناءها درويش صامتاً طوال الوقت. حينها لم يقل درويش لعزيز شيئا ولم يردّ على أيّ من أسئلته، بل لم يرد التحية، ولم يرافق ضيفه أو يشيعه بكلمة واحدة. هو فقط فتح الباب صامتا، وتراجع إلى كرسيه صامتا، وجلس هناك صامتا بانتظار أن يقرر زائره الخروج ويخرج. كان درويش قبيل تلك الزيارة قد دفن حلمه الأخير. ففي أواسط العام الماضي قيل لدرويش إنّ عزّام يبحث عنه. كانت تربط درويش بعزّام علاقة طيّبة في لينينغراد. كان عزّام يدرس الإخراج المسرحي هناك، حين كان درويش يدرس في أكاديمية الفنون في المدينة نفسها. ومنذ خادعوا درويش واقتادوه إلى السفارة ورحّلوه، لم ير أحدهما الآخر. قيل لدرويش إنّ عزام يبحث عنه وإنه يعمل الآن في فرقة المسرح القومي، وإنّه يريد أن يُخرِج مسرحية للفرقة، وإن بإمكانه رؤيته هناك مساءً إذا أراد. قصد درويش قاعة المركز الثقافي لرؤية صاحبه القديم، فرآه هناك يتوسط حلقة من الشباب، بينهم فتاة واحدة ذات عينين سوداوين كبيرتين، وشعر فاحم مجدول. كان بين الشباب رجل واحد في أواسط العمر بملامح وجه قاسية، وآخر يخلو فمه من بضعة أسنان وملامح بؤس تعلو وجهه. كان الجميع جالسين على خشبة المسرح، وكان هناك كرسي خيزران قريب من الستارة التي تفصل الخشبة عن الكواليس يجلس عليه شاب كهل يضع على رجليه آلة عود ناظرا إلى اللامكان. أجل كان شابا كهلا، ولا أدري كيف يمكن تصوّره، لكنّه كان كذلك. وليس من نمط الذين يصابون بملامح شيخوخة مبكرة. لا! إنّما شيء ما فيه كان يقول إن هذا الشاب كهل. ولا بد أن يكون الواحد منكم قد التقى شخصا من نمطه في مكان ما، في يوم من الأيام. وقف درويش في المسافة الفاصلة بين مقاعد القاعة والخشبة بانتظار أن يُنهي عزّام حديثه أو ينتبه إلى وجوده. لم يطل انتظاره فسرعان ما استرعت انتباه عزّام التفاتةُ مُمَثِّليه إلى ذلك الاتجاه. التفت عزّام فقفز من قعدته راكضا صوب درويش، ضامّا صاحبه، مربّتا على ظهره بيده الدافئة مرّة وثانية وثالثة. لم يكن درويش ينتظر مثل هذا اللقاء الدافئ. قدّم عزّام صديقه، هكذا قدّمه: صديقي الرائع، صديقي الحميم...قدمه إلى مجموعة الممثلين، وراح يشرح لدرويش دون مقدمّات لماذا هو يسأل عنه منذ عدّة أيام. وبدا غريب لدرويش أنّ عزّام قال للجميع بصوت مرتفع بأن صاحبه سُحِبَ من الدراسة إلى السجن، فقد تبين أن عزّام يعرف ذلك من مصدر ما، وأنّ درويش أفضل من يمكن أن يصمم لهم ديكور المسرحية. كان عزّام قد أعدّ مسرحية عن رواية جورج أورويل 1984، واختار مجموعة ممثلين للعب أدوارها. خمّن درويش أنّ ذلك الجهم المتوسط العمر هو من سيلعب دور الأخ الكبير، وأن ذات العينين السوداوين الواسعتين لا بد أن تلعب دور جوليا أمّا دور ونستون فلم يخمّن من الذي سيلعبه. ولم يكن من الصعب عليه أن يعرف أن الشاب الكهل هو من سيضع الموسيقى. سحب درويش صاحبَه جانبا.

– هل أنت واثق من أنّهم سيسمحون لك بعرض مسرحية بهذا الموضوع؟!

– لقد حصلت على موافقة أوّلية، ولكن سميّت المسرحية 1948 بدلا من 1984، أنت ترى ما بين التاريخين مِنْ تناظر!

– لن تمرّ يا صديقي. هم لا يعرفون بعد عمّا تتحدث، ولكنّهم ليسوا أغبياء إلى هذه الدرجة.. مستحيل!

– بل أظن، ممكن. هم لا يمانعون حين تتحدث عن أشياء مجرّدة أو عن بلد آخر.. قلت لهم إن النص الذي أعددته لا يتحدّث عن مكان محدد.

– أنا لا أصدّق بأنها ستمر!

– أمّا أنا فأعتقد بأنهم لا يمانعون من الحديث عن الظلم في مكان آخر، عن القمع في بلد آخر، بل هم يتمنون أن يُحكى عن التعسف في جميع بلدان العالم، فذلك سيجعل من تعسفهم شيئا طبيعيا. إذا كان الجميع هكذا فلماذا نكون نحن مختلفين. المهم، هنا، أن لا تتحدث بصورة مباشرة، المهم أن لا تسمّي الأشياء بأسمائها. اعمل مسرحية عن بوكاسا، عن بينوشيه لا أحد يمنعك. أنا هكذا أعتقد.

– ولكنك نسيت أن الرواية تتحدث عن الاتحاد السوفيتي، وأن هناك أخا كبيرا...

– على أية حال إذا كانوا سيوقفون المسرحية فسيفعلون ذلك قريبا، فواحد من النقابة ومعه شخص لا أعرفه حضرا جلسات القراءة الأولى والثانية. ولم يقولا شيئا. فقط قالا: يعطيكم العافية يا شباب وخرجا. كان ذلك من أكثر من عشرة أيام، ولم يأت أحد إلينا منهم بعد ذلك اليوم.

– ليكن ما يكون، أنا معك، سأفكّر بديكور بعد أن أقرأ النص الذي أعددته أنت وأَحضَرُ معكم التدريبات عدة أيام. أنت تعرف أنني لم أصمم ديكورا مسرحيا قبل الآن!

– ولكنّك كنت تحب المسرح كثيرا، وأرجو أنّك ما زلت كذلك، وكنت تحضر معظم العروض في مسارح لينينغراد، كم مرّة حضرنا معا في المسرح الدرامي الكبير وفي المسرح التجريبي وكم مرّة حضرت عروضا في معهدنا! وكل مرّة كنت تبدي ملاحظات مهمة جدا. أنا لم أبحث عنك لأنك صديقي، إنما لأنني واثق بموهبتك، وبقدرتك على فعل شيء مهم خاصّة في موضوع خاص كهذا يعنيك ويعنيني، وبحاجة لكثير من المهارة لإيصال رسالة خفّية.. أنت تعي جيّدا ما أعنيه.

أعاد عرض عزّام الحياة إلى تفاصيل أيام صديقه. فقد كان يثقل على درويش، ويضعه على حافة العزوف عن المجتمع كليا، وأحيانا على حافة الانتحار، شعوره بعدم حاجة الآخرين إليه. بات يشعر بنفسه قطعة أثاث عتيقة لا يحتاجها أحد، ولا يُقْعِدُ أصحابها عن رميها على كومة نفايات إلاّ الكسل.. وشيء آخر كان يثقل عليه– شعوره بخنوع الناس. لم يكن يريد أن يصدّق أن ناسه يمكن أن يكونوا خانعين إلى هذه الدرجة. يمكن للإنسان أن يخاف، بل من واجبه أن يخاف، وإلا فإنه سيكون من الصعب عليه البقاء على قيد الحياة، ولكن أن يفقد الإنسان شخصيته، أن يتحول إلى عجينة يُشكّلها الخوف كيفما يشاء، أن يتحول إلى كائن لا يهتم إلا بالأكل والشرب والمأوى.. بل أن لا يهتم إلا بالحد الأدنى من هذه الأشياء، الأشياء التي تقوم عليها حياة كل حيوان.. فذلك ما لم يكن درويش يريد أن يراه في مواطنيه، وما لم يكن قادرا على إغماض عينيه عنه. أيُعقل أنّ الناس يتحوّلون إلى عبيد بهذه البساطة. أيعقل أن تكون صفة الإنسان قشرة تافهة يقدر الخوف على خلعها بهذه السهولة، ويقدر على تعرية البهيمة التي تتخفّى تحتها بهذا اليسر، فإذا بهذا الذي كان يُسمّى إنسانا كائن تافه تديره غريزة البقاء، وإذا به يُروَّض قبل اليوم العاشر. فيأكل ما يؤمر بأكله ويقول ما يؤمر بقوله، أو ما توحي له غريزته بضرورة قوله. لا يريد درويش أن يصدّق أنّ الناس الذين يحبّهم على هذه الدرجة من التفاهة، أو من الهشاشة والضعف، كما يقول حين يبحث عن عذر لهم. كان درويش على حافة أن يهجر الناس، وكان في أشد اللحظات سوداوية يحلم بقنبلة هائلة تدمّر الكون بما فيه، لينشأ وجود جديد لا ظالم فيه ولا مظلوم، وجود يخلو من كل هذه الوضاعة وكل هذه القذارات، وجود يختلف عمّا يراه حوله.. وإن كان لا يملك تصورا عنه. كان في البداية يظنّ أنّ هكذا وجودا قائم في الاتحاد السوفيتي، وأنّ موسكو حقا عاصمة العدالة والمساواة، وأنّه لا ظلم ولا استبداد هناك، وأن كرامات الجميع مصانة في تلك البلاد، التي طالما حلم بالذهاب إليها. لكن صدمته بالواقع كانت فاجعة. كان من الصعب عليه أن يصدّق أن كثيرا من الناس يتعرضون في بلد العدالة إلى كل ذلك الظلم، وفي بلد الكرامة إلى كل ذلك الإذلال. حين تعرّف بمارينا، صديقته الوحيدة هناك، لم يستطع أن يفهم لماذا لا تنتقل

للعيش في مكان قريب من مكان عملها، لماذا عليها أن تسافر إلى عملها ساعتين في كل اتجاه. لماذا لا يستطيع أن يأتي لرؤيتها، لماذا تشعر بكل ذلك الخوف إذا ما سأل أحد عنها. بعد ذلك فقط عرف ماذا يعني نظام الإقامة، وماذا تعني زيارات التفتيش الليلية، وماذا يعني أن يسأل القسم الأول في المعمل أو المعهد عن الإنسان، وماذا يعني أن يتقن المرء قاعدة الصمت، والسكوت عن كل شيء، كل شيء على الإطلاق، بما في ذلك نقص أهم الحاجات أو انعدامها. كانت عينا مارينا مسكونتين برعب قديم. فجدُّها عدو الشعب وأمّها ابنة عدو الشعب، ومن المستحيل إقناعها بأن تلتقي بدرويش إلا في أماكن عامّة مزدحمة، بعد أن تبدّل عدة وسائط نقل لتضلل متعقباً ما تفترض وجوده دائما. تمكّن درويش من تقبيل مارينا قُبلةً خفيفة عابرة مرتين، واحدة في حافلة مزدحمة وثانية على سلّم محطة قطار الأنفاق. أمّا زملاؤه فكانت الفتيات تأتين إليهم وقت يشأن وكانوا يذهبون إليهن وقت يشاؤون. أولئك لم يكنّ بنات أو حفيدات عدو ما للشعب أُعدِمَ أو مات بعد طول اعتقال في معسكرات العمل الإجباري. آخر مرّة رأى درويش فيها مارينا كانت حين التقاها في محل بيع الألبسة المستعملة. لم تذهب إلى هناك لشراء شيء إنما لبيع معطفها الأحمر. كانت تلك المرّة الثالثة التي تذهب فيها للسؤال عما إذا كان أحد ما قد اشترى معطفها الأحمر. لكن أحدا لم يكن قد اشتراه.

– أجل، فكّر درويش، سأصنع ديكورا للأخ الكبير، سيكون ديكورا بسيطا جدا، وسيكون ساحقا، كما أشعرني بالانسحاق مبنى جامعة موسكو الحكومية حين رأيته أوّل مرّة.. بعد ذلك قالت لي مارينا: المباني الحكومية التي بنيت في عهد ستالين كلها كذلك، صممت خصيصا ليشعر الإنسان بصغره وتفاهته وضعفه أمامها.. يجب أن يكون كرسي الأخ الكبير في المسرحية شاهقا وجسيما، يجب أن يبدو أكبر الممثلين ضئيلا أمامه.. هذه يجب أن تكون فكرة الديكور الأساسية. طلب درويش من عزّام الخشب والمواد الأخرى اللازمة لصناعة الكرسي، بعد أن أطلعه على فكرته. هلل عزّام للفكرة وما هي إلا بضعة أيام حتى جاءه إلى بيته في حي السجن بالمواد اللازمة. قال له:

– هنا ستعمل بحرّية. ففي المركز لن تستطيع أن تشتغل إلا في أوقات محدودة، فهناك احتفالات دائمة، للحزب وللشبيبة وللمنظمات الشعبية، ولن يتحملوا ضجتك.

فرح درويش لإمكانية العمل في البيت. فهنا توجد فسحة دار، وبإمكانه أن يتأمل بناء الكرسي كل يوم، ويضيف إليه أو يحذف منه. شعر درويش بأنّها فرصته ليجعل الكرسي يتكلم. بدأ درويش يفكّر في العلاقة بين الكرسي والأخ الكبير. هل يشعر الأخ الكبير بالانسحاق أمام الكرسي يا ترى، أم هو يخاف منه، أم يعشقه ويلاطفه حين يخلو إليه؟ كيف يكون شعوره حين يضطر للابتعاد عنه، للخروج إلى الحمّام، إلى النوم، إلى السفر؟ هل يترك الكرسي حرّا في مثل هذه الأوقات، أم يقفل عليه خلف سبعة أبواب؟ ألم يخطر ببال الأخ الكبير أن يجعل من الكرسي نفسه سريرا يقضي عليه الليل إضافة إلى النهار، وحمّاماً يغتسل ويقضي حاجاته الأخرى فيه؟ ألم يخطر بباله أن يقيّد نفسه إلى الكرسي حتى لا يستسلم لحاجته إلى الحركة وينهض عنه؟ ألم يفكّر بوضعه على عجلات حتى يتحرك معه إلى حيث يذهب؟.. كانت هذه التساؤلات أساسا لتصميم درويش لكرسي الأخ الكبير. ما كاد ينقضي الأسبوع الثاني على وصول المواد إليه حتى بات الكرسي جاهزا بين يدي درويش. صنع درويش كرسيا يحتاج اعتلاؤه إلى سُلّمٍ من عدّة درجات أو إلى قفزة كبيرة ماهرة من تلك التي يجيدها الانقلابيون، وثبّت هذا الكرسي على عجلات تتحرك في كل الاتجاهات، وجعل له على ذراعيه جناحين إذا طبق واحدهما فوق الآخر تحوّل الكرسي إلى قفص، كما جعل له على مسنده حزاما كحزام الأمان إذا شُد قيّد الساعدين بقوة إلى الصدر، ومن أجل عيني الأخ الكبير، الذي لا تقوى رجلاه على القفز، فهو بغيرهما قفز

أوّل مرّة إلى الكرسي العظيم، من أجل عينيه صنع دَرَجا يوضع ويسحب عند اللزوم، وغطّى ذلك كلّه بقماش بدا معه الكرسي كمقعد عرش وثير. ستقولون غطاه بقماش أحمر، طبعا. أقول لكم: لا، يا أصدقائي. فقد جعل درويش القماش أبيض. الأبيض لون الموت، لون رداء المشنوقين، لون الاستسلام، الأبيض لون يمكن أن تجعله أحمر إذا شئت، أو تجعله أزرق أو باللون الذي تريد. فلا شخصية للأبيض على الرغم من أنّه يتضمن كل الألوان، أو ربما بسبب من ذلك. هو كل شيء وهو لا شيء، وما عليك إلا أن تسلّط عليه بقعة ضوء لتُكسبه الشخصية التي تريد. بقطعة مزدوجة الطبقات من خام سميك خاطه على شكل كيس غطّاه، جاعلا في محيط فتحته مطاطا حتى يطبق جيدا على أرجل الكرسي. فكّر درويش: يمكن قلب الكيس، إذا أراد المخرج، وحبس الأخ الكبير فيه. وعندئذ يمكن أن نكتب، إذا أراد المخرج، على شرنقة الأخ الكبير ما نكتبه على الجدران عادة. بات الكرسي جاهزا الآن. أدخله درويش إلى غرفته، فاضطر أثناء ذلك إلى قلبه على ظهره وسحبه على عجلتيه الخلفيتين، لأنه كان أعلى من فتحة الباب. وما أن نصبه درويش في الغرفة لصْقَ الجدار، حتى خطرت بباله فكرة، صفّق لها فرحا، متأكّدا من أنّها ستعجب عزّام. فلا يعقل أن يرفض مخرج حاذق مثله فكرة تتيح له التحكم باللعب كيفما يشاء: سأُعلّق أنشوطةً على مسافة متر ونصف من موضع قدمي الأخ الكبير. فوق ذلك المكان الذي يركع فيه مواطنوه، الذين ينعم عليهم بزيارة إلى القصر.. سأقترح ذلك على عزّام. سيأتون ويركعون وحين يقفون سيشعرون بالأنشوطة فوق رؤوسهم. لا بد أن يسلّط عليها مهندس الإضاءة الضوء من زاوية خاصّة، حتى يرتسم ظلّها أمام قدمي الزائر. فلا يعقل أن يتجرأ أيٌّ من رعايا الأخ الكبير زائري القصر على رفع عينيه. وبين الحين والآخر، إذا وافق المخرج، سيُشنق أحد ما. هنا على بعد خطوتين من كرسي العرش، وسيلوى رأسه على مستوى رأس الأخ الكبير. وهنا، هنا اللحظة المهمة، التي لا بد أن يصفّق لها المخرج طرباً. فحين يقرر المخرج سيكون بالإمكان دفع كرسي العرش إلى الأمام ليصبح رأس الأخ الكبير بمتناول الأنشوطة. ممتاز! ممتاز! راح درويش يقفز فرحا، مبتهجا لوجود حبل ثخين على السقيفة: سأجرّب كل شيء هنا، وبعد ذلك ستكون اللعبة حقيقية هناك.

أجل، كل شيء بات جاهزا. لكن شيئا لن يُنقل من هنا إلى أي مكان. لا كرسي الأخ الكبير ولا حبل المشنقة. ففي ظهر اليوم التالي كان درويش يقتعد الكرسي الأبيض الشاهق متأملا الأنشوطة التي تتأرجح على مسافة قريبة من عينيه، حين دُقَّ الباب. جاء عزّام ليخبر درويش بأنهم طلبوا منه التوقف عن البروفات وإخراج مسرحية أخرى تناسب احتفالات آذار. وهل لديك مسرحية من هذا النوع؟ سأله درويش. لكن عزّام لم يجب. هو فقط أغلق الباب وخرج تهزّه موجة ضحك هستيري.

عزيز بالباب! جئت في وقتك يا عزيز!

– ادخل. وأدار درويش ظهره له في البداية، لكن سرعان ما التفت إليه وتفرّس في عينيه.

استوقفت عزيز التغيرات التي طرأت على الغرفة:

– كأنك لم ترسم من مدة طويلة! ما هذا؟! ضحك عزيز حين رأى الكرسي الشاهق ورأى حبل مشنقة يتدلى أمامه. هل تفكّر بالانتحار؟ لا، لا، إياك أن تفعل! الحياة غالية جدا، اطرد مثل هذه الأفكار الفظيعة من رأسك.. لم يخطر ببال عزيز ما ينتظره هنا.

كان درويش قد نزع اللوحات عن الجدار الطويل المقابل لكرسي الأخ الكبير، وعلّق بدلا منها خارطة كبيرة، كتلك التي تُرى في مكاتب السياسيين الكبار، لكنها خارطة طَمس عليها أسماء المدن والمعالم والتضاريس، وعلق بدلا منها الكثير من الصور، بعضها صغير، وبعضها أكبر قليلا، كما علّق على هوامش الخارطة قوائم طويلة بأسماء المقتولين والمفقودين، والعائدين من عوالم تحت أرضية، وصورا، صورا، صورا معظمها مقصوص من جرائد،... إضافة إلى الصور، علّق درويش في أماكن مختلفة زجاجات صغيرة حبست فيها تابعات، زجاجات مربوطة بخيطان قنّب إلى مسامير...كان هؤلاء جميعا جمهور مسرحه الصغير! والأمر الحسن وجود كاسر هنا في أكثر من مكان، فسيكون بإمكانه أن يستمتع برؤية الفصل الأخير من مسرحية عزيز. إضافة إلى المشاهدين كان هناك بساط عتيق مصنوع من بقايا خرق، عُلّق قرب الباب.

– تفضّل، تفضّل، اقعد!

نظر عزيز إلى مقعد الكرسي المرتفع، ضاحكا ضحكة ساخرة، قائلا:

– هذا الكرسي بارتفاع الجمل، كيف يمكن الصعود إليه!؟
– غير معقول! واحد مثلك يسأل، قفزة واحدة قوية وتكون هناك! أم أنّك تريد أن ينخّ الكرسي كما ينخ الجمل.. هيا، هيا يا صاحبي اقفز، وبعد ذلك سأحكي لك قصة هذا الكرسي.

حاول عزيز القفز معتمدا على ساعديه، لكنّه بدا أضعف من أن يرتفع كثيرا عن الأرض.

– هلّا ساعدتني! نظر إلى درويش ساخرا.
– بالتأكيد! سأساعدك، امسك أنت بالكرسي وأنا سأرفعك.. لا تستطيع أن تصعد من دوني، لا تستطيع. صحيح!

دفع درويش بعزيز ممسكا برجليه لاعتلاء الكرسي وما أن شغل الأخير المكان الصحيح، مرخيا ذراعيه على فخذيه، تاركاً رؤوس أصابعه تتلمس ركبتيه، ناصبا ظهره على المسند العمودي، حتى أطبق جناحا الكرسي عليه، وتعشّقت أسنان القفل الذكي الذي أعدّه درويش خصيصا للأخ الكبير، والتف الحزام ضاغطا على صدره.

– أنت الآن ملك حقيقي. استرخ فقط، وسينتهي كل شيء بسهولة.. أجل بسهولة. استمتع برؤية المكان من عل وأخبرني ماذا ترى. سأفكّ قيودك عندما تنتهي المسرحية. لا تخف، سأفعل ذلك. فلا يمكن أن تبقى على الكرسي..
– هل جننت! اتركني، بلا مزاح سخيف! عن أية مسرحية تتحدث؟
– لا تتوتر أرجوك. إذا توترت أنت توترت أنا، فتنتهي المسرحية فورا. انظر أمامك ماذا ترى. ألا ترى هذه الأنشوطة. هذه لها دور في المسرحية أيها الأخ الكبير.. أجل أنت ستلعب دور الأخ الكبير.. أمّا الأخ الكبير فلا يحب أن يظهر ضعفه.. تلفّت حولك، قل لي كيف تراني، كيف ترى الجدران، كيف ترى الأشياء، كيف ترى لوحاتي.
– عن أية لوحات تتحدث؟! أنت مجنون، لا أرى سوى وجهك المجنون وصور هؤلاء المجانين من حولك! اتركني وإلاّ فإنّك ستندم.

– أنا مجنون! ربما! على أيّة حال، دوري غير موجود في الرواية، ولكنني أريد أن أضيفه إلى المسرحية. ربما يعيد الروائي، في المرّة القادمة، النظر في روايته ويضيف شخصيتي إليها. أمّا هذه فليست صور مجانين، إنّها صور أموات.. الأموات لا يمكن أن يكونوا مجانين. هم ليسوا أحياء حتى يضطروا إلى الجنون. لا أحياء في هذا القبر، مثلما سمّيته أنت، لا أحياء بعد اليوم.. ستفهم قصدي، عمّا قريب. اعطني صورتك لأعلّقها في مكان ما على الحائط.. واعطني صورهم.. أنت تعرف من أقصد. المسرحية بحاجة إلى جمهور. فلا تقوم مسرحية دون جمهور. الممثلون موجودون، والديكور جاهز. الموسيقى والإضاءة تولّت أمرهما السماء. فالسماء تعزف بالصواعق والرعود موسيقى تصويرية ممتازة للفصل الأخير من مسرحيتنا العظيمة.. والآن قل لي أيها الأخ الكبير ما الاسم الذي سنطلقه على المسرحية؟ ما رأيك مثلا بـ (الأخ الصغير يقفز على كرسي الأخ الكبير)؟ ويموت! أمّا من سيموت فلن أقول لك الآن! ستعرف بنفسك.. هناك موسيقى ممتازة لهذا العنوان، فالصواعق تساعد على القفز، والبرق يؤمّن إضاءة ممتازة لرؤية الكرسي. يجب أن يعرف الإنسان إلى أين يقفز وإلا فإنه يسقط ويدق عنقه.. السماء، كما ترى، تريدنا أن نلعب الفصل الأخير من مسرحيتنا اليوم. أجل مسرحيتنا، فهي ليست مسرحيتي وحدي.. مسرحيتكم ومسرحيتي أنا. سنلعبها اليوم، أجل اليوم، يجب أن لا نؤجل شيئا إلى الغد، فقد لا يكون هناك غد إذا أُجِّل ما يجب فعله اليوم. أنت لا تعرف عمّا أنا أتحدّث طبعا. ولكنّك، ستعرف كل شيء في حينه. فلا يعقل أن لا تعرف! فأنت بطل المسرحية اليوم. هل قرأت 1984؟

– فكني قبل أن ألعن أباك أنت وأورويل! صرخ عزيز.

– ممتاز! إذن، أنت قرأت أورويل، ممتاز!

– ما هو الممتاز؟ تقصد جورج أورويل! أنت فعلا فقدت عقلك! فكّني قبل أن أصرخ وأجمع سكان الحارة كلهم.

– أنت لست مغفلا حتى تصرخ، فإن صرخت ألصقت فمك بشريط لاصق حالا وسريعا. ثم لا يجوز أن تصرخ، فأنت ستلعب دور الأخ الكبير! والأخ الكبير لا يصرخ. هو فقط يشير بإصبعه الصغير، بالخنصر فقط، حركة بسيطة وتحدث أشياء عظيمة، أمّا أنت فكالأبله تريد أن تصرخ. لا يا صاحبي، لا.

– إذا كنت تريد أن ألعب معك لعبتك المسرحية أنزلني عن الكرسي.

– هذا غير معقول أيضا! لا يكون الملك ملكا بلا عرش، وهل يكون الأخ كبيرا بلا كرسي كبير!؟ أنا آسف، لا أستطيع. الكرسي من مستلزمات الدور. ستبقى عليه حتى تنتهي المسرحية. ومن مصلحتك أن تبقى هادئا.

– يا إلهي! متى جننت؟ طوال عمرك كنت عاقلا؟ عن أية مسرحية تتحدث؟

– مسرحية بسيطة، لن يحتاج دورك إلى حوارات طويلة. ولذلك إذا ما ألصقت لك فمك فلن تتأثر كثيرا. فالمهم في هذه المسرحية النهاية. أنت تعلم أنّ الأخ الكبير لا يحاور أحدا. وهو في الرواية لا صوت له إنما صوره تنتشر في كل مكان. أمّا أنا فمع ذلك سأحاورك، وإلا فإن المشهد الأخير في المسرحية سيكون باهتا. لن يمتع مشاهدينا الأعزاء. تخيّل رغم أن صور الأخ الكبير في كل مكان فلا صورة من صوره لدي...لا بد أن الأخ الكبير يعلّق صورته في غرفة نومه، فكيف لا يعلّقها في مكتبه! كم مؤسف أن صورتك ليست معك، ولا صورهم معك. أنا أتحدّث عن أصحابك، عن ملوك الأقبية.. أنت تفهم طبعا. ليت صورهم معك وصورتك أنت أيضا أيها الأخ الكبير الصغير! كان يمكن لصورتك أن تتفرج عليك وأنت على الكرسي، ثم وأنت على الكرسي... أنت لا تعرف شيئا عن الدور الذي ستقوم به. إنّه حقيقي جدا. كل شيء سيكون حقيقيا مائة بالمائة. ستشعر بكل شيء. لكن، سيكون من الصعب أن تخبرني عن إحساسك. لن تستطيع، مستحيل. أنا آسف. أنا على أية حال أستطيع أن أخمّن الإحساس الذي ستعانيه. سيكون رائعا، بالنسبة لي

طبعا، وبالنسبة لأصدقائي المشاهدين. هل خطر ببالك، في يوم من الأيام، أنّ صورتك يمكن أن تتفرج عليك، يمكن أن تتأملك، أن تسخر منك أو تصفّق لك أو تبصق في سحنتك؟ أنا يخطر ببالي ذلك على الدوام ولذلك أتفحّص صورتي وأتفحّص نفسي. أمّا أنت فلا تفعل أيها الأخ الكبير! أنا أطلق عليك اسم الأخ الكبير، كما ترى، فالفصل الأخير من المسرحية قد بدأ. أنا أعرف أنّك تفكر الآن بحماقتي، إذ كيف أسمح لنفسي في حضرة واحد مثلك أن أسخر من الأخ الكبير ولكنني أفعل كما ترى. لأنه لن تكون لديك فرصة هذه المرّة لتنتقم مني. جاء دوري يا صاحبي، والحكمة تقتضي أن تتقبل ذلك برضى.

ظنّ عزيز أنّ درويش جُنّ بالفعل، وأنّه سيكون عليه الانتظار حتى تحلّ موجة أخرى محل هذه الموجة العدوانية فيطلق سراحه.

– لماذا لا تسأل جمهورك، فربما هو يريدني أن أنزل عن الكرسي. اسألهم! قال عزيز متوسلا حيلة للهروب.

– منذ متى يسأل الأخ الكبير جمهورَه بشأن الكرسي. لا يا صاحبي هؤلاء جمهور مسرحي أنا، وهم يعرفون من يكون الأخ الكبير وكيف يكون.. هؤلاء أنا. هم لا يملّون، بل يتفرجون كل يوم على مسرحية.. هذه ليست المسرحية الأولى التي ألعبها من أجلهم. أنا ألعب لهم كل يوم مسرحية. أبطالها أنا وواحد من أولئك الذين كانوا يقهرونهم. أنتم الذين كانوا! كما ترى اللغة هنا تضطر إلى الانكسار، معكم لا بد أن تتكسر اللغة. المسرحية ممتعة جدّا. لكنها المرّة الأولى التي يحضر فيها جلالة الأخ الكبير.. صحيح أنّهم لا يقولون جلالة ولكن دعنا من الشكليات! طبعا أنا أنتصر في نهاية جميع المسرحيات، في المسرحيات فقط أنتصر، ويموت الشخص الآخر.. أعني الممثل، أمّا اليوم فاللعبة حقيقية! لا تخف.. جمهوري قليل كما ترى.. ولكنّه جمهور ممتاز. هم قلّة ولكنهم يمثّلون الجميع، فهنا، كما ترى إبراهيم، أو، عفوا، الشهيد إبراهيم وهنا أخوه طافش، وهنا صافي وابنه غسّان.. وصورتك أنت أيضا لو تمعّنت جيدا ستراها، على الرغم من أنّها ليست بين الصور، ادمج أصحابك في صورة واحدة ستكون صورتك أنت. وأما الممثل الثاني الذي أنتصرُ عليه فواحد أيضا ولكنه يمثل الجميع، كما تمثّلهم أنت، لكنّ اللعبة حقيقية اليوم، حقيقيةٌ بمقدار ما هو حقيقي اللحم والدم وانعدام الأكسيجين، ستفهم ما أعنيه.. سنلعب لعبة ممتعة للغاية، ممتعة! ركّزْ معي. ترى صور أحبتي وأقربائي وأصدقائي ممّن تظنّهم أمواتا! لا، هم ليسوا أمواتا وستتأكد من ذلك بنفسك عندما ستراهم.. هم عادة يخرجون من الصور أثناء الفرجة على لعبتنا، أعني سيخرجون أيضا عندما سنلعب لعبتنا!– عزيز ينظر نحو درويش نظرته إلى مجنون– خذ ورقة وقلما وسجّل أسماء جماعتي: جدي الشيخ خليل أنت تعرفه، والمعلّم جاد تعرفه، وخالي رستم تعرفه، وعمّي رسلان تعرفه، وغريب، وكاسر.. كاسر تعرفه أكثر من الجميع!! ستحكي لي أثناء المسرحية أين اختفى كاسر. في مسرحيتي لا يستطيع أحد الصمت. أنت أيضا لن تصمت. قل لي: هل يسمح لهم الأخ الكبير بمراجعة إضبارتي وإضبارة كاسر؟ على الأقل أوراقك أنت، لأنك أنت وهو الآن شخص واحد! لا تتعب نفسك بالصمت.. ستكون هذه آخر لعبة نلعبها. لذلك ستحكي لي عن كل شيء، مرّة كأخ صغير ومرّة أخرى كأخ كبير، وبعد ذلك سترحل. أجل سترحل، فلن تبقى هنا.. لن أجعلك تنتظر طويلا، فقد انتظرت أمام الباب. أنا آسف لأنني لم أتمكّن من فتح الباب مباشرة. لا تؤاخذني سأعوض عليك الوقت الذي فاتك، سنبدأ سريعا. سأخلع كنزتي. أنا لم أعد أشعر بالبرد، أمّا أنت فبإمكانك الاحتفاظ بملابسك لأنها لن تعوقنا.

وفيما راح درويش يخلع كنزته، علت قهقهة عزيز، وراحت تتصاعد أكثر فأكثر. رمى درويش الكنزة جانبا وبدأ الضحك والرقص ثم راح يدغدغ عزيز من أسفل ذقنه، مغنيا بصوت مرتفع كلمات يعبّر فيها عن حبّه الشديد لعزيز، للأخ الكبير، الحب الذي اكتشفه في هذه اللحظة، يغني بطريقة كنسية أدخلت عزيزا في موجة ضحك جديدة، إلى أن قُلبَ الكيسُ وارتفعت حوافه بحركة خفيفة من يديّ درويش، وشُدَّ الخيطُ المخصص لتضييق الفتحة حول عنق عزيز. عندئذ تحوّلت القهقهات إلى رعب! ضغط درويش على كتفيه.

– لا تخف يا سيدي لا تخف! أنا فقط أختبر الكيس، لم أختبره من قبل. سأفكه بعد قليل فلا يمكن أن يكون سيدي في كيس. أنا آسف! فاجأتك بالكيس، لكنني أعدك بأنني لن أفاجئك بعد الآن، إلا بشيء واحد.

– درويش! كبّر عقلك وانه هذه المهزلة. أنا لا وقت لدي حتى ألعب. فكرت بزيارتك لربع ساعة، وإذا بك تفاجئني بمسرحية! أي مسرحية يا رجل، فكّني، الله يخليك، وخلصني من مزاحك الثقيل.

– لا أستطيع. لماذا لا تصدقني! قلت لك إنني لا أستطيع. لا يجوز أن يتوقف زمن اللعب. لماذا تريده أن يتوقف في دوري أنا؟ لماذا لم توقفه في دورك أنت أيها الأخ الكبير. لا يا سيدي، فأنا أريد أن ألعب حتى النهاية. أنت تريد أن تخرج من اللعبة لأنك في القفص الآن! لا يا سيدي، أنا آسف.. سنلعب حتى النهاية.

– لا، أنت لست مجنونا. أنت فقط تدّعي الجنون. ولكن إياك أن تكمل لعبتك.. أنت تريد قتلي!! يا ناس، يا عالَم..

ما أن حاول عزيز الصراخ حتى كمّت يد درويش فمه.

– أنت غبي، إذا حاولت الصراخ ثانية، سألصق فمك. الأفضل لك أن تبقى هادئا فلن يسمعك أحد في هذا الجو العاصف.

– ولكنهم يعرفون بأنني جئت إلى هنا، أنت لا تستطيع أن تؤذيني، أنت لا تتجرأ على ذلك، يقطعون رأسك لو أصابني سوء.

– لا تتعب نفسك بما سيكون! خلنا بما نحن فيه الآن. سأتركك ضمن الكيس، فهذا أفضل لك يا سيدي، يا سعادة الأخ الكبير، أو اختر لنفسك شيئا آخر غير السعادة، العظمة، مثلا، الجلالة، الفخامة، الغبطة.. الكيس أفضل. أفضل أن يكون الإنسان مقيّدا في هكذا لحظات، مع أنني كنت أتمنى لو أستطيع محاورتك وأنت حر. للأسف، لا أستطيع فأنا لا أأمن جانبك. أنت غدّار. ستغافلني وتنقض عليّ. الأفضل أن تبقى مقيّدا.. أتعلم، دائما كنتُ أطلب أثناء التحقيق أن يقيّدوا يديّ، أن يبقوهما مربوطتين. فإذا ما صفعني المحقق لا أشعر بالإهانة، لأنني لا أستطيع أن أصفعه. أنا لا أريدك أن تشعر بالإهانة، لأنّك سيدي، ولا أريد أن يكون سيدي ذليلا.

– سيأتي عبد إلى هنا. أنا اتفقت معه على أن يأتي إلى هنا بعد ربع ساعة، أعرّفه بك، ونذهب سوية.. لا تورّط نفسك. فكّني، أفضل، قبل أن يصل عبد وتنفضح.

ابتسم درويش:

– إذن، يجب أن تنتهي اللعبة قبل ربع ساعة. أنت الذي تستعجلني. هل سيأتي صاحبك عبد فعلا!؟ لنختصر اللعبة إذا كان سيأتي، ونلعب اللوحة الأخيرة منها مباشرة. انظر إلى الأنشوطة.. إنها اللوحة الأخيرة. أنا أصلا لا يعنيني أن أستمع إليك. هل يعنيكم يا أصدقائي– توجه درويش إلى الصور– لا أحد يعنيه، فأنت لن تقول شيئا مهمّاً، أنت أصلا لا تعرف إلا الأشياء التافهة.. صحيح أنّك كبير ولكن الأشياء التي تشغلك هي: من يسهر مع من، ومن يصادق من، وعمّا يتحدث فلان وفلانة، وبماذا يفكر هذا وذاك.. لن أحدّثك بعد الآن.

– أنت مجنون! أنت تريد قتلي!..

– كيف أقتلك، وأنت صديقي الحميم؟ ألم توص بي صديقك عادل شرف! أوصيته وهو لم ينس طبعا. عادل شرف صديقك الحميم يا سيد عزيز زللو، هو الذي قال لي إنك تراسله، وقال أشياء أخرى كثيرة عن علاقتكما الحميمة وقذاراتكما المشتركة، آسف أعني مشاريعكما المشتركة، كما كان يسميّها.. أخبرني بذلك كله قبل أن يسلّمني إلى أمن السفارة ويرحلوني إلى أصدقائك هنا.. لو لم يقل لي ذلك لما كنت حذرت منه ولربما أعادوني من الشهر الأول. لكن ذكر اسمك وحده كان كافيا لجعلي أغربل جميع كلماتي قبل أن أقولها، أمّا اليوم فأنا أقول كل ما أريد، لم أعد أغربل شيئا، ولا أريد.. لا تفرح! فأنا لست آسفا على عودتي من الاتحاد السوفيتي، فهناك، هناك مملكة أمثالكم.. كم مؤسف أنّ عادل شرف ليس هنا الآن. لكنت احتفلت بكما معا.. يجب أن أبحث عنه من كل بد بعد أن أنتهي منك. فمن يدري، ربما هو الذي أخفى كاسر هناك. كاسر سافر منذ ثلاث سنوات ولم يعد، وأخباره انقطعت. وأنت نفسك علمت بسفره بعد فترة قصيرة. لا بد أنّك تعرف شيئا عن اختفائه.. ستقول لي كل ما لديك، حتى دون أن أطالبك.. سنتان وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما أمضيتها لدى أصدقائك كانت كافية لأن تعلّمني كيف أستنطق الحجارة، وأنت ذكي تستطيع أن توفّر على نفسك الكثير. تذكّر جيدا ما تعرفه عن اعتقال كاسر وغريب.. تذكّر، فأنا لست مستعجلا على الإطلاق.

– أنت تريد قتلي! أنت حاقد موتور، مجنون! يا ناس.

– قلت لك لا تصرخ أيها الأحمق! أنت تجبرني على لصق فمك الجميل. بالمناسبة شفتاك جميلتان. تزرقّ الشفتان عند الشنق! أنت تعرف طبعا. الآن سألصق فمك على الرغم من أنني لم ألصق فم أية دمية في مسرحياتي قبل الآن. مسرحي يا سيدي مسرح دمى. وأنت أول شخصية حقيقية فيه، شخصية حقيقية ودمية في الوقت نفسه.. ممتاز، فرصة رائعة.. ولأنك شخصية حقيقية وتصرّ على الصراخ سألصق فمك. لن يتغير شيء في المسرحية. هل شاهدت من قبل مسرحية إيمائية؟

– لا تلصقه، أرجوك! أنا نَفَسي ضيّق أرجوك، لن أصرخ.

– حسنا، حسنا اتفقنا. قل لي الآن هل سيأتي فعلا هذا الذي تسمّيه عبد؟ إذا كذبت عليَّ ولم يأت خلال ربع ساعة فلن أُنعم عليك حتى بالشنق. أمّا إذا أتى فسأُضطر إلى تعليقه أمام عينيك. هل سيأتي حقاً؟

– لا أعرف، أنت لن تقتلني، عدني بذلك!

– اللعبة هي التي تعدك أو لا تعدك، وليس أنا. أنا عندما أدخل اللعبة لا أعود أنا. راجع قواعد اللعبة وستعرف بنفسك إن كان ذلك ممكنا. المهم أن دوري قد جاء أخيرا.. سألعب دوري لا تقاطعني، سألعبه حتى النهاية! سنصمت الآن ربع ساعة. لقد تعبت. أجل أنا أتعب، أتعب كثيرا من القلق والانتظار والخوف والحيرة والبحث عن اللقمة والشعور بالعبث وأشياء كثيرة، أتعبُ كثيرا وأعرف أنّ هذا لا يعنيك في شيء أيها الأخ الكبير. أنا متعب الآن. لا تقل شيئا. نَمْ! إذا كنت تريد أن تنام.

جلس درويش على فراشٍ من إسفنج مطويّ في الزاوية، ثم استلقى مستندا إلى مرفقه، وأغمض عينيه. وشيئا فشيئا راحت رجلاه تتحولان من وضعية الانطواء إلى وضعية الانبساط.

– زارني كاسر وغريب أمس في المنام، وقالا لي إنهما قد لا يتمكّنان من رؤيتي ثانية...شعرت بضيق شديد! يجب أن ينتهي هذا الضيق اليوم. شعرت بالخوف والقلق والانتظار والعجز. يجب أن ينتهي ذلك كلّه الآن..

– وقد أتيتَ أنت، أتيت! أتيتَ مرّة قبل الآن ولم أفعل شيئا فندمتُ.. أمّا هذه المرّة فلا بد من أن يكون الأمر مختلفا. فالدخان الذي في صدري يبحث عن مخرج، وإن خرج اليوم سترى ما سيكون اليوم.. أشعر، أحيانا، بأن كاسر ربما يكون قد مات تحت الضرب، فهو لا يحتمل الشعور بالعجز وقد لا يحتمل التعذيب. إياك أن تشمت. أو اشمت إذا شئت فأنا لم يعد يعنيني ما تشعرون به.. أو ربما يكون كاسر ما زال حيّا في قبو فرع التحقيق، يسألونه عن الأشياء التي كتبتها أنت كما سألوني من قبل، أمّا غريب فأقدر على المقاومة.. لا تقاطعني! قال درويش بحزم، ثم صمت رافعاً رأسه كأنما يبحث في السقف عن شيء ما، قبل أن ينظر إلى الصورة المجاورة.. أنا ذلك الصغير المبتسم، أنا، تخيّل، يا سيّدي، كم كنت أبله حين كنت صغيرا، كنت أبتسم، لا بد أنني كنت أعمى، لم أكن أرى شيئا مما كان في الأفق، ولا أبي كان يرى، لم تكن به حاجة إلى ذلك. انظر إلى الصورة: أبي وأمي وأنا نجلس قرب كومة حجارة. لماذا قرب كومة الحجارة!؟ لا أعرف. تخيّل هذا هو أبي قبل موته بدقائق، هل يبدو عليه أنه كان ينتظر الموت؟! لا تفكر كثيرا، لستم أنتم من قتله، وربما أنتم، لست أدري.. أبي، طبعا، لم ير هذه الصورة، فقد أخرجت أفعى رأسها من بين الحجارة ولدغته في مؤخرته، فمات، مات سريعا. هذا ما قالته أمي لجدي الشيخ، باحثة عن سر جلوسه في هذا المكان بالذات. هي لم تفهم لماذا اختار هذا المكان، وكانت تريد أن تؤمن بأن هذه الحادثة مدونة في صحيفته منذ لحظة ولادته، وما كان يستطيع فعل أي شيء لتجنب لدغة الأفعى التي إنما جاءت لتنفيذ مدونة إلهية، وأنتم أي مدوّنة تنفّذون! مدوّنة أي ثعبان تنفذون أنتم؟ أنت طبعا لا تعرف. لا تقل شيئا! أنا لا أسألك!.. لكن أمي عتبت على جدي كثيرا لأن صلواته لم تُجْد نفعا في حماية زوجها من لدغ الأفاعي.. كانت في داخلها تعتقد أنّه طالما هناك شيء مكتوب فيمكن إذن أن يمحى بعض منه ويكتب غيره، وإلا فما نفع الصلوات. أمْ برأيك لا يمكنك مسحه؟! جماعتك لا تستخدم الممحاة! عجيب. من يومها تزعزعت ثقة أمي بصلوات جدي التي كان يطلب فيها الصحة والحياة المديدة للجميع. أمّا أنا، فيخيل إلي أحيانا أن حظ أبي كان طيبا.. فالآباء، الآباء مساكين، يظنون أن عليهم أن يعيشوا من أجل أبنائهم ويقبلوا الذل من أجل ذلك. يخضعون من أجل ذلك ويسرقون ويقتلون ويفقدون شخصيتهم من أجل ذلك. هذا خطأ شنيع، هذا فهم فظيع. فلا أحد يعيش عن أحد، ولا أحد يعيش من أجل أحد، ولا أحد يعيش أصلا، وأنت نفسك ستتأكد من ذلك، أجل قريبا ستتأكد منه.. فنحن نمشي ونأكل وننام و.. ولكن لست أدري إن كانت هذه هي الحياة التي كان ينتظرها آباؤنا حين فكّروا بإنجابنا. أبي مات مبكرا، ومع ذلك عاشت أمي وعشت أنا، رغم أن شيئا لا يدفع إلى الحياة إلا معاندة الموت.. أتعلم، يا سيدي! أفكر أحيانا بأن كثيرين يعيشون لأنكم تريدون لهم الموت، وأنا نفسي أتمسك بالحياة في ساعات الضيق لأعيش رغم أنف من يلغي أسباب الحياة من حولي، يلغيها مطمئنا إلى أنني سأموت أو أصبح كائنا آخر غير بشري حتى أتمكّن من الحياة. لا تشغلوا بالكم، فأنا لا أعيش نكاية بكم أنتم.. ومع ذلك فأنا أعيش نكاية بأحد ما أكبر منك بكثير، وربما كان أصغر منك! أجل، أصغر، فمقياس الكبر والصغر لا بد أن يختلف، هنا.. أجل معاندة الموت من أهم أسباب الحياة... أبدو كمن يهذي، أليس كذلك؟ أنت تنظر إليَّ نظرتك إلى ممسوس، لكن لا، لسوء الحظ لم أفقد عقلي بعد، ويبدو أنني سأفشل في تحقيق ذلك. أتريد أن أطلعك على سر؟ انظر إلى هذا الحائط، انظر إليه جيدا ففي كل حفرة صغيرة منه وفي كل شق من شقوقه تعيش مئات الكلمات المكتوبة من زمن جدي إلى اليوم. كان بودي لو أتركك تقرأها، لكن قواعد اللعبة لا تسمح. المشكلة ليست فيّ أنا، فأنا لم أعد أهتم لشيء، ولم أعد أخشى شيئا أو أريد شيئا... هل خطر ببالك يوما أن تكون الكلمات في الجدار كقطع الخشب التي تحشر بين الصخور وتُشبَع بالماء لتقصم ظهر الصخرة، لتكسرها إلى أجزاء. أتخيّل أن الكلمات تتوالد، تتزايد، تتكاثر فيضيق بها المكان وإذا بها تهدم الجدار، وإذا بالجدار مجرد غبار وقصاصات ورق مرمية بين الركام. كنت البارحة على حافة أن أمزّق جميع ما رسمت من لوحات، ثم توقفت للحظة. قلت لنفسي: لن أفعل لأن ذلك سيفرحكم. بل قررت أن أرسم منها جميعا واحدة كبيرة.

أنت طبعا تقرأ اللوحات جيدا.. صحيح أنّك فشلت في التخرج من كلية الحقوق، ومع ذلك فأنت ذكي وموهوب. أشهد لك بذلك، وكان بإمكانك أن تكتب تقريرا فنّيا كبيرا عن جميع خطوطي. هل تلاحظون يا سيدي أن كل شيء يتحول إلى ماضٍ!؟ تخيّل ذلك! بإمكانك الآن أن تلغي جميع أفعال المضارع والمستقبل من لغتك. لم يعد لها معنى.. فبعد دقائق ستحتاج إلى أفعال الماضي فقط. أو قد لا تحتاج إليها.. قد تضطر هناك لتعلّم لغة أخرى. أعرف، أعرف، كانت لديك مشكلة دائما مع اللغة.. فكّرت مرّة، يا سيّدي، أن أغطي حائط الرسائل هذا بقطعة خيش كبيرة وألصق عليها الرسائل جميعها وأرسم فوقها ما يخطر ببالي. لا معنى لكلمات محشورة في حائط إلا كمعنى الميت. شعرت بأن لوحاتي ترمقني بنظرة احتقار. شعرت بأنها تصرخ في وجهي: ألا يخجلك أنك ترسم الجمال وكل شيء حولك قبيح. كل شيء قبيح! فليس عبثا أنهمّ راحوا يرسمون القبح. فالأشياء الجميلة تكون على قطيعة مع الزمن، طالما هي ولدت في زمن قبيح، ولا أثر له فيها. هل رأيت فم الحصان في غرنيكا؟ هكذا تصرخ الروح! ..أضحك من نفسي الآن حين أتذكر أنني كنت أتهرّب منكم. كان من الأفضل أن أتحدّث إليكم من قبل. أن أحكي لكم عن أحلامي، أن أشغلكم بها.. لكنني كنت أخاف منكم.. وكاسر كان يخاف منكم وغريب كذلك... أمّا الآن فأنا لا أخاف شيئا ولا أريد شيئا، اللعبة هي التي تريد، وسيكون ما تريده اللعبة. كنت دائما أعمل على أن لا أدخل لعبتكم، لكنني كنت أحمق، فلعبتنا واحدة. لا يمكن أن يكون أحدنا داخل اللعبة والآخر خارجها. هذا مستحيل. ستبقى معي اليوم، فأنا لا أستطيع أن أكون من دونك.. إذا كانوا هم الذين أرسلوك فأنا أشكرهم من صميم قلبي.. الشكر واللعنة سواء في هذه اللحظة. ستكتشف ذلك بنفسك. لا تؤاخذني على الانتقال إلى صيغة المفرد. الأخ الكبير مفرد وجمع، سيدي مفرد وجمع ولا شيء.

–7–

ذاكرة السلة

تبدأ الأوراق رحلة خروجها من الحائط. يعلو صوتٌ من المئذنة معلنا موت مسعود القاروط بن حمدان عن سبعة وأربعين، بصاعقة. ينظر درويش إلى السماء فيما ترتسم على وجهه ابتسامة ساخرة، ثم يخرج دميتين وصورة لنجوى. يسند دمية إلى الحائط ويُجلس أخرى قبالتها، ويسند صورة نجوى إلى مخدّة القش قبالته هو. يأمر درويشُ عزيز بالصمت المطبق، ثم يقول:

– شغِّلْ الإضاءة، بدأت المسرحية. يطفئ الضوء في وسط الغرفة ثم يوجه ضوء المصباح الكشّاف الوحيد في غرفته إلى الزاوية حيث هو والدميتان، تاركا عزيز في العتم. يتوقّف المطر في الخارج مصغيا لصوت المئذنة، يعلن الموت. ينظر عزيز إلى عيني درويش باحثا عن الجنون، مستغيثا بالجنون من العقل. ابدأ الحوار! يأمر درويش.

– لا معنى لشيء، لا قيمة لشيء، وإذا بصوت يأتيني كأنه صوتي الآخر يستنجد بي، فأُسرعُ لنجدته. هو لم يقل شيئا، فقط خطر ببالي فقررت أن لا أفعل، ولم أفعل.

– الياسمينة تكبر. سلوى كسرت خنصر قدمها اليسرى. عمي رسلان يشرب كثيرا.. سأطلي الخيش بالطين وألصق عليه القش وأسكب عليه الصمغ والكلام، لا ألوان لدي، لدي كلام وعمّا قريب سيحل الظلام.. منهما معا سأصنع شيئا.

– نزل علي إلى البئر لانتشال أخيه الصغير نصر. لم يخرج علي من البئر.

– في الفرنلق، يتدربون على إطلاق النار.

– لا أحد يعيش إلى الأبد، وإذا كان ثمة أبد فلا حاجة به إلينا. لا بد أن الأبد تجاوز عصر العبودية، أمّا نحن فما زلنا عبيدا. قد يسعده أن يتفرج على نتاج العبيد. هو الله. ولكنني أشك بأنه يقبل العيش معهم. اعلم يا عبد الله، وابن عبد الله وأمة الله أنّ..

– سقطت أم رمضان عن السطح. انكسر حوضها. أرسلوا برقية لابنها الكبير مسعود للمجيء من الجبهة: أنام، سأنام، لا تقلقوا.. النوم غير مهم. أنا منذ أسبوع لم أنم ولم أستيقظ، لم أدخل إلى البيت ولم أخرج منه.

– أستعد لرسم شيء، شيء لا أعرف كيف يكون وماذا يكون، ولكن سأرسمه من كل بد.

– بعد أسبوع سأسافر إلى موسكو. سلوى تقطف الياسمين وتبكي.

– كاسر وغريب يدرسان جيدا.. سأشتري معطفا مستعملا، وحذاء شتويا، وكنزة صوف، وأزور ناديا مع كاسر وغريب. ربما تريد شيئا من موسكو.

– وخلقنا من الماء كل شيء حي، لا تبصق في البئر يا بني. كنت فقط أتفرج على الدوائر التي ترسمها بصقتي يا جدي.

– أظنني لو تمكنت من النوم الآن فسيهطل مطر غزير في داخلي يغسلني فتصفو روحي.

– أنت أيضا يا نجوى لم ترسمي شيئا من مدة طويلة.. أم تراك تكتبين!

– لا تتفاءل. لا أكتب شيئا، فعقلي يمنعني من الرسم ومن الكتابة. كلما حاولت أن أرسم أو أكتب أرى يد أخي فادي المشلولة، أشعر بالرصاصة التي لا تزال تقطن جسده، فأمزّق الورق وأنهض.. هلا يهطل المطر داخل الإنسان فيغسله! ليت ذلك يكون ممكنا. لو نستطيع استمطار أرواحنا وغسل مخاوفنا وأحزاننا.

– ولكن قد لا يهطل المطر قبل الانفجار، فلا بد من شرارة تولّد الغيوم. هل أنتَ مستعد للموت؟

– ما معنى..!؟

– لا تتحدث عن المعنى، لا معنى لشيء.. المعنى غير مهم. المعنى يتشكل من تلقاء نفسه مما نعنيه ولا نعنيه، مما نريده ولا نريده، ومن أشياء أخرى لا علاقة لنا بها.. هراء.. وأنتَ أيضا لا معنى لك.. أحد ما يخبط على الباب. خبطة تشبه خبطات اسكندر، لكن اسكندر لا يمكن أن يأتي، فإسكندر مات في لبنان من عشرة أيام.

– أنت تعرف، يا سيد عزيز، كما ترى عُدت إليك، أنت عزيز.. لماذا قتلوه هناك، قتلوه لأنك أنت سوري .. إنها أم اسكندر تبحث عنه.

– وما علاقتي أنا به، أنا لا أعرفه؟

– وهم لا يعرفونه أيضا! لا تسأل عن شيء بعد الآن.

– حاولت كثيرا، وفشلت كثيرا في تصديق أشياء وأشياء، ثم استنتجت أن ذلك كلّه غير مهم! فقد كنت أتحرر فأنجح ثم يمسك بي عقلي فأقذف غضبي، ولا يبقى بعد ذلك كله غير اللعنة.. وكذلك فشلت في الرسم، فلم أستطع أن أجعل الحنين لونا والغضب لونا والألم لونا والسؤال لونا. حاولت أن أبصق في الفراغ، أن أبصق إلى أعلى فإذا بالبصقة ترتد إليّ. على المرء أن يبصق باتجاه محدد، وليس باتجاه السماء طبعا.

– يا إلهي كم أنت بائس... ألا تعتقد أن الحياة بحاجة إلى لعب أكثر مما هي بحاجة إلى تفكير جدّي. أنا شخصيا تعبت من جدية السخف، تعبت من جدية قذارات عزيز، أريد أن أتخفف منه ومن القضايا الكبرى، التي يبصقها في روحك وروحي متذرعاً هو وأسياده بها– نعم، نعم أيّها الأخ الكبير، نجوى قالت ذلك، ولن تتاح لك فرصة للانتقام منها..

– أريد أن أرتاح من الأسئلة والقضايا الكبرى، أريد أن أحيا كإنسان فقط، مجرد حياة، لا مكان فيها لعزيز وأمثاله.

– الحياة مزحة سخيفة: ما دامت هي كذلك فلماذا لا ننهيها؟ سأفعل ذلك، ولكن بعد تصفية حساباتي! وبعد ذلك أتعامل مع ما تبقى من الحياة بالسخرية التي تستحقها.

– ليست حالك أسوأ من حال الجميع!

– لا، يا نجوى، لكن هذا الذي يعيش داخلي قتيل، جثته تعيش داخلي منذ طردوا الوطن مني، فبتّ لاجئا. ليس اللاجئ من يطرد من وطنه فقط، بل اللاجئ من يطرد وطنه منه أيضا.. داخلي قتيل أطرده في الصحو فيعود إليّ في المنام.

– ومع ذلك، فما عليك إلاّ بالعبث. اعبث بجدية الحياة كأي لاجئ.. حياة اللاجئ بحاجة إلى سخرية من كل شيء، أكثر مما هي بحاجة إلى الجدية.

– يخيّل إليّ أن في روحي معسكرا يأوي إليه الأموات المقهورون.. لا شهداء في روحي، جميع من خيّموا في روحي يرفضون الموت، لا يعجبهم، لا يريدونه، ماتوا غصبا عنهم، لا تصدّقي ما يُكتَب على شواهد قبورهم.. أراهم وأسمعهم طوال الوقت، وأنت تدعينني إلى العبث واللهو. لا يحق لي ذلك، لا أستطيع.

– بل يحق لك وتستطيع، بل هو واجب علينا أن نلهو.

– أحسنتَ، أحسنت، اجلس هكذا، بهدوء، تنفّس بهدوء! على الأوراق أن تخرج من الجدار قبل أن يخرج شيء ما خفيف الوزن جدا، أتدري ما هو؟ قبل أن يخرج من الجسد.. أنا فقط أحاول أن أرعبك، لا تخف. أريد أن أعيش. تعبت يا أخي، لا أريد أن أفكر. تعبت من الألوان الكاذبة، تعبت من الجدران الملونة والجدران الرمادية والجدران التي بلا ألوان، تعبت من تقصّي الأخبار وإحصاء عدد القتلى ومتابعة المؤتمرات والاستماع إلى المقابلات، أليس من حقي أن أعيش دون كل هذا الموت الذي يعدني بحياة، لا أدري أي حياة هي، هذه الحياة التي قد لا تأتي أبدا!

– طبعا، من حقك.

– ومن حقكِ أنت أيضا.

– ربما، هل انتهيتَ من نبش القبور؟

– أية قبور؟

– أعني هل أخرجت جميع الرسائل؟ تسألني نجوى، ألا تسمعها يا عزيز؟!

– ليس بعد!

– انتظر قليلا.

– سأساعدك في إخراجها.

– أجل، أجل قرأتْ نجوى رسائل الجدار القاتلة ولكنها لم تخبرك، شكرا للسماء، ألا تسمع صوت العاصفة، عاد المطر يصفع الجدران. سأغمض عيني الآن، فأنا متعب.. لقد نسيتُ كيف تكون الحياة دون قلق وخوف. حاولت رسم لوحة مفتوحة على الحياة لا على الموت وفشلت. كل ما يحيط بنا موت. كيف يكون الموت مقدّسا ولا تكون الحياة كذلك.

– والتين والزيتون.. أنا أحب العنب. جدي يصنع نبيذا لذيذا. الياسمينة عرّشت على حبال الغسيل...

– أووه، خطرت ببالي فكرة عظيمة! ما رأيك بأن أمنحك فرصة رؤية نجوى الآن، سيكون الحال بوجودها أمتع، أليس كذلك! سأمنحك فرصة الاعتذار منها عن قذاراتك.. أنت تفكّر بالانتقام طبعا، وليس بالاعتذار، سأمنحك فرصة أن تجلس معها وتقول لها ما تشاء، ما رأيك؟ خذ، خذ هذه الورقة، واكتب! آسف، نسيت أنّك لا تستطيع الكتابة، فأنت سيّد في كيس.. الأخ في كيس...أنت، طبعا، لم تنس إياد الذي أعدموه بسببك! ومصطفى وعلياء.. أَتَعْلَمْ أنا أفكّر بأن يد فادي المشلولة قد تتحرّك يوما، قد ترتفع لتصفعك، أجل قد تتحقق المعجزة' فيعيد الغضب الحياة إلى ذلك الذراع.. أتريدني أن أطلب من نجوى ومن أخيها فادي.. أن يصلّيا من أجل راحة روحك القذرة؟ لا، لن أفعل، فأنا لست مسيحا ولا أريد أن أكون.

فكّر عزيز بأنّه يمكن أن يخدع درويش ويقنعه بأهمية حضور نجوى للمسرحية. سيخرُجُ درويش لإحضار نجوى أو للاتصال بها، وسيتدبر هو أمر التخلص من هذه المصيدة. وقد يتمكن من أن يبصق في وجه نجوى التي خدعته وتحالفت مع أعدائه، أجل هم أعداؤه الشخصيون، وأوّلهم هذا المجنون درويش. نعم، وجود نجوى قد ينقذه من هذه اللعبة المجنونة التي يضعه فيها درويش، والتي لا أحد يعرف إلى ماذا يمكن أن تنتهي.

– لماذا لا تدعو نجوى لتلعب معنا. ستفرح لرؤيتي على هذا الحال! هي تريد أن تنتقم مني. لماذا تبخل عليها بهذه الفرصة الرائعة!

– ممتاز! أنت عبقري، سأدعوها من كل بد.. انتظر قليلا. أحسنت، سيكون رائعا أن تشاركنا نجوى اللعب. ستلعب نجوى دور جوليا وستكون أمامها فرصة للانتقام من الأخ الكبير. رائع، أنت رائع! ولكن، لا تؤاخذني يا صديقي سيكون عليّ أن أفعل شيئا قبل الذهاب لمناداة نجوى، فلا يعقل أن أخرج وأتركك هكذا، فأنت خائف وستصرخ لأنني سأطفئ الضوء الأخير.. الأخير! هل تفهمني؟ أنت تخاف الوحدة، وتخاف العتم. ممتاز! تعمل في العتم وتخاف العتم!.. وطبعا، من أجل أن لا تخذلك حنجرتك سألصق فمك. لن يطول غيابي، لا تخف! ممتاز، ممتاز.. هناك فكرة أخرى.. فمن أجل أن لا تبقى هذه الأنشوطة مدلاة أمام عينيك، سأريحك منها، سأضعها مؤقتا حول عنقك، سأنزعها فيما بعد بالتأكيد.. ولكنني لا أنصحك بأن تحاول تحريك الكرسي، لا تقم بأية حركات خرقاء، فالكرسي على عجلات، وسيخنقك الحبل لو قمت بأية حركة خطأ، ثم أن أرضية الكرسي يمكن أن تنهار تحتك فجأة فهي معدة في المسرحية من أجل أن تتخفس بالأخ الكبير.. لا ترم بثقلك كله. كن حذرا. لن يطول غيابي! لا أريد أن أعود وأراك مشنوقا. دعني ألصق فمك الآن. لا تفتحه بهذه الطريقة الغبية، سيلتصق لسانك الرقيق.. ممتاز، ممتاز، هكذا أفضل! والآن، دعني أنزل الحلقة دون أن أخرّب تسريحتك الجميلة.. لا، لا، لا تتحرك، قلت لك إن الكرسي يمكن أن يكرج بسهولة. ممتاز! لم يبق إلا أن أشد العقدة قليلا.. أحسنت سأكافئك على تعاونك من كل بد! عندما أعود مع نجوى، سأرسم لوحة رائعة، سأرسمها مع نجوى. لن تكون بنا حاجة إلى الألوان، سأرسمك أنت بالطين والغراء والمازوت وبويا الأحذية ورب البندورة والبيض. سأرسمك وسأحدّثك عن ترحيلي من روسيا وسجني وعن كاسر وغريب.. سأقصّ عليك أشياء لا تعرفها حتى لا تمل وتنعس، فمن غير اللائق أن يغفو الضيف على الكرسي أثناء الزيارة. حاول أن لا تموت قبل عودتي. حتى ترى صورتك، قد لا تعجبك ولكنها ستكون صورتك. ستكون لوحة عظيمة. سيبيعها ورثتك بمبالغ طائلة. سأتبرع لهم بها. لا تقلق. انتظرني فقط ريثما آتي بنجوى فنرسم بورتريها عظيما لك.. ولن أغبن موهبتك حقها فأنا سأستشيرك ببعض التفاصيل، خاصّة ما يتعلّق بهم هم، وقد آخذ بنصيحتك الحقوقيّة، لكن للآسف، قد لا تستطيع وضع توقيعك على اللوحة! الأفضل لك أن لا تتنفس هكذا، تنفس ببطء فمن الضروري أن توفر طاقتك. هل رأيت ذلك العدّاء الذي سقط

في الملعب ميتا بعد أن فَقَدَ كلَّ طاقة جسمه.. نعم، نعم، وهناك دواء لقتل الصراصير لا يفعل شيئا سوى أنه يجعل الصراصير تنقلب على ظهرها، فتتخبط الغبية، محاولةً الوقوف على أرجلها، وإذا بها تفقد طاقتها وتموت.. كم مهمّ أن يقنن الإنسان طاقته، مع أنّه قد لا يحتاج إليها، في مثل وضعك، مثلا.

أطفأ درويش الضوء وأغلق الباب بالمفتاح بعد أن ارتدى معطفا مطريا وخرج إلى حيث العاصفة تنعش الروح.

-8-

يزول الأشخاص من الواقع
حين يشطبون على الورق

كان درويش، في لعبته مع الخط واللون، قد لجأ منذ مدة طويلة، منذ سنوات وسنوات إلى واقع يصنعه بيديه، يشكّله كيفما يشاء. كان يقلقه في البداية أن يحتل الواقع الذهني مساحة أكبر فأكبر في حياته. النقاط، الخطوط، اللغة، الواقع الكلامي، الحيوات والمصائر المفترضة، الألوان التي تعيش في الذهن.. أشياء كانت في البداية تربكه، ثم صارت تخيفه.. لكنه رغم ذلك لم يسلِّم بحق ما يسمى بالواقع المادي في السطوة والطغيان على الواقع الذهني. كان لا يعجبه أن يكون هو نفسه مجرد نقطة في ذهن أحد ما، مجرد أحرف على ورقة، يمكن أن تشطب، فلا يعود له وجود هناك. ثم صار يتساءل إن كان يبقى له وجود حقيقي هنا إذا ألغي وجوده هناك. وذات مرّة أعجبه أن يكون هو صانع مصائر، أن يرسم هو ويكتب ويشطب، هنا، كيف يشاء، فإذا بأحد ما، هناك، يكون أو لا يكون. راح عقله يشتغل على سلطة الخلق، التي راحت تحتل مساحة أكبر فأكبر في عوالمه، بحثا عن منطقة يتواءم فيها العقل والروح، فإذا باللعبة تأتي باللذة، وإذا باللذة تولّد اللعب. ولم لا؟ فهل الواقع الذي نعيش هو فقط الواقع المادي بما فيه من مسكن ومأكل ومشرب وكائنات تتحرك على الأرض تعطس وتسعل وتبول؟ لا، إنما هناك أشياء أخرى تحضر بقوة خاصّة حين لا تكون بالإنسان حاجة إلى مادة الشيء. إذا كان الناس يفهمون تحت مقولة " يعيش الإنسان في العالم الذي يصنعه " ما معناه أنه يعيش في العالم المادي الذي يصنعه بيديه، فأنا– يقول درويش– أريد أن أعتقد أن المقصود من هذه العبارة هو عالم التصورات والأفكار، عالم الكلمات والألوان، ولا أهمية لما يقوله أي شخص عن أحلامك الفارغة وعن أوهامك، فطبيعي أن تكون بالنسبة له فارغة وأن تكون تصوراتك أوهاما بالنسبة له، فهي لك وحدك وتعنيك وحدك وهو عالمك الذي من الطبيعي أن لا يشبه أي عالم آخر، فالمشكلة ليست في أن يرى الآخرون فيما تعيش أوهاما، إنما في أن يوافقوك. لأن واحدا منكما، أنت أو الذي يوافقك، سيكون نسخة من الآخر، أي لن يكون لأحدكما من الوجود إلا اللحم والدم، أمّا الأفكار والتصورات والعوالم الأخرى فستكون هي تصورات وأفكار وعوالم الآخر كما ستكون لك. وهذا بالذات ما يعجب الناس! هذا التطابق القبيح الذي يصفقون له يجعل مسحنا بجرّة ممحاة ممكنا. مجرّد خطوط جميعها، وإن بدت مستقلة، لا تتعدى أن تكون ظلالا لخط واحد ما أن تمسحه حتى تنمحي جميعها. هيه، أين أنتم!؟ تصرخ ولا أحد يجيب! لا يجيبون لأنه لا وجود لهم. بماذا نختلف؟ هل بالعالم الواقعي؟ لا، فآلاف الرسامين يرسمون بالألوان ذاتها ومع ذلك تخرج من تحت ريشة كل منهم لوحة مختلفة عن جميع لوحات الآخرين، وذلك ما يحصل حتى عندما يقومون برسم شيء واحد. إذن فهم يختلفون ليس بمادة الألوان ولا بالريشة التي يستخدمونها أو الورق أو القماش الذي يرسمون

عليه، إنما بالعالم الذي يصنعونه، العالم الواقعي إلى درجة لا تصدق، يصنعونه في تخيلاتهم وتصوراتهم وأحلامهم، بل وأوهامهم. يقولون لك: ولكن هذا العالم مكوّن من مفردات الواقع الحقيقي، من مفردات العالم المادي الذي يحيط بنا ونعيش فيه! ليكن! أقول: أليس هذا يعني الموافقة على أن كلا منا يشكّل من الواقع جزءا لا يستطيعه غيره من حيث أن غيره لا يراه، وبالتالي فنحن الذين نصنع هذا الواقع. فالواقع الذي تعتقدون برسوخ ماديته وعظمتها واقع مصنوع من قِبَلِنا، واقع مُتَخَيَّل، واقع من كلمات وصور وألوان ولذلك فأن ترسم صورة دون الأخرى يعني أكثر من مجرد صورة وأن تتحدث بكلمات دون أخرى يعني أكثر من مجرد كلمات، فأنت بذلك تصنع عوالم واقعية خاصة بك، عوالم تعيش فيها بدرجة لا تقل عما يعيشه جسدك في غيرها، وهذا لا يعني أن الروح وحدها هي التي تعيش في هذه العوالم، إنما الجسد أيضا يعيش، فنحن لسنا كائنات نصفها يعيش هنا ونصفها يعيش هناك. وكل ما يقال عن ذلك هراء! لا أدري ربما يخطر ببالكم أن تعترضوا، أن تقولوا لي إنّ الأمور يا صديقنا تختلط عليك! سأقول لكم: من غير المهم أن تروها مختلطة، أو ربما من المهم جدا أن تروها كذلك. فما يختلط عليكم واضح بالنسبة لي أشد الوضوح، ووضوحه إنما يكمن في اختلاطه. ومع ذلك، فثمة ما يقلقني! فأحد ما هناك، لا يكتفي بحدود اللعبة. أحد ما يشطبنا على الورق ويتولّى بنفسه متابعة شطبنا من الحياة. أحد ما لا يكفيه الورق للحصول على المتعة، أحد ما ورقته الواقع كلّه. عليه يكتب وعليه يشطب، فنكون أو لا نكون، يكون بعضنا ولا يكون بعضنا الآخر. هذا الأحد يكتب أسماءنا على ورقة الواقع ويشطب بعضها، في لعبة مقلوبة. هو يشطبها من الواقع الفعلي لكي تنشطب من الواقع الافتراضي، يلغيها من الحياة لكي تلغى في الذهن. هذا شيء مخيف! فأنا أجهل كيف يلعب الله لعبته، وأي الواقعين أولَّ وأيهما ثان بالنسبة له. يمكن للإنسان أن يعود ثانية إلى الحياة، كما يقولون. ولكن، من يدري، فقد يكون في ذلك بالذات لعبة إلهية، يُحيي ويُميت، فإذا بلذة عظيمة ونشوة تدغدغ العرش. لكن واحدا ما، هنا على الأرض، يميت ولا يحيي، بيده أن يميت، لكنه أعجز من أن يحيي. ومن الإماتة تأتيه اللذة، من القتل. هو يقتل على الورق، فإذا بالناس يموتون هنا وهناك. أنا أيضا أريد أن أمتلك الإرادة فيكون ما أريده، أريد أن تكون بين يدي القدرة على أن أحيي وأميت. أريد ذلك، أجل. ولأنني أريد أفكّر طوال الوقت، بكيفية تجعلني أصرّف أمور الحياة والموت دون إفراط. سأضع القلم الذي يقرر شأن الحياة تحت يدي اليمنى. لا لشيء إلا لأنني أكتب عادة باليمنى، ومن الأسهل عليّ كتابة اسم أو رسم صورة لتُبعث فيها الحياة باليمنى. بينما سأجعل الريشة، التي ما أن تتحرك حتى يكون الموت، من الجهة اليسرى. أجل من الجهة اليسرى، ولا أقول تحت يدي اليسرى. فهي يجب أن ترقد في مكان بعيد عن متناول يدي، بعيد عن مزاجي المتقلب. فلا أحد تعجبه لعبة الخلق بما فيها من حياة وموت إلا صاحب المزاج المتقلب. وكل صاحب سلطة كذلك بالتأكيد.. لترقد ريشتي تلك خلف مائة باب، ولتبق أقفال الأبواب التي تقبع خلفها دون تزييت. فلما كان من الطبيعي أن تكون المفاتيح بمتناول يدي، فلتكن للأبواب نفسها حرية معاندتي. في لعبة الخلق كل شيء حي– الحجارة والخشب والحديد وكل كل شيء.. أمّا الحبر والألوان وكل سائل يُخطُّ به طريق الموت فليوضع في حجرة أخرى، خلف مائة باب أخرى، وأقفال صدئة أخرى.. أجل، أريد أن توضع تحت يدي سلطة الخلق، أنْ أحيي وأميت بجرّة قلم، ولكن سأعمل على أن تأتيني اللذة من السلطة بذاتها لا من تجسّداتها. إذا كان ذلك مستحيلا فمشكلتي ليست مع الله الذي ترك لنفسه فقط أن يفعل ما يشاء وأن نشكره على ما يفعل. مشكلتي مع نفسي، فأنا أريد أن يجتمع فيّ الله والشيطان معا، وأن يعبدني عبدة الله والشيطان معا، وأن يكون القلم الذي أميت به مقدّسا كما يكون القلم الذي أحيي به! إنّهما لا يكونان غير ذلك! لا تراوغ عقلك، ولا تترك له أن يراوغك. فالمشكلة في أن يملك أيٌّ كانَ القلمَ الذي يحيي أو القلم الذي يميت، أو أن يملكهما معا، أو يملك واحدا يكون به الموت كما تكون به الحياة.. فإذن، هل تتخلى عن رغبتك في امتلاك القدرة على الخلق؟ لا، ولكنني أبحث عن طريقة تكون فيها القدرة ممكنة من أجل شيئين يكونان معا فلا يكون لي حق فصلهما. وإلى ذلك

الحين سأعيش في عوالم على الورق. وسأعيش فيها ما لم يخترقها أحد ما عنوة. فلعوالمي سر خفي. فهي ما أن يتجرأ الواقع على اقتحامها حتى تحوّل الواقع كلّه إلى عالم افتراضي، تلهو به. فإذا بالواقع يصحو على نفسه وقد تغيّر.. لعوالمي القدرة على وقعنة الافتراضي كلّه، إذا تجرّأ الواقع على دخولها دون استئذان. وعلى الواقع أن يفهم خصوصيتي هذه. وإلاّ..

– عليّ أن أكون شخصي أولا أكون، أن أكون كما أكون لا كما يريدني الآخرون. وبعدئذ تغدو الحياة ممكنة. لا أحد يملك الحق بإلغاء وجودي الافتراضي، فكيف بالواقعي! يقول درويش. ودرويش لا يجد الخصوصية في اللون والخط فقط، إنما يرى أن الصوت لون أيضا، فالأشياء الخاصة التي منها يتشكل الواقع تعيش ليس في الفن فقط إنما وفي الأدب وفي لغة الحياة اليومية، ولذلك فمن الحماقة، من وجهة نظره، السعي إلى التشابه والانسجام، ففي كل خطوة نحو التشابه قتل لجزء من الواقع الذي نتباهى به بصفتنا واقعيين! بينما في كل خطوة نحو الاختلاف كشف لجانب منه سيبقى خفيا على الجميع دوننا.

– عجيب! أشعر أحيانا عندما تتحدث كأنني أعيش في رواية، وليس هنا في هذه الدار العتيقة! قالت له نجوى، عندما بدأ يتحدث عن أشياء لم تر لها علاقة بالحياة الواقعية.

– وما أدرانا أن الحياة نفسها ليست رواية يرويها أحد ما؟

– وينتهي وجودنا بمجرد أن ينتهي الراوي من روايته! والناس الذين يأكلون ويشربون ويسافرون ويقتِلون ويُقتَلون ونحن أيضا جزء من رواية يتسلى بها أحد ما في مكان ما!

– من يدري؟

– ولكن هذا غير معقول!

– وهل الأشياء غير المعقولة غير موجودة؟! ولماذا تعتقدين بأن غير المعقول بالنسبة لك غير معقول بالنسبة للجميع؟

– ولكنني لا أريد! لا أريد أن تكون حياتي مجرد حياة في رواية، أن أكون مجرد شخصية في رواية يكتبها أحد ما فيشطبني من الحياة وقت يريد! لا، هذا لا يعجبني على الإطلاق!

– ومن قال لك إن الراوي وحده يقرر مصيرك، وإن شطبك من الحياة أو إبقاءك حية وقفٌ على إرادته وحده لا يتعلّق بإرادتك أنت أيضا. لا، أنا لا أظن ذلك، فالقتيل أيضا يقرر أن يكون قتيلا أولا يكون، بل يقرر متى يُقتل.. متى تنتهي حياته. فأن تكوني شخصية في رواية لا يعني أنّك لا تحددين مصيرك الشخصي، فلا بد أنك هناك تستطيعين أن تكتبي نفسك، أن تتحركي كما تتحركين هنا. ولكن، إيّاك ثم إياك أن توصلي الراوي إلى درجة الرغبة في قتلك،

فسيكون من الصعب جدا، بعد ذلك، إقناعه بالعودة عن القتل. فكيمياء الموت إن اشتغلت لا ترتد إلى الحياة إلا عبر الموت.. إياك أن تفعلي ما يجعل قتلك نتيجة طبيعية. فكم يبدو من الطبيعي أن ينتهي خط ما إلى الموت.

– ولكن المسألة ليست بيدي. فماذا لو أنني لم أعجب ذلك السيد مؤلف الرواية، مؤلف حياتي فسيشطبني، ويستبدل أخرى بي، دون أن أكون قد فعلت ما يستدعي قتلي.. أم أنني يجب أن أخمّن الأشياء التي تعجبه وتشعره بالرضى عني فأفعلها! كيف أستطيع أن أخمّن!؟ ما أدراني أن الأشياء التي أختارها لن تكون قاتلة لي. في لحظة تحوّل مزاج، في لحظة انقلاب معايير، أو حتى البحث عن لذة من نوع جديد، يمكن للأشياء التي كانت مفضّلة أن تتحول إلى أشياء مقيتة تستدعي الموت.. لا، فهذه لعبة خطيرة، لا أريدها لنفسي، ولا أريدها لأحد أحبّه.

– عليك أن تفعلي ما يجعل له مصلحة بحياتك، ثم عليك أن تراوغيه، وحين ترين ذلك مناسبا أن تقاوميه، أن تصارعيه، أن تحتالي عليه، أن تقنعيه بضرورة وجودك.. بل يمكنك أن تردي له الصاع صاعين، أن تطعنيه إذا حاول طعنك. قرأت مرّة أن غوركي سقط مغشيا عليه حين راح يطعن بطل قصته (حياة ماتفي كوجينياكين) بالسكين في كبده. تخيلي ذلك، لقد تمكن شخص من كلام من طعن شخص من لحم ودم، ولولا أن زوجة غوركي ماريا فيودوروڤنا سارعت إلى إنقاذه ربما لكان مات. حين وصلت ماريا كان غوركي ممدا على الأرض وشريط أحمر دامٍ أسفل ثديه الأيمن يشير إلى المنطقة التي طُعِنَ فيها البطل بالذات. حين صحا غوركي أدرك أن بطله حاول قتله، فقال لماريا: كم هو مؤلم أن يُغرز نصل سكين تقطيع الخبز في كبدك! أن يغرز ويسحب! هذا ما كان مع غوركي وإحدى شخصياته. فما أن تحرّك غوركي، معتقدا بأنّه يملك قَدَرَ بطله، ويمكنه شطبه من الحياة متى أراد.. ما أن تحرك لقتله حتى بادره ذاك بطعنه بسكين الخبز المسنن النصل.. فبربِّك، قولي لي أيهما الافتراضي الذهني وأيهما الحقيقي الواقعي؟ من منهما يعيش في الرواية ومن يعيش في الواقع؟ وبعد ذلك! ماذا بعد ذلك؟ حرّك ستالين القلم على صفحة روايته. قُتِلَ غوركي، ثم سرعان ما أخرجوا دماغه ووضعوه في سطل. كان لا يزال ينبض. وأخذوه إلى متحف أدمغة العباقرة. كان عليه أن يَشطب من روايته ذلك القاتلَ قبل أن يُشطب.. أنا فعلا يخيل إليّ أحيانا أننا مجرد شخصيات روائية، أن أحدا ما يكتبنا، فإذا تعقدت الأمور لديه وألغى خطا روائيا يموت جميع الناس الذين كانوا هناك، وإن احتاج إلى حياة أحد عاش هذا الأحد عمرا طويلا. حين يصبح الواحد منا ضروريا للرواية يعيش، وإذا بقي تافها سَهُل شطبه واستبدال غيره به، وأنا أكتب روايتي التي هي حياتي وأريد أن أشطب الأنذال منها، لن يكون هناك أنذال في محيطي، في روايتي، فلن يكون هناك أنذال في الواقع. سيموتون.. ولكنني من أجل أن أكون قادرا على فعل ذلك، يجب أن يدخل أولئك الذين يعدونني رقما، يعدونني حرفا، أو نقطة من حبر تحولت إلى اسم، نقطة يسهل مسحها أو طمسها أو شطب الاسم الذي صارت إليه، أن يدخل هؤلاء روايتي أنا.. أن أكون أنا راوي حياتهم بمقدار ما يكونون هم رواة حياتي، أن أكون أنا صانع أقدارهم، بمقدار ما هم يكونون صانعي قدري، أن أغافلهم فأشطبهم حين أرى يدهم تتحرك باتجاه شطبي.

– غير معقول!

– غير معقول، غير معقول، غير معقول.. بالنسبة لعقلك أنتِ، أمّا بالنسبة لعقلي أنا فألف معقول. أم أنّك تظنين أن لدى الجميع عقلا واحدا! ما العقل؟ العقل غربال، محطة تفتيش آلية غبية تحجز كل الأشياء التي لا تفهمها وتمرر

الأشياء التافهة لمجرد أنها تفهمها. أترين الآن كم هي حمقاء مقولة الواقع ومقولة العقل! لأنك لم تقرئي الرواية يصبح ما فيها غير واقعي وغير معقول!

– أنا لم أقرأ ولن أقرأ، وأرجو ألا تتثاقف علي.

– لا تغضبي، أنا لم أقصد رواية بعينها، إنما أقصد..

– اقصد ما تقصد، يقرأ الواحد كتابا فيصبح العالم كله بالنسبة له كتابا.

– ليس الكتاب يا نجوى، ليس الكتاب.. أنا لا أتحدّث عن أي كتاب. أنا أتحدّث عن الواقع، الواقع الذي لي الحق بالمشاركة في خلقه ولديّ القدرة على ذلك، وستكتشفين ذلك بنفسك قريبا.. لن أرضى بأن أكون رهن يد أحد يشطبني من الحياة إلا بمقدار ما يكون هو رهن يدي أيضا.. إنّه الواقع الذي يجعلني أقول ذلك وليس الكتاب، ليس أي كتاب.

راحت نجوى تنظر إلى درويش باستغراب يخالطه خوف، بينما راح درويش يغرق أكثر فأكثر في صمت صاخب، صمت يحرّك حاجبيه ويديه وخلايا وجهه، ثم ينكفئ إلى عينيه سواداً مدلهمّاً لا بريق لضوء فيه.

– أنا آسفة.. ولكنني لا أريد أن أكون كما تقول.

– وأنا لا أطلب منك أن تكوني أي شيء. فأنت وحدك تكونين أو لا تكونين عند اللزوم. ولا أحد ينفعك في تلك اللحظة إلا ما تقررين أن تكوني عليه.. لا تُفاجَأي! فأنا أبدو واثقا مما أقوله الآن، لأنني أريد أن أكون كذلك وسأكون.. لحظةً ستأتي، ربما عمّا قريب، ستكتشفين فيها أنني قادر على كل شيء. لا أحد إلا ويقدر على كل شيء. لكن أحدا من المقتدرين، ممن يتوهّمون القدرة على كل شيء، لا يريد أن يصغي إلى هذه الحقيقة، أحدا منهم لا يريد أن يقتنع بها.. ولأنهم لا يريدون رؤية هذه الحقيقة تفوتهم لحظة الانتقال، اللحظة التي تخرج الإنسان من العجز إلى القدرة. يستخفون ويستهترون ويضغطون ويلهون ويلعبون بالمصائر والأقدار.. وإذا بالكائن الذي بين أيديهم يكتشف أنّه لم يعد لديه ما يخسره. ومن هذه اللحظة لا تعود العجينة تطاوعهم. تخرج العجينة عن الطاعة، تتحول من العجز إلى القدرة، القدرة على الموت والقتل معا. فليس أخطر من الشخص الذي ليس لديه ما يفقده.. وأنا يا صديقتي أشعر بأنني على بعد خطوة واحدة من ذلك. وليت المسألة تكون فقط في الطعام والشراب.. لا، فلقد أُفرِغت روحي وأشعر أنّ شيئا لم يبق فيها سوى الموت.

لم يكن ما قاله درويش طارئا على طبيعة التفكير الذي راح يشغله في الآونة الأخيرة إلى درجة أنّه بات أقرب إلى ضباب يتغلغل في كل شيء من شعاب الروح إلى شقوق القبو وحشو أثاثه، ضباب يستحيل تبديده، ويستحيل الخلاص منه إلا بالخروج إلى عالم آخر. فكيف يكون الحال معه، إذا لم يكن هناك عالم آخر؟

كعادته، لجأ درويش إلى الماء، راجيا أن ينغسل إلى روح أخرى. اعتاد درويش مذ كان في لينينغراد أن يغسل أفكاره السوداء تحت تيار من الماء، أمّا قبل ذلك، فكان يغسلها بماء البحر.. كان يغطس ويغطس ثم يغطس حتى ينزف دما من أنفه وأذنيه، وبعدئذ، بعدئذ فقط يستلقي على سطح الماء، متأمّلا نفسه بين السماء والماء، قبل خروجه إلى البر الذي ترك بعضا منه في القاع. هذه المرّة أيضا لجأ درويش إلى الماء، وهناك راح يبتسم لرؤية ذاكرته تحاول الإمساك بالكلمات والأفكار المغسولة. الكلمات– كتب درويش في دفتر مذكراته– تتعرى في الحمّام، تتخلص مما ألبسها العقل وتغتسل من آثار قُبَلِ المداهنة والرياء، فتبدو كما هي، حتى القبيح منها يكون جميلا في قبحه العاري. أرسم بالمائي أشياء على جدار الحمّام ثم أستمتع برؤيتها تذوب وتتلاشى مع رذاذ الماء المندفع من جسدي إليها. إذا كان هناك من يرى أنني مجنون فهذا يسرني، فأنا بالتأكيد، وربما يكون هذا هو الشيء الوحيد الذي أنا متأكد منه، لا أريد أن أكون مفهوما تماما ومقبولا من الآخرين، أيّا كان هؤلاء الآخرون، أريد أن أكون نفسي. تخيّلوا ما أفقر ما يكون عليه الإنسان إذا كان كل أحد آخر يفهمه. بالطبع كل إنسان، بما يناقض هذا الجوهر، يسعى إلى أن يكون مفهوما، بل إن كثيرا من الكتّاب والرسامين يبتهجون حين يفهمهم الجمهور ويصفّق لهم ويشير إليهم أينما كانوا، ويغتمون إذا بقوا في الظل وكان من يفهمهم قلة. لكنه مجد زائل، مجد ينغسل إذا وقف لحظات تحت الماء فلا يبقى منه شيء. سرعان ما سيبدو كاذبا وظالما وقبيحا. سيخرج كالملك العاري. لكنهم لن يشيروا نحو عورة الملك، إنما نحو عورة الطفل، نحوي أنا.. وأنا أشعر أن لا شيء يثير أسفي. قد يكون لدي ما أخسره بعد. لكنني لم أكتشفه! ولن أبحث عنه. إذا كان موجودا فليخرج بنفسه.. إذا كنت سأبحث عن نفسي فأنا سأبحث عن نفسي المسروقة، سأبحث عنها في جوف من سرقها وأستعيدها. فالشيء الوحيد الذي لم أخسره بعد هو قدرتي على استعادة أشلائي من جوف التنين، أو هكذا يخيّل إليّ الآن.

–9–

رقصة الأوكاليبتوس

(الشيخ حسن يحلق لحيته)

اشتدت العاصفة في الخارج، فراحت أغصان الأوكاليبتوس ترسم أخيلةً مخيفةً على الجدار المقابل للأريكة التي تتمدد عليها نجوى في غرفتها المقتطعة من الشرفة، الغرفة التي أقنع أخوها النقيب المشلول اليد فادي أمّه وأخاه يحيى بضرورة انفراد نجوى بها. كانت أخواتها الثلاث قد تزوّجن، وكان فادي قد عاد من حماه مُثقلا بجراحه وعجزه إلى البيت. كانت أوراق الجاكاراندا الريشية وعناقيد زهرها البنفسجية تمسح زجاج النافذة – الجدار، فيما كانت قامة الأوكاليبتوس العملاقة تهدد بالسقوط محطمة كل شيء في طريقها. السماء ترسل ثعابينها إلى الأرض، مكلَّلةً بأطياف ضوء تسابق الرعد إلى هوائيات المنازل التي تتأرجح تحت ريشات الرسامين.

ترددت نجوى بين الخروج لزيارة درويش والبقاء في البيت. كان صفير الريح في الخارج يوحي بليل درامي تتعانق فيه الأرض والسماء، فإذا بمن يقع بينهما تصعقه شرارات الحب القاتل.. راحت نجوى تغالب شعورا غامضا يدفعها إلى رؤية درويش الآن، لكن صوت الهبوب وانهمار الماء كانا أقوى فغلبا رغبتها في الخروج. لا، لن أخرج! قررت نجوى أخيرا، واستلقت على الأريكة بضع لحظات قبل أن تنهض وتُخرج من بين كتبها دفتر مذكرات درويش، الدفتر السميك

الذي أعطاها إياه بالأمس، طالبا منها أن تحتفظ به، قائلا إنّه لم يعد بحاجة إليه. الأمر الذي أثار قلقها. لكنها كعادتها غالبت وساوسها وأخذته، ظانّة أن الوقت لن يطول حتى يعود درويش إلى استعادته. ساورها شك للحظات بأن يكون في الدفتر شيء ما يخصّها أراد لها درويش أن تطلع عليه. فلعله أراد إبلاغها رسالة ما بصورة غير مباشرة. ستكتشف ذلك على أية حال حين تقرأ ما هو مدوّن على صفحاته.

بعد وقفة قصيرة أمام النافذة، سحبت نجوى الستارة، مفوّتة على أشباح الأوكاليبتوس فرصة التلصص عليها، ثم أشعلت شمعدانها ذا الضوء البرتقالي الدافئ في الزاوية القريبة من طرف الأريكة حيث تنتظر عنقها مخدة كبيرة أرجوانية عليها رسومات هندسية من ألوان كابية تتدرج بين الأصفر والبرتقالي، وشراشيب زرقاء، واستلقت، تطالع أولى الصفحات:

أمد يدي فتسقط على عتبة الخامة المشدودة، تثقل عليها أفكاري السوداء التي احتقنت بها بوابات روحي. أدعو نفسي إلى الانفلات، فأعجز عن تحرير نفسي. أكتشف أنني مربوط بألف حبل إلى عقلي اللعين، عقلي الذي لا أستطيع منه فكاكا. أي فن هذا الذي يصنعه العقل، وأية حياة، أي تعبير أرضي بائس يكون! فلا علاقة له بنبض الوجود. لكن الإنسان لا يكون دون عقل، والعقل دائما منافق ودائما مع النفاق. عبثا يحاول الإنسان إقناع أيٍّ كان، عقليا، بالوقوف ضد الظلم.. ذلك عبث لا طائل منه. ها أنا أغرق في التفكير مرّة أخرى. العقل طاغية. اللعنة على كل طاغية، اللعنة على العقل الطاغية. العقل مُخبر سرّي نذل يفعل ما يريدون منه ويهددنا بألف طريقة ويبعث فينا الخوف حين يلزمهم ذلك. هو نفسه العقل الذي خلق اللهَ والشكَ به كما بكل ما يقال عنه "حقيقة"، يعجبه أن يستبد بنا. أصرخ في وجه عقلي: إن أشرت إليَّ أيها الطاغية البغيض بشيء فسأفعل نقيضه تماما. حذار أن تحاول خداعي فأنا أعرفك مراوغا تُجمّل ما تريد، حتى ليبدو كأننا نحن الذين نريده، أو كأنه هو هكذا يكون ولا يمكن أن يكون بصورة أخرى. أنت جبان أيها العقل، كل عقل جبان، و لولا خوف الإنسان لما احتاج إلى العقل. نحن نخاف الموت فنبتكر الله، ونبتكر معه وسائل إطالة العمر، وحين لا يطول نبتكر الشك، نخاف الجوع فنبتكر حيل إنتاج الغذاء، نخاف ضيق المكان فنبتكر عدة لاحتلال أماكن جديدة.. العقل هو خادم الخوف الوضيع. لو كان جدي الشيخ يسمعني لقال: إنك مسكون بشيطان. فالعقل بالنسبة له هو الله وكل ما عداه شيطان. كان يقول ذلك على الرغم من أنه كان يحب الرسم أيّما حب ويرسم أشياء وكائنات لا علاقة لها بالعقل. كانت الأجساد لديه تضج بشهوانية لم أر مثلها عند أي رسام. إذا كان العقل يستوطن الأعضاء التناسلية لحظة الشهوة فليس سيئا إلى هذه الدرجة! قال لي كاسر مرّة حين رحت ألعن العقل فيما فرشاتي تغوص في أعضاء تناسلية على خامة رطبة، فاعترضت: ولكن كيف، عندئذ، يكون من الله؟!

أُغمضُ عيني وأهز رأسي بعنف، محاولا طرد ما يغزوه من أفكار، ثم أدندن: مجنون أنا مجنون، ما أجمل الجنون، ليلعن الطغاة، المجد للشقاة، المجد للفنون، مجنون.. مجنون أنا.. يقال: من يقول عن نفسه مجنونا يكون عاقلا. وهنا المصيبة. فأنا لم أعد أحتمل أن أكون عاقلا، وليس بيدي أن أُجنَّ. أنا لا أستطيع أن أسترخي، أن أتحرر من الطاغية الذي يضيّق على صدري، لم أعد أطيق أن أكون عاقلا أو حكيما أو حليما، لا أريد أن أتجمل بالصبر والحكمة وفهم الأشياء والناس فهما فلسفيا. لم أعد أطيق ذلك كله.. أتذكّر الشيخ حسن عمّ أبي. بقي الناس ينادونه بالشيخ حسن على الرغم من أنّه كان قد حلق لحية المشيخة، وعلى الرغم من أنّه كان يعاقر الخمر ويجالس الشباب الطائشين. أقول كان، ليس لأنه أقلع عن هذه الأشياء، إنّما لأنه لم يعد بين الأحياء. كان الشيخ حسن يلوّح بعصاه الغليظة ويضحك ملء

صوته ولا يتردد بمغازلة النساء. ذات مرّة ضاق الشيخ حسن ذرعا بلحيته التي ورثها عن عائلته، اللحية التي غزاها الشيب مبكرا مُكسِبةً وجهه المدوَّر مسحة من الحكمة، فحلقها. فعل الشيخ حسن ما لم يتجرأ أي من أبناء الشيوخ على فعله من قبل. وقف الشيخ حسن في تلك الظهيرة أمام المرآة، مغطيا لحيته براحتي يديه، متصورا الشكل الذي سيبدو عليه دون لحية، ثم تناول، بحركة واثقة، المقص وراح يقص اللحية التي وخطها الشيب دون رحمة. رأته زوجته فصرخت مفزوعة، لكنها سرعان ما عادت إلى رشدها حين هددها بقص شعرها إن لم تخرس في الحال. لم يبق من لحية الشيخ حسن إلا شاربان طويلان خفيفا الشعر. كان رأسه لا يزال أملس. فلم يكن قد مضى إلا أيام قلائل على حلاقته بالموس. كان الحلاّق أبو رامز يدور على بيوت الشيوخ صباح كل خميس ليحلق رؤوسهم بموسه الذي جاء به أبوه من خدمته حلاّقا في الجيش الفرنسي. كان في رأس الشيخ حسن فجوة خلفها حجر رمته به فريدة ابنة جيرانهم حين راح يغازل مؤخرتها. يومها ضربه أبوه بعصا الخيزران على مؤخرته الصغيرة، فقرر الشيخ المراهق أن ينتقم من مؤخرة فريدة وأعتقدُ أنّه فعل ذلك. كان الشيخ حسن، آنذاك، في الثانية عشرة من عمره وكانت فريدة في الثالثة عشرة.

نظر الشيخ حسن إلى نفسه في المرآة فرأى حكيما صينيا يتفرس في وجهه: هذه الحكمة اللعينة تصر على البقاء ملتصقة بوجهي! سأقضي عليك، فمن الحكمة أن لا يكون الإنسان حكيما.. قال الشيخ حسن وأتى على ما تدلّى من شاربيه. بعد ذلك سدّت زوجته الباب دونه، متنبئة له بشلعة أطفال يلاحقونه ويرمونه بالحجارة ويصفرون في أثره فيقودونه إلى الجنون.. لكن الشيخ لم يأبه لتنبؤاتها. حمل عصاه الغليظة واضعا على رأسه كوفية بدل العمامة وخرج محدّقا فيمن يلتقيهم، ملقياً عليهم التحية بصوت أعلى من المعتاد. كان الشيخ حسن يدرك أن عليه فعل شيء قبل أن يتجرأ عليه الصغار. فما أن يبدأ خروجهم حتى يغدو من المستحيل إيقافهم. عليه أن يفعل شيئا لمنع الخروج. هو لن يضرب الصغار، لكنّه سيرد على غمز الكبار بقسوة لا ينتظرونها منه. وإذا بالشرطي مريزق يخرج من الزاروب بصحبة رجل غريب، وإذا به يحدّق في وجهٍ جديدٍ على جسد يعرفه جيّدا، وإذا به يقهقه فجأة، وإذا بعصا الشيخ تنغرز في حنجرته وتثبته على الحائط، وإذا برعد يدوّي: إياك أن تتجرأ على النظر في عيني مرّة ثانية! تصادفَ ذلك مع خروجنا من المدرسة الابتدائية. كنت في الصف الثالث آنذاك، وكنا ندرس في غرفة واحدة مع تلاميذ الصف الخامس. رحت أصيح مهلّلا: عمّي بهدل الشرطي، عمّي ضرب الشرطي، عمّي خنق الشرطي، عمّي أقوى من الشرطي، وراحت المدرسة تردد خلفي: عمّو بهدل الشرطي، عمّو ضرب الشرطي.. ورحنا نصفر كلّما حاول الشرطي مريزق إيقافنا. ترك عمي الشيخُ حسن الشرطيَ مريزق في حالة هياج يلاحقنا نحن الصغار، واتجه إلى حانة رزّوق. وهناك طلب كأسا من العرق، وجلس يتلقى عبارات المديح والإعجاب. لم يقل أحد شيئا عن لحيته. فالشيخ حسن الرجل الحليق ذو الساعد القوي والعصا الغليظة، الرجل الذي خنق الشرطي، ولد اليوم.

مرّة، وكنت قد بلغت الثالثة عشرة من عمري ورحت أستجدي المرآة زَغَباً أسود ينبئ بقرب نمو شاربي، رأيت عمّي الشيخ حسن عند بوّابة الزاروب التي صار يسميها الناس زلعوم مريزق. ابتسم لي من بعيد. كانت لا تزال تفصلني عنه حوالي ثلاثين خطوة من خطواتي الصغيرة. وكنت أحمل كيسا من الملح أرسلتني أمّي خصيصا لشرائه. ابتسمتُ لعمي الذي رحت أتباهى به بين أقراني. يقولون لي: هو ليس عمّك، هو عم أبيك، فأقول لهم: ومع ذلك هو عمّي أنا.. ابتسمت له، وكنت أتمنى لو أثير إعجابه كما يثير إعجابي. في المسافة الفاصلة بيني وبين عمّي مرّ فيصل ابن جيراننا. كان فيصل يرتدي بزّة مموهة من بزّات سرايا الدفاع، ويعلق على كتفه شارة وعلى صدره شعارا، وكان يمشي متبخترا، مستعرضا عضلات ساعديه وصدره العريض. نظرتُ نحو عمّي، ثم نظرت إلى عيني فيصل الزرقاوين

الواسعتين. قلت في نفسي: إذا أخذت كمشة من الملح ورميتها في عينيه فما الذي سيحدث!؟ لا بد أنّه سيبكي ويتبهدل وسيكف عن التبختر كالطاووس. لم أفكّر إطلاقا بما يمكن أن يحدث لي. نظرت إلى عمي الشيخ حسن ثم إلى عيني فيصل. توقف فيصل المموَّهِ، مُحدّقا بي، فقد لفت نظره أنني أنظر إليه بذلك الإمعان. ملأت يدي بالملح وبحركة خفيفة ألقيت كمشة الملح في وجهه العريض، محاولا أن تأتي في عينيه.. وإذا بدوّامة تدور، وإذا بي ورقة صغيرة وسط زوبعة، وإذا بالضوء ينطفئ في عينيّ. لم أر عمّي بعد ذلك إلا على حافة فراشي، يبتسم لي مصححا قطع الشاش على رأسي، ولم أر جارنا المموه إلاّ في الصيف الذي تلا رش الملح. نظرت إلى عينيه ونظر إلى يدي. لم يقل شيئا ولم أقل. قالوا لي إن عينيه احمرتا آنذاك كعيني ثور، وإنّه راح يلوح بي ويخبطني بالأرض إلى أن أوقفه عمّي بضربة عصا على رأسه أخرجت ملحي من عينيه. ابتسمت لعمي وابتسم لي وكان كلانا يفهم الآخر. كان شيء ما في داخلي يدفعني لفعل نقائض الأشياء التي يربينا عليها الشيوخ والأهل والمدرسة. صار عمّي يصحبني معه في بعض المشاوير وصرت أحرص أكثر فأكثر على أن أثير إعجابه. قال لي مرّة: يداك ضعيفتان! لا يجوز أن تكون يدا الرجل ضعيفتين. عقلك جيّد.. أنت ذكي، ولكن العقل يحتاج إلى أيدٍ قوّية تحميه. يومها خلعت عن سور المدرسة واحدة من المواسير التي كانت تربط إليها الأعلام في أيام الاحتفالات وبحثت عن علبتي سمن فارغتين. كنت قد رأيت فيصل يتمرّن في صحن دارهم بأثقال مصنوعة من علبتي سمن مصبوبتين بالإسمنت بينهما ماسورة. أنا أحب عمّي الشيخ حسن. هو شيخ ولكنه ليس مثل أولئك الشيوخ الذين لا يقومون إلا بالأشياء الفائضة عن الحاجة. هي أشياء فائضة لا حاجة لنا بها في حياتنا، هي أشياء كاذبة، وسأثبت لأولئك جميعا أنها أشياء كاذبة. الحياة تتطلب قِيَماً أخرى معاكسة لها تماما. وهذا ما يجب أن يتعلمه الإنسان حتى يكون قادرا على العيش.. كذّابون! الشيوخ كذّابون، والمعلّمون كذّابون، والأهل كذّابون، والكتب أيضا كذّابة.. الحياة وحدها هي الصادقة.. ومن أجل أن نبقى على قيد الحياة لا يكفينا العقل، بل قد لا تكون بنا حاجة إليه، بمقدار ما نحتاج إلى شيء آخر. قد يحتاج الإنسان إلى العقل في مكان ما، ولكن ليس هنا.. ما حاجتي إلى العقل في قبو السفارة؟ ما حاجتي إليه في فرع التحقيق؟ ما حاجتي إليه على السلّم والكرسي الألماني وفي الدولاب؟ ما حاجتي إليه في الحديث مع عزيز وعادل ومظهر و.. و..؟ أنا أحتاج فقط إلى أن أبقى على قيد الحياة، والغريزة وحدها هي التي تسعفني هنا. الحياة مع الخوف لا تحتاج إلى العقل في أي مكان. كان على جدي أن ينتحر، وعلى أمي أن تنتحر من زمان، لو أنّهما كانا عاقلين بالفعل. من قال إن الناس جميعهم من جنس واحد وجميعهم بحاجة إلى العقل! ألا يمكن أن يكون عقلنا هو غريزتنا في هذه البلاد! إذا كان كاسر لا يزال حياً فمن يخبرني عمّا إذا كان يحتاج إلى عقله الآن؟

كان كاسر أقرب المقربين إليّ، وكنا نقضي جميع ساعات النهار معا. ما رآنا أحد إلا أذهلته الألفة التي بيننا فنحن لا نسير إلا متلاصقين، ذراع الواحد منا على كتف الآخر. وكنا في الوقت نفسه أحب تلميذين إلى قلب المعلم جاد. وفيما لي أنا أخ واحد غير شقيق من أبي، فلكاسر عائلة مكونة من عشرة أشخاص: الوالدان والجد من جهة الأم وثلاث بنات وأربعة صبيان. وكاسر هو الثالث في العائلة. فأخوه عدنان يكبره بأربع سنوات وأخته سلوى بأقل من عام. سافر عدنان مع كثيرين غيره إلى لبنان، ليتنقل هناك بين أعمال مختلفة، كان أفضلها عامل بناء، وكان مرتاحا إلى عمله الأخير، إلا أنه لم يدم طويلا. فقد قُتل عدنان في لبنان في ظروف غامضة وكان يشكو دائما من كره اللبنانيين له ولرفاقه. ولم يكن يستطيع أن يفهم ذلك، فهو أو أي من زملائه الفقراء الباحثين عن لقمة عيشهم لم يفعل شيئا يستوجب الكره. مرّة، بينما كان عدنان يتناول الطعام بين أهله، فإذا بأشخاص مهندمين يظهرون على شاشة التلفاز في استديو جميل ومكيّف مع مذيعة يكاد نهداها يقطعان أزرار القميص. وإذا بهم يتحدثون عن الأخوّة والمحبّة بين الشعبين. غص

عدنان باللقمة ثم بصقها وأطلق سبابا مقذعا، بينما كان كأس الماء يحطم الشاشة. أمّا أخته سلوى، البنت الكبرى في العائلة، فهي فتاة جميلة طيّبة، لكن حظّها بائس. كانت سلوى أولى الفتيات اللواتي يركبن دراجة هوائية في القرية. كانت تفعل ذلك وهي ترتدي بنطلونا قصيرا تظهر منه ما لم تظهره إحداهن علنا من قبلها. كما كانت أول فتاة رأيتها عارية حين فتحتُ باب الحمّام دون إنذار ظنّا منّي أن كاسر هو الذي يستحم. سلوى كانت أول فتاة وضعت راحة يدي على بوابة جسدها المحرّمة. حينها سرت قشعريرة في جسدي لم أعرفها من قبل. كان إحساسا لا يشبه آخر على الإطلاق. لكنه سرعان ما انقضى، فقد بدأ شعور بخيانة صديقي كاسر يعذبني. وبين الرغبة بتلمس ذلك العالم من جديد وصداقة كاسر اخترت الحلم السري. وكان ذلك يثير شعورا بالرضى لدي، فأنا أضحّي من أجل صديقي. أمّا هي فلم تتردد بوصفي بالجبن والضعف، كما لم تتردد بإغوائي على مدى أشهر طويلة بعدها إلى أن ضعفت، وما أن ضعفت حتى تمنّعت وأخبرت كاسر بأني ألاحقها وأضايقها. لكنها كانت ألعاب مراهقين، وأنا لم أكن أجيد تلك الألعاب. لم يعلّمني عمّي الشيخ حسن شيئا من هذا القبيل...عندما سألني كاسر عن ذلك وقد احمرّت عيناه غضبا، فاجأت نفسي بأن قلت: نعم هي تعجبني، وقد أردت...ولكن... نعم، نعم أنا أسأت إلى صداقتنا. أنا آسف. قلت ذلك ونظرت بعينين حزينتين إلى كاسر، قبل أن أضيف: لن أستطيع بعد اليوم المجيء إلى بيتكم، أنا لا أستحق أن أكون صديقا. فاجأت هذه الإجابة كاسر أيضا وجردته من سلاحه. فقد أحس برجولة لم يتوقعها مني. أجابني كاسر: أنا سآتي لزيارتك، لا تحزن. أختي ملعونة، أنا أعرفها.

تيار جارف من الحنين يشدني إلى ضيعتي، إلى طفولتي، إلى تلك الأماكن حيث كنت آكل وأنام وألعب، إلى تلك الدروب الضيقة بين البساتين حيث كنت وكاسر وغريب نتمشّى، كُتبنا في أيدينا وعيوننا ترفرف كعصافير صغيرة من مكان إلى آخر، حنين جارف يشدني إلى أولئك الصبية وهاتيك الفتيات، إلى رائحة الأرض الولهانة تعانق قطرات المطر الأولى، إلى أصوات بائعات التين الصغيرات يدللن عليه في الصباح الباكر، إلى صياح صيادي السمك يوقظ بعضهم بعضا قبيل الفجر، إلى عتبة دار أم عطا التي كأني به يرى صاحبتها تبتسم له من بعيد الآن، إلى خطوات السكيرين البؤساء عائدين في المساء إلى بيوتهم تتقاذفهم الجدران خائفين من نسائهم، ترتسم على وجوههم ابتسامة عجز ورجاء، وبينهم المعلم جاد يسند هذا ويضاحك ذاك متلفتا حوله، خشية أن يراه تلاميذه نصف سكران، إلى الدخان الأبيض الجميل يتصاعد من حضن الوادي هنا وهناك، ورائحة صابون زيت الزيتون حيث يستحم الكبار والصغار في حضرة القطلب والغار والريحان، إلى رائحة البخور، إلى التلال البيضاء تُبادل القمرَ ضوءَه كأنهما عاشقان، إلى الأعشاب، إلى حجارة الدور، إلى صوت أم كلثوم ينبعث من مسجّلة أمّون، من على الباطوز، من تحت أغصان الخرنوب، من تحت العرائش ومن بين أشجار الرمان والتين والزيتون، الصوت الذي لا يشبه صوتها بين كتل الإسمنت ودخان السيارات... إلى كل شيء يعشش في شعاب الروح راجيا حارس جرار الدمع أن يدلق منها اثنتين، لكن الرجال لا يبكون. كم يشدّني الحنين، كم أخاف هذا الشعور.. أليس هو الشعور الذي ينتاب الإنسان عندما يكون على بعد خطوتين من مغادرة الحياة؟! إنّه هو بالضبط. فأنا، إذن، على بعد خطوتين من الرحيل. لكن هناك أشياء كثيرة يجب أن أنجزها قبل رحيلي. أشياء كثيرة لا يمكن أن يقوم بها غيري. فأنا، أنا وحدي من يقع عليه واجب القيام بها. هنا. على هذه البقعة من الأرض. في هذا المكان. سأرحل، نعم، ولكن بعد أن أفي بواجباتي تجاه نفسي وتجاه كاسر وغريب والآخرين.. جدي نفسه قال لي: هراء، لا جنة ولا نار هناك. كل شيء هنا، وهنا يجب أن يُتم الإنسان كل شيء قبل الرحيل.. وبين هذا وذاك أريد أن أرى الضيعة. سأسافر إلى الضيعة. لكنني أكره أن أصل إلى هناك في العتمة. أكره ساعات المساء الأولى خاصة، أكره الغروب أيضا. البعض يستغرب: كيف! فنان تشكيلي ولا تحب الغروب بألوانه

المتبدلة كل لحظة؟ أقول لهم: لا، يا أخي أنا لا أحب الغروب ولن أحبه ولتذهب ألوانه إلى الجحيم، أشعر بضوء ينطفئ في صدري حين أرى الشمس تغيب. سأسافر في الصباح الباكر. لست أدري ولكن صدري يعود إلى الانقباض! أشعر بقلق خفي، قلق من شيء لا أعرفه.. لم أسافر إلى هناك منذ زمن طويل. عليّ أن أزور المقبرة، وأعرج على بيت أخي. سأبيت هناك ليلة واحدة وعلى الأكثر اثنتين. سأعود سريعا فسرعان ما يصيبني هناك الانقباض والحزن. لا أريد أن أرحل حزينا. سأفعل كل شيء من أجل أن أقوم بذلك مبتسما. أجل، يجب أن تكون على الصورة التي ستُلتَقط لي ابتسامة عريضة. وستكون، وسأحاول أن يكون فيها الكثير من ملامح السخرية.

لكنني سأصل إلى الضيعة وأجلس هناك قلقا مضطربا شارد الذهن. لا بد أنهم سيلاحظون ذلك. فكل ما سأفعله هناك هو من أجل وداعهم، من أجل مغادرتي السريعة لهم. ولا بد أن يشعروا بذلك. سيرتسم ذلك على وجهي. فأمامهم، أمامهم بالذات أنا لا أجيد التمثيل. ليس باليد حيلة يا أحبتي. سأترككم مع حيرتكم وقلقكم ووساوسكم وأرحل.. أعدكم بأنني ما أن أنطلق في طريق العودة حتى أبكي. ستداهمني أشياء كثيرة كنت أريد أن أراها ولم أتمكّن من رؤيتها، أشياء كثيرة كنت أريد أن ألمسها لكنني لم أستطع. ما يعذبني هو إدراكي أنها موجودة، لكن أنا الذي لم أعد موجودا. لقد فقدت القدرة على رؤية ما أحب، على تحسس ما أحب. كل هذه الأشياء التي أستحضرها ليست حقيقية. ينقصها شيء لا أعرف ما هو ولا كيف استحضره. كم فكّرت في حياتي بالسفر إلى بلد غريب لا أعرف فيه أحدا على الإطلاق، وكم تصوّرت أن بإمكاني أن أبدأ هناك حياة جديدة كليا. لن أحب أحدا هناك ولن أصادق أحدا، سأعيش علاقات سطحية مع الجميع. يا إلهي كم يخربون قلبي هؤلاء الذين أحبهم! لكن، لا، لا، أعود وأفكر... فأنا أتعلق بالمكان أيضا، فسأحب الحجارة والأشجار والطرقات والمقاهي والبيوت، فما فائدة أن أهرب من حب البشر. أنا أعي جيدا أنني أحاول الهروب من نفسي، وأعرف أنه لا مكان على الأرض يهرب إليه الإنسان من نفسه، وقد لا يكون مثل هذا المكان موجودا حتى في السماء. كم أحتاج أحيانا إلى وجود غابة، غابة كبيرة مظلمة لا نهاية لها يضيع فيها المرء، غابة أكون فيها مع الأشجار والحيوانات فقط.

تركني أمّون في الصف العاشر. خرج أمّون من الدغل ومات على هامش الطريق. قتلوه في الليل. وجدوا جثّته يابسة عند الفجر، ويده المرفوعة نحو السماء تقبض على "بيلٍ" ماتَ فيه الضوء. أطلق عليه المهرّبون النار. كنت قد عقدت مع أمّون اتفاقا بعد أشهر من المناقشات: أن يتركني أستمع إلى شريط الشيخ إمام من مسجلته الكبيرة في الفواصل بين أغاني أمّ كلثوم. لم تكن لدي مسجّلة. كان أمّون حين قُتل يكبرني بخمس سنوات، لكنني الآن أكبر منه. سمعت مرّة واحدة كاسيت الشيخ من مسجلة أمّون وبعدها مات. كان أمّون يترك مسجلته على الباطوز ويدور، تاركا أمّ كلثوم تغنّي وحدها، فيما هو يجوب الأزقة والزواريب. ليس في عين الغار شوارع. ما يسمّى شوارع هناك، يكاد لا يتيح مرور رجل إلى جانب حمار محمّل بخرج ملآن. لم يكن أمّون عاشقا، إنما كان يشتري أشرطة أمّ كلثوم من أجل العاشقين، وكان يرفع صوت المسجّلة إلى أقوى درجة ممكنة كي يصل إلى أسماع ساكني البساتين. لم يفكر أحد بسرقة مسجلة أمّون، ولم يخطر ببال أحد من العابرين قُربَها إطفاءَها أو تخفيض صوتها. وحين راح الشيخ إمام، في ذلك الليل، ينتشر في الزواريب ويدخل البيوت من نوافذها وينساح على أسطحتها المقمرة لم يوقفه أحد. صَبَرَ عليه العاشقون أو لعلهم أحبّوه. كان أمّون يحب الليل، وغالبا ما كان يتمشّى وحيدا على الطريق الممتدة شمال الضيعة على امتداد حافة وادي الغار، والمنحدرة من هناك إلى نبع كور بينار، ثم إلى خليج جبّور المختبئ بين جرفين صخريين كبيرين. لاحظ أمّون مرّة بضعة رجال يتسللون بعد منتصف الليل في ممر بين الأدغال في قعر الوادي. كانوا يقودون مجموعة

حمير تنوء تحت أحمال ثقيلة. قاد الرجال حميرهم إلى مكان ما في الجنوب متّبعين مجرى الماء الذي ينحرف بعد أن يتجاوز ضيعتنا متسلّقا سلسلة الجبال نحو الجنوب، إلى أن يلتقي، بعد بضعة كيلومترات، مع الطريق العامة. فثمة جسر قديم هناك يصل بين ضفتي الوادي، وثمّة طريق ترابي يصل أسفل الجسر بأعلاه. في ذلك الليل قال لي أمّون: لك المسجّلة اليوم، ضع شريط الشيخ، وإذا أردت أن تذهب للنوم ضع شريط أم كلثوم واترك المسجّلة مكانها. لم أذهب طبعا إلى أي مكان، بل وضعت شريط الشيخ وأعدته مرتين بانتظار أن يعود أمّون من مشواره. لكنّه لم يعد! هجر الناس وادي الغار. ما عاد أحد من الرجال يتجرّأ بعد حلول الظلام على النزول إلى هناك. والنسوة ما عدن تجرأن على جلب الماء من كور بينار.

لم تعد هناك غابة في عين الغار يمكن أن ألجأ إليها. كم هو فظيع أنه لا يوجد مكان إلا وفيه بشر أو آثار بشر، وكم أغبط أولئك الذين يعيشون في أماكن ما زالت على فطرتها. كم أنا بحاجة إلى هكذا أماكن. ولكن أين؟ لا، فأنا الآن بالذات لم أعد بحاجة إليها. ليحتجها غيري. أنا هنا، وهنا سأجعل من حبي شيئا لن يطيقه أولئك السفلة. هم لا يتخيلون كيف يكون مقلوب حبّي، كيف تكون بطانته! لا أحد يستطيع تخمين ذلك. أمّا أنا فأستطيع.

– أنتَ متعبٌ وتحتاج إلى الراحة. سافرْ إلى مكان ما واقضْ فيه أسبوعا أو أسبوعين.. أتخيل طبيبا نفسيا معتوها وبنظارتين مدورتين وأصابع تتحرك بعصبية يقدم لي نصيحته الحكيمة! أتخيل نفسي أنصحه بأن لا يحرك أصابعه بهذه الطريقة لأنني سأحطمها لو استمر بتحريكها، سأنقضّ عليها وأقطعها بأسناني إذا حرّكها مرّة ثانية.. لا، فمن يعانون ما أعانيه لا يذهبون إلى عيادات نفسية. الأمر أبسط بكثير من أن يحتاج إلى طبيب نفسي. هناك وحش يعض لسانك كلما حاولت فتح فمك، ولديك يدان قويتان تستطيعان فسخ حنك هذا الوحش، فلماذا تنظر إليه باكيا متضرعا؟! وحش آخر سينهش رقبتك من الخلف! غير مهم، فقد تأتي يدان غير يديك وتخنقانه.. عليَّ فقط أن أتفحّص مخزن الحب الذي لدي. فهل لدي، يا ترى، من الحب ما يكفي للقتل؟ أشعر بأن لدي من الحب ما يكفيني لأن أقتل. الآن بالذات، أشعر بقوة حُب عظيمة تتدفق من قلبي إلى يديَّ، قوة حب تجعلهما قادرتين على القتل! الحب لا يستوجب رسم مربعات زرق وأشجار خضراء وعصافير مزركشة.. للحب أشكال أخرى، بت أراها الآن، وسأرسمها بيدي هاتين.. كل ما عليّ الآن أن أواجه ذاكرتي، أجل الذاكرة والحب يكونان معا. فلا بد أن تكون ذاكرة أولئك الذين لا يحبون ضعيفة. أمّا الذاكرة الجيّدة، فتجعل الحب يتدفق إلى اليدين. كنت سابقا أتخيل أنّ فقدان الذاكرة شيء عظيم، شيء مريح، لكن، لا، فذلك شيء مريع، شيء فظيع.. فلا يمكن للحب أن يعيش بلا تاريخ. سيعترض من يقرأ كلماتي، سيقول: ولكن كثيرا من التاريخ يثقل على الصدر. ليس لإنسان طبيعي أن يتحمل كل الحب والانتظار والقلق والأمل والألم والخيبات والفقد، الفقد.. الفقد.. وكل تلك الأشياء ذات الأشواك الحادة التي تكتظ بها الذاكرة. ذلك فظيع. قد يكون من طبيعة الإنسان أن يحاول التخلص من ذاكرته وقد يكون من طبيعة الذاكرة أن تعاند الإنسان وتتشبث أكثر بما يريد نسيانه. هكذا هو الإنسان مخلوق من أجل الصراع، وفي كل جزء منه ألف صراع، وهو لا يستطيع شيئا. هو كائن ضعيف. صحيح، صحيح هذا الاعتراض، وصحيح أنّ كل ما يقال عن قوة الإنسان هراء. فلو لم نكن ضعفاء لما تحدثنا عن القوة كثيرا. والإنسان جبان أيضا فنحن كثيرا ما نتحدث عن الشجاعة. ولكن، صحيح أيضا ما أقوله أنا.. فنحن لسنا شجعانا ذلك أننا نخاف ذاكرتنا، ذاكرتنا المكتظة بالحب وآلامه، الحب الذي يجب أن يتحوّل إلى الأيدي.. أية شجاعة هذه إذا كنا نخاف أنفسنا، نخاف ذاكرتنا، نخاف من غول الزمن، نخاف من الموت إلى درجة تجعلنا نؤمن بكل من يطمئننا إلى أن الموت ليس نهاية.. نخاف من بدلة الخاكي، نخاف اللون.. تخيلوا نحن نخاف اللون، ولأننا نخاف نفعل أشياء مقرفة..

فكم من البلهاء يعيشون على حساب الأذكى منهم فقط لأن هؤلاء يخافون. سيقول لي المعترضون الحكماء: لماذا لا تفلش صرّة ذاكرتك وتختار منها الأشياء التي تريدها، الأشياء التي تجعل حياتك أسهل. لماذا لا تحاول أن تتفق مع ذاكرتك؟ فنحن، مثلا، نستحضر كثيرا من الأشياء الحلوة وذاكرتنا لا تمانع، بل تطاوعنا في ذلك، ونشعر بأن سرورنا يسرها أيضا. أليست هي بحاجة إلى إعادة ترتيبٍ بين الحين والآخر مثل البيت، إلى نفض الغبار، إلى إزالة الأوراق اليابسة وتلميع الأوراق الجميلة ورشرشتها بالماء لكي تنتعش؟!

– أنت تتحدث كأن في الذاكرة أشياء مؤلمة ومحزنة فقط. لا يا أخي، تشجع وافلش ذاكرتك وسترى كم فيها من الأشياء الجميلة التي نسيتها، أو ربما حجبتها بالمناديل التي كنت تجفف بها دمعك حين تبكي. اعطنا ذاكرتك وسننفضها لك ونعيد ترتيبها ونحن واثقون من أنها ستعجبك كبيت جديد جميل فيه كثير من التحف الفنية ونباتات الزينة، والصور الجميلة. تشجع، هبنا ذاكرتك، والباقي علينا نحن.

– أنتم حمقى، حمقى أيها الحكماء. أنتم لا تعرفون شيئا عن الذاكرة! سيقول لي الحكماء مخفين غضبهم تحت ابتسامة خبيثة.

– أنت الذي لا تعرف شيئا عن الذاكرة. ففي الذاكرة أشياء كثيرة مخيفة وأشياء كثيرة مخجلة، أشياء بسببها لا يسمح الإنسان لأحد غريب بالدخول إليها، وأنت لهذا السبب لا تسمح لنا بإعادة ترتيب ذاكرتك.. فهناك ما تخجل منه وتهرب منه... فكم من الناس يخشون أن يضطروا إلى عمل جراحي، إلى التخدير. يقولون إن الإنسان عندما يصحو من التخدير يتحدث عن أشياء كثيرة دون أن يعي ذلك، تغافله ذاكرته في لحظة ضعفه وتفضح كل ما خبّأه لنفسه بعناية فائقة.. الذاكرة نذلة وليست مخزن حب كما تقول! نذلة وأسلوبها وضيع. إذا كان هناك شيطان بالفعل فلا بد أن يكون مسكنه الذاكرة، فهو يرتع هناك ويعيد ترتيب الأشياء التي ترفض السماح لنا برؤيتها، ويعيد صياغتها بطريقته الخاصة ليقدمها لنا وللآخرين في غفلة منا، ويفعل ذلك دائما في الأوقات غير المناسبة.

– صحيح، أقول للحكماء. ولكن لن تكون هناك غفلة بعد الآن، ولن تكون هناك أوقات غير مناسبة، فقد انتهى كل شيء. خرج الحب من قلبي إلى يديّ، وتسلح جنود ذاكرتي بالديناميت.

عند الفجر، حين اكتشفوا جثّة أمّون كانت مسجلته لا تزال على الباطوز. أمّا أنا فكنت نائما. أيقظتني أمّي وهي تصرخ باكية: قُتل صاحبك أمّون! مات.. ركضت إلى بيتهم. كان الناس متجمهرين هناك. هناك تحدّثوا عن مهربي أسلحة. هناك فهمت أنّ كثيراً من أهالي ضيعتنا يعرفون بأمر المهربين ورأوهم لكن أحدا لم يقل شيئا لأمّون عنهم. جاء أخوة أمّون وأخواته من أماكن عيشهم، فأمون كان صغير البيت، وكان الوحيد الذي يعيش مع أبويه العجوزين. التمّ الكبار والصغار حول جثّة أمّون. كان الجميع يبكي إلا عزيز فكان يغطي وجهه بيديه محاولا إخفاء ضحكته.

توقفت نجوى عن القراءة للحظات. تخيّلت أمّون. تمنّت لو تعرف مصير مسجلته وأين تكون الآن. أخرجت من بين الأشرطة المتراصة على الطاولة شريطا للشيخ إمام وضعته في المسجلة. سمعت صوت أخيها فادي: نجوى، خفّضي الصوت قليلا! استجابت نجوى لطلب فادي صامتة، وراحت تراقب من نافذتها قنديلا معلقا على عمود الكهرباء تؤرجحه

الريح. كانت الغرفة الأخرى تعبق برائحة العشاء وصمت المتحلّقين حول المائدة. وكانت نجوى قد اعتذرت عن تناول الطعام، مستغلة انشغالهم به للانفراد بنفسها، فنزيلتا غرفتها سوسن وربيعة ستلجآن إلى النوم بعد العشاء، وسيكون عليها منذ الصباح مرافقة ربيعة إلى المطار، وفق الترتيب الذي رأى فادي وعمّار بعد التشاور معها أنّه الأفضل. كانت نجوى قد أبلت بلاء حسنا في الإعداد لسفر ربيعة إلى الأردن، وكانت قد تبرّعت للقيام بذلك بنفسها بعد أن قصّ عليها فادي حكاية عائلة ربيعة، وخطورة بقاء ربيعة في سوريا على نفسها وعلى عمّار، وعلى كل من يعرف بقصة تصفية عائلتها. كان عمّار سلمان صديق فادي الخارج من جحيم حماه بذبيحة لا تزال حيّة بين يديه وأخته سوسن وربيعة وفادي وأمه العجوز وأخوه يحيى، متحلقين حول مائدة الطعام، واجمين، يزدردون لقيماتهم صامتين، كلٌّ منهم يصلّي لإلهه بأن ينقضي الغد على خير، بأن يتمكّنوا من إنقاذ ربيعة المسكينة وإيصالها إلى بر الأمان. أمّا نجوى فوجدت نفسها في دفتر درويش خارجة من كهف عميق، كهف يوهم بوجود ضوء لكن أيا من شعابه لا يفضي إليه.. شعرتْ بانقباض شديد وبأسى وقلق على درويش: يا إلهي كم أنت شقي! الآن بت أفهم لماذا رحت تدعوني إلى إطلاق يديّ، إلى نسيان أنني كائن عاقل. إلى الخروج إلى الداخل لمجابهة أغلال هذا الداخل. كنت أحسبك تدعوني إلى التحرر كامرأة.. وكنت أقول بيني وبين نفسي: أنتَ لا تعرف إلى أية درجة أنا قوية وأحس بهشاشة تلك القيود. لكننا كنا نتحدّث عن قيود مختلفة. أنا المرأة أعرف قيودي جيدا، رغم أنها ليست وحدها التي تشغلني. بلى، كنت أخشى في البداية أيدي الرجال وأخشى أصابعي، ولكن صار ذلك يضحكني ويثير في داخلي شعورا بالقرف حينا والأسى والأسف على أصابعي حينا آخر، ولكن ليس على نفسي. اكتشفت أن قيود المرأة قد لا تحتاج إلى أكثر من ضغطة صغيرة حتى تتكسر، وأنها ضغطة يجب أن تأتي من الداخل، أمّا قيود الرجال فتحتاج إلى ديناميت. كنت في البداية أحبس أنفاسي، أخشى مَلء رئتيّ بالهواء حتى لا تتكسر القيود التي تطبق على صدري. لكن هذا كلّه كان من زمان. أمّا الآن فلست واثقة من أي شيء! لست واثقة من أنّ الروح نفسها لا تغدو في لحظة معينة قيدا؟ فمن لا يستطع تجاوز روحه يمت مخنوقا بها. روح درويش هي التي تطوقه، ماذا تعني الحياة بالنسبة لربيعة وماذا ستعني بعد اليوم؟ هل ستكون روحها جناح حرّية أم قيدا عصيّا على الاسترخاء؟ ليس حال درويش كحالها، ومع ذلك فهو في الداخل وروحه في الخارج. روحه محيطه. ولكن أين يكون عزيز أفي الداخل أم في الخارج؟ يبكي درويش، ويضحك عزيز، وتختلج عروق وجه ربيعة الشاحب، وأنا ماذا أفعل على بعد خطوة من آلامهم؟؟

ينقلب صفير الريح في الخارج إلى انهمار ماء مدرار، سرعان ما تستجيب له المزاريب.. تغطي نجوى وجهها براحتي يديها، تضغطهما على عينيها، ترتسم دوائر سوداء فيهما تنفتح على دوائر صفراء. يتراءى لها أنّ يديها يدا درويش. تفتح عينيها فإذا بها أمام حلزونات يتناوب فيها الأصفر والأحمر الدوران. تفصلها يداها عن قنديل يرسم خطوط الماء. تعود إلى الأريكة وتستلقي عليها مغطيّة وجهها بدفتر مذكّرات درويش. تضغطه على عينيها. تراه يرسم: إنّه هو وليس هو، يرسم بحد الحربة، يذبح بنصلها الألوان، قاتمة تنز من الخيش، تفتح عينيها مذعورة: اللعنة على الهاتف! ليس لدى درويش هاتف لأطمئن عليه، يجب أن أراه قبل أن أسافر إلى دمشق، فربما يكون الأوان قد فات حين أعود. تحاول طرد الوساوس من رأسها، ملوّحة في الهواء، كعادتها حين تطرد أفكارا سيئة، كأنما تصفع أحدا ما، ثم تفتح الدفتر على صفحة جديدة معاودة القراءة:

– ليس إلاّ من الحرّية وبها يكون. الجمال لا يولد إلا من الحرية. على الرسّام أن يترك القواعد فهي ليست للفن الحقيقي. يمكن لكل إنسان أن يكون فنانا إذا استطاع أن يكون حرّا. كم كنت أتمنى في طفولتي لو تكون لي غرفة

خاصة في بيتنا، أتعرى فيها، أصرخ، أكون فيها غير ما أكون في الشارع وأمام جميع الناس.. كم كان سيفرحني ذلك! أمّا الآن، فلم أعد قادرا على الفرح. جاء زمن آخر، للأشياء فيه مسميات أخرى. وأنا الآن كما لم أكن في يوم من الأيام. كما لو أنني أتعرف على نفسي للمرة الأولى، للمرة الأولى أشعر بأن شيئا مختلفا كليا عمّا عرفته من قبل سيحدث، وسأكون معه مختلفا كليا عمّا كنت من قبل. لا أعرف بالضبط ما هو هذا الشيء، لكنني أعرف أنه سيكونني أنا، أنا الذي يتعرّف على نفسه الآن. جسدي لن يعود يثقل علي، ولا ذاكرة الآلام. لن أقف حارسا أمام كرسي جلالته! أشعر بأن الحدود بين جسدي وبين العالم الذي لم أره بعد تزول، فثمة أنا لا يشعر بالهواء ولا يشعر بالمكان ولا يشعر بجسدي، أنا هو يدان تعيدان تشكيلي وتشكيل العالم.. أنا هو شعور لن أفرّط به أبدا، شعور لا أستطيع أن أكون بعده ضعيفا. أمس قالت لي نجوى: أنت تفعل ما تشاء، أنت رجل تموت من أجله المرأة مبتسمة. لا، أنا لم أكن أفعل ما أشاء، فقد كنت في مكان، وذاكرتي في مكان آخر. أنا الآن مع ذاكرتي نعرف ما أشاء.. لا تموتي من أجلي. يجب أن تعيشي! وأنا أيضا يجب أن أعيش ولكن كيف؟

طلبتُ المسجّلة من أمّ أمّون. قالت لي خذها، أمّون كان يحبك. كاسر بكى كثيرا حين قُتِلَ أمّون. كان قفصه الصدري يعلو ويهبط محاولا إيقاف دفق الدمع، وكان القميص يضيق عن أضلاعه البارزة بوضوح، أضلاعه الهاربة من قلبه الباكي. كانت أضلاع كاسر تنتمي إلى الخارج أكثر مما تنتمي إليه. خفت أن يختنق، فمددت يدي إليه. عزيز كان يضحك! متى يتحوّل الضحك إلى بكاء؟

المطر في الخارج يتحوّل إلى بَرَد يجلد الشجر والحجر.. تَراهُ نجوى يرسم عينين فيهما ضجر حيواني وحشي كعيني وحش حبيس، يرسمهما بأظافره، وبحد الحربة يكتب: العالم نقطةٌ عرفَ الإلهُ متى يضعها. وضعها وانصرف. أمّا أنا فلا يعجبني ذلك! سأفجّر النقطة من الداخل، سأفتح باب التكوين من جديد.. يتناهى إليها صوت أمّها تناديها ثانية لتناول العشاء. تصمت، يتكرر النداء، تصرخ: كلوا، ما جوعانة بعدين بـ آكل، بعدين. تعود إلى الدفتر، إلى مكان آخر فيه:

– كم أنا بحاجة إلى مكان لا يثقل عليَّ بالحب والشوق، مكان لا تثقل عليّ حاجتي إليه، مكان لا يكون كالهواء ما أن تخرج منه حتى تشعر بالاختناق فيرغمك على العودة إليه. الحب ثقيل، ثقيل كالوطن، طاغية كمثله.. الحب هو الذي يدفع إلى القتل وليس البغض.. كم كنت أحسد الحيوانات! كنت أحسدها لأنها لا تشتاق إلى أحد ولا تحزن على أحد ولا تشعر بالضعف ما لم تخنها قوائمها أو مخالبها، تموت ولا حاجة بها إلى دموع الآخرين. لم أعد أحسدها. لكن هذا كلّه هراء، فأنا ما زلت ضعيفا، أقاوم سقوط الدمع بألف مخلب وألف كرباج.. هذا كله هراء.. كنت أظنّه أنا، كنت أظنّه أنت، كنت أظنّه الوطن، لكنه شيء عصي على التسمية، عصي على الفهم، شيء يُدرَك بالمشاعر والأحاسيس فقط، يجعلني الآن أكون ما أنا كائن عليه. ومع ذلك بت أعرف بأن كثيرا من العقل يدفع إلى الجنون، وكثيرا من الحب، كثيرا من التعلق بالحياة يدفع إلى الانتحار، وقد يكون ذلك السبيل الوحيد الذي يوقف ابتزاز الحياة للإنسان. أجل نكاية بالحياة على الإنسان أن يوقف ابتزازها له، هذا تحد جميل أن يقول الإنسان للحياة: اللعنة عليك، سأرى ما تستطيعين فعله، ها أنا ذا أنفصل عنك! فيسحبه القاع تاركا أسئلة الموج على السطح. لا بد أن الإنسان يقول للحياة حينذاك: سأعيش دونك، ويقول لمن يحب: أما أنتم فسأرحل عنكم، سأرتاح من قلقي وخوفي عليكم وسأظل مع ذلك أحبكم، فلا بد أن يوجد مكان ما يكون فيه الحب ممكنا دون قلق أو خوف أو انتظار.

ربما لو كان كاسر طبيبا بيطريا أو لو كان راعيا لما كفر بالمكان. دعوني أفكر أن الأمور كان يمكن أن تسير هكذا، فلست أدري أي سر في الأبقار يجعل الناس يتمسكون بالمكان. صحيح أن كاسر رُفض في مسابقة لانتقاء المعيدين مرّة وثانية نتيجة لكلمة أو كلمتين، عبارة أو عبارتين في إضبارته، ورُفض في مسابقة لتعيين المدرسين، ولكن ماذا في ذلك! في المرّة الأولى حين سمع كاسر بذلك، وأخبره قريب له يعمل في "أرشيف الأقدار" بذلك السر العظيم، ضحك بقوة ثم تلفت حوله في كل الجهات، خيّل إلي في البداية أنه يتلفت خشية أن يرى إن كان أحد ما يراقبه، لكن، لا، فقد بصق. عندئذ فهمت، فهمت أنّه كان يبحث عمّن يصوب إليه بصقته الكبيرة فلمّا لم يجده بصق على الأرض. ألا يكون للبصقة على الأرض بقوة معنى كبير؟ لماذا رفضوه! أنا لا أعرف، ولكنهم رفضوه على الرغم من أن سلوى حرقت في غيابه كثيرا من الكتب والأوراق، هم لم يفتشوا بيته، ولكنها فعلت ذلك خوفا عليه. كانت تخاف خاصّة من عزيز. حين عاد كاسر إلى البيت وعلم بحرق الكتب غضب غضبا شديدا، ولكنه حين اعتقلوا جارنا جمعة أخَ أمّون بعد يومين من ذلك نظر إلى الرف الخالي خوفا من أن يكون قد بقي عليه ما يثير الشبهات.

كان عزيز قد تودد إلى سلوى كثيرا وادعى أنه سيخطبها وصار يتردد على بيتهم كثيرا، مفتشا بين كتب كاسر وأوراقه وخزانته عن شيء ما، كلما سنحت له الفرصة. لاحظت سلوى، مرّة، ما يفعله لكنها خافت من مكاشفته بالأمر.. خافت سلوى في البداية، ثم استجمعت قواها وبدأت تتهرب منه ولا تخرج إذا جاء لزيارتهم، بل بلغت بها الجرأة أن قالت له ذات يوم، صراحة، إنها لا تريده. استدعوا كاسر مرتين واحتفظوا به عدة أيام في المرّة الأولى، بينما راح ينتظر في المرّة الثانية عدة ساعات ليقولوا له في نهاية المطاف: عد غدا، وتكرر الأمر في الغد، حتى تم اللقاء في اليوم الثالث بعد ساعات من الانتظار أيضا. في المرّة الأولى سألوه عن علاقاته ببعض الذين يستضيفونهم في الأقبية منذ عدة أشهر أو عدة سنوات، وفي المرّة التالية حين تقدم بطلب للحصول على جواز سفر: لماذا؟ وإلى أين؟ ومن تعرف هناك؟ ومع من تخطط للسفر؟ ومن سيكون بانتظارك؟ ومع من ستلتقي؟ ومنذ متى أنت تفكر في السفر؟ وما الذي لا يعجبك هنا؟ ومن لا يعجبك؟ وأشياء أخرى كثيرة. عاد كاسر يومها وهو لا يستطيع القول إن كان سيحصل على موافقة على السفر أم لا، لكنه عاد خائفا حزينا بعمق. راح العالم يضيق عليه. وتلك البصقة على الأرض راحت تكبر لتشمل المكان كله، محاوِلةً تغطية إشارات الاستفهام التي كانت تُزرع كل يوم هنا وهناك. تركوا كاسر يعيش ولم يكن يبدو أن أحدا يضايقه في شيء. لكن، ما أن رحل كاسر إلى دمشق للبحث عن فرصة عمل حتى ظهر عزيز من جديد، وراح يدخل دار أمّ عدنان دون استئذان حين يرى الباب مفتوحا، ويسأل ضاحكا عن كاسر! عالم ملعون، أشعر كأن روح هذه الأرض اللعينة بقرة وأنا مربوط إلى ذيلها كلما حاولت الابتعاد عنها رفستني وكلما حاولت الاقتراب منها فلطت في وجهي. كان صديقي علي في معهد الثقافة في لينينغراد يحلم بصناعة فيلم، بل كان يخطط لصناعته. كان السيناريو واضحا في ذهنه. لم يكن فيلمه يحتاج إلى أيّة شخصيات سوى شخصيته هو وشخصية بقرة. أجل بقرة! لماذا أراد علي أن يكون بطلا في الفيلم؟ لست أدري. قال علي: فيلمي بسيط. أنا والبقرة. أركض وراء البقرة وتركض أمامي. أسرع أنا، تسرع هي. أبدو كأنني على وشك أن أمسك بذيلها، فإذا بها تبتعد عني. وفقط، فقط في نهاية الفيلم أتمكن من الإمساك به، وإذا بها تستقبل ابتسامة النصر التي ترتسم على وجهي بفلطة رخوة تغطيّه. هذا هو فيلمي، وسأصنعه عاجلا أم آجلا. لم أسأل عليّاً عن فيلمه بعد ذلك، لكنني منذ ذلك اليوم وأنا أتخيل الحياة بقرة عملاقة ألاحقها فتفلط في وجهي، ليس كبقرة علي، إنما تفلط كلما دنوت منها.

لم يكن كاسر ينتمي إلى أي حزب. كان بعضنا يُعيب عليه ذلك، يلومونه قائلين له: أنت لا مبدأ لديك! فقد كان له أصدقاء من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. وكان يبتسم، بل يشعر بالعطف على أولئك الذين يرون المبدأ فقط في الانتماء إلى حزب دون غيره. قال لي مرّة: أنت أيضا ربما كنت تتساءل عن إيماني بمبدأ معين وتمسّكي به: لا، لا.. أنا أعرفك جيدا! أجبته، لكن تساؤلا كان يرتسم في عيني وأنا أقول له: مشكلتك يا صديقي أنك تحب الناس وتتعاطف معهم أكثر مما يجب. الناس لا يستحقون كل هذا الحب، فلو وقعت في حفرة لما وجدت أحدا منهم يمد يده لانتشالك. أنت تتعاطف حتى مع الأنذال: صحيح– أجاب كاسر– لكنني لا أتعاطف مع ظالم إذا كنت أعرف أنه ظالم. مبدئي يا صديقي هو أن لا أكون في صف الظلم والظالمين. أنا ضد الظلم أينما كان وكيفما كان. وأنا مع من يقع عليه الظلم كائنا من يكون. قد يصير المظلوم اليوم ظالما غدا، سأقف، إذن، ضده غدا، وإن كنت أقف معه اليوم: ولكن ماذا لو عاد الظالم عن ظلمه، هل ستقف إلى جانبه؟ فاجأ سؤالي كاسر، بل أربكه. أطرق صامتا: لا تقل لي نعم– قاطعت تفكيره– لا تجعل من نفسك مسيحا، سيكون ذلك مضحكا: لا أعرف بماذا أجيب– قال كاسر– ولكن، لا... لا أظن أن ما فيّ من تسامح يكفي لأن أقبل توبة ظالم، بل قل لا أريد أن أقبل ذلك، على الرغم من أنني قد أفعل. يجب أن يكون هناك عقاب، هنا على الأرض، وإلا فمن يدري ماذا يكون هناك في السماء! وأنت لو تُرك لك أن تعاقب من ظلموك فماذا تفعل، لو أُعطيت سوطا بيدك فهل تجلدهم؟

– قد لا أفعل ذلك بيدي، لكنني بالتأكيد يسرني أن أبول عليهم. أنا أعرف أن ذلك لا يغير في الأمر شيئا، ولكنني أعرف أيضا أنك لا تستطيع أن تقضي على الجرذان ما لم تقض على كل جرذ، حتى وإن كان ذلك عملاً يثير القرف.

– بل يجب القضاء على البيئة التي يرتع فيها الجرذان– استدرك كاسر– فإن بقيت بيئتها كما هي ستتكاثر من جديد ولن تُجدي محاولاتك مقاومتها نفعا: لكن ذلك لا يعفي من ضرورة تنظيف المكان منها– أكّدتُ أنا– أنت تعرف أنني لست من النمط الحاقد. ولكن، ماذا يمكن للإنسان أن يفعل؟ إذا كان هناك من يبصق في قاع روحك، إذا كان هناك من يستخف بعقلك وروحك وأخلاقك وعلمك، هل تقول لا بأس فالسماء ستنتقم لي، هناك سأحصل على حقي! الأفضل للإنسان أن يأكل خراءً، صباح مساء، من أن يقول ذلك. ثم، إلى متى يمكن للإنسان أن يتحمل الاستخفاف بكل ما يعتز به، وتحت أي حجج وشعارات يجب أن يتحمل ذلك. يقولون الله يأخذ لنا حقنا! وهل خلقنا الله لنكون دوابا ونساق كالبهائم! تخيل أن نذهب إليه ونقول: عفوك يا ربنا الكريم، هبنا ما وعدتنا به، لقد كنا بهائم مطيعين، غير أننا صلينا من أجل أن لا يتزعزع الإيمان في قلوبنا. ماذا ستقول لنا جلالته حينئذ! ستقول: كنتم بهائم وستظلون إلى الأبد بهائم، انزلوا إلى الحضيض فإنه المكان الذي يناسب أرواحكم الذليلة وإنكم لملعونون. الصلاة لا تبني بيتا يا عبادي المخبولين. يبدو أن سؤالي فتّق مواجع كاسر، حتى إنه أظهر من الألم أكثر بكثير مما كان يبدو أن ابتسامته اللطيفة تنطوي عليه. أجل، ليس لإنسان يعتز بإنسانيته وكرامته أن لا يحتج على انتقاصهما. لو يحتج على الأقل، لو تصرخ روحه ألما حين تهان! أمّا حين يكون التوجع ممنوعا فتصبح الحياة مستحيلة. يبدو أن حياة كاسر صارت مستحيلة وقد فهمت ذلك. لشُدّ ما خفت على كاسر. أرعبني أن يلجأ في لحظة إحباط إلى عنف غبي لا ينتهي إلا إلى القضاء عليه شخصيا، أرعبني أن ينتحر كاسر في لحظة يأس، لكن كاسر قرّر السفر ولم يدركه، أراده بحثا عن روحه وكرامته في مكان آخر، قد يشيرون فيه إلى لونه، لكنهم لا يطوقون عقله بالأسلاك الشائكة، ولتكن روحه بعيدة هناك، ولتكتو بنار الحنين والشوق، لكنها لن تكون حبيسة الخوف، الخوف من عبيد يخبطون على الأبواب في ظلمة الليل.

لم يكن كاسر حين راودته فكرة السفر إلى الاتحاد السوفيتي، هربا إلى العدالة من الظلم، لم يكن يدري، كما لم أكن أدري من قبل، أن الظلم هناك ليس أقل من هنا. لم يكن يعرف ذلك، ولم أكن أستطيع أن أكتب له عن ذلك. كان كاسر يشعر بآلامي، كان يعرف حساسيتي الفائقة للظلم، وكان يرى بوضوح النصل الحاد الذي يفصل بين الدمعة وصرخة الرفض لدي. ما زلت أذكر ردود فعله الأولى حين طرحت أنا فكرة السفر عليه أثناء انتظاري لرسالة القبول والدعوة من خالي، مبيّنا أن الآفاق هنا مسدودة، والظروف تسير من سيئ إلى أسوأ. لم يكن قد تعرّض بعد للرفض في مسابقة وأخرى. لم تكن قد مضت إلا بضعة أشهر على تخرجنا من الجامعة: لا، أنا لن أسافر إلى أي مكان، لتكن الظروف ما تكون. لي شبر من الأرض هنا، يخصني أنا، لي شجرات هنا أعرفها وتعرفني، لي كمشة هواء هنا لن أتركها، لا أحد يستطيع أن يرغمني على ذلك.. وبعد قليل هدأ كاسر، فأخذ يقول: أنا آسف، اعذرني، أنا لا أقصد أن الذين يسافرون يخونون المكان الذي ولدوا فيه، لا، فأنا لا أعتقد أن أحداً يهاجر إلى الأبد، لا بد أن كل من يسافر يفعل ذلك إلى أمد محدود، قد يكون لسنة أو عشر سنوات أو مائة سنة ولكن ليس إلى الأبد. كل من يهاجر يحلم بأن تتغير الظروف ويعود يوما. لا أحد يهاجر بصورة نهائية حتى ولو صرّح بذلك ألف مرّة. أمّا من يهاجر نهائيا فلا بد من أنَّ مرارةً أقوى من المكان والزمان تدفعه إلى ذلك.

– أنت سوف تسافر ولكنك لا تستطيع إلا أن تعود، أمّا أنا فلا أريد. أنا لا ألومك على أنك تنوي السفر ولا أريد أن أقنع نفسي بضرورة السفر. أعرف أنني سأشتاق إليك كثيرا وسأشعر بقسوة الظروف مضاعفة كلما تذكرتك. الإحساس بالقسوة والظلم إحساس دَبِقٌ سيعلق على جدران غرفتي التي سأُعلِّق عليها صورتك.. ولكن أرجو أن لا يعلق على جدران روحي! فقد أموت حينها قبل أن أتعلم كيف أزيله.

– ما زال الحديث باكرا عن الموت – قلت لكاسر– دعنا من هذا الحديث الآن، فلست أعرف إن كنت سأسافر فعلا ومتى وكيف. كل ما أعرفه أنني أنتظر ذلك، أنتظر رؤية موسكو. لا أريد السفر إلى أي مكان في العالم، كما أريده إلى موسكو. والمشكلة أنني أثناء انتظاري أعجز عن فعل أي شيء.

– احذر من النذل عزيز– قلت لكاسر حين أزف يوم سفري– فهو لن يترككم ببساطة بعد أن طردته سلوى، ولن يوفّر نذالة إذا استطاع.

– لا تقلق – طمأنني كاسر، وهو نفسه لم يكن مطمئنا– سأطرده أنا هذه المرّة إذا حاول المجيء. سأجابهه بحقيقته إذا أصر على المجيء.. لن أسمح له بإزعاج سلوى، لن أسمح له بدخول بيتنا. لن أسكت هذه المرّة.. لم أعد أستطيع أن أخدع نفسي!

– معك حق– قلت لكاسر– يمكن للإنسان أن يخدع الآخرين ويتظاهر بلامبالاته بما يجري حوله، ولكنه يجب أن لا يخدع نفسه. ثم، كَمْ من الوقت يستطيع أن يخدع الإنسان نفسه دون أن يشعر بالقرف. لا بد أنه سيتقيأ روحه في لحظة ما. قد يكون في خداع الآخرين سياسة، أمّا خداع النفس فجريمة. سأسافر وستلحق بي يا صديقي– قلت لكاسر– فقد تصون بذلك نفسك، فلن تبقى هنا تنفض الغبار عن الحجارة التي تحبها. عليك أيضا أن تحيا، أمّا هنا فأقصى ما تستطيع فعله هو أن تبقى على قيد الحياة.. من واجبنا يا صديقي ليس فقط أن نبقى على قيد الحياة، بل أن نحيا، أن نعيش كما يعيش الناس.. الناس وليس الدواب!

توقّف المطر عن الهطول، وهدأت الريح. دخلت ربيعة وسوسن غرفة نجوى، استأذنتها سوسن بالجلوس، فيما وقفت ربيعة مطرقة بانتظار أن تدعوها إحداهما إلى الجلوس. كان هناك فراش سيُبسط على الأرض قرب أريكة نجوى من أجلهما. طوت نجوى دفتر درويش حين سمعت نقرات على باب غرفتهما. لم يعد أحد يناديها لتناول العشاء. أعادت نجوى الدفتر إلى محشره، بعد أن دعتهما إلى التصرف كما لو أنّهما في بيتهما، ثم ضغطت يد ربيعة كأنّما تعتذر لها عن ذكر البيت: أنا آسفة- خاطبتهما- سأخرج لأدخن سيجارة، لا أريد أن أزعجكما بدخاني هنا، ثم أغلقت الباب متجهة إلى قرندة صغيرة ملحقة بالمطبخ، وهي تقاوم رغبة بالانتقام من عزيز لسلوى ولكاسر ولدرويش ولنفسها، ولكثيرين غيرهم ممّن لا بد أن يكون عزيز قد تلاعب بأقدارهم.. وأمّا ربيعة فلم تكن تتخيل كيف يمكن الانتقام لها، وممّن أمن عزيز وأمثاله أم من أحد آخر، أم أنّ المأساة حين تكبر وتخرج عن دودها الشخصية لا يصح معها الانتقام. في المطبخ، قبّلت نجوى أمّها العجوز راجية إياها أن تترك لها ما تراكم في المجلى من صحون، وبعد خروج العجوز أطفأت المصباح، وخرجت إلى القرندة متأمّلة أوراق الجاكارندا وأزهارها التي مزّقها البَرَد وألقى بها هنا وهناك على الرصيف. كانت الجاكارندا النحيلة تحاول الإفلات من طغيان الأوكاليبتوس.

أحدٌ ما تراءى لنجوى في نهاية الشارع. راح يسير في خط مستقيم دون أن يحاول تجنّب برك الماء. كان يخبط الماء بقسوة متقدّما إلى الأمام. بالأمس رأت نجوى حلما. رأت درويش يطلق دجاجة كبيرة رمادية الريش. تحاول الدجاجة الطيران. ترتفع عن الأرض. جناحاها يكبران مع كل خفقة.. يقهقه درويش، يقهقه بقوة فيهتز كل شيء.. يهتز.. يهتز.. وإذا بشيء ما ينهار. دفق هائل من الماء يغمر المكان. تستيقظ نجوى مرعوبة. تتذكر أنّها لم تر درويش. كان آخر من رأته في الحلم هو عزيز. تنفض السماء شراشفها البيضاء المغسولة وتنشرها على حبال العتم، فيرتعش وجه البِرْكة التي ما وطأتها قدم القادم بعد. تنظر نجوى فتعرف في القادم درويش.

-10-

عمّار يسكنه أنين النواعير

- سيّدي، اسمح لنا بإخماد بؤرة النار، هم يطلقون النار فقط من تلك الشقة في الطابق الثالث، دعنا ندخل البناية، سيدّي! رجا عمّارُ النقيبَ معتصما قائدَ سريّة المداهمة.

- ومن هذه الـ أنتم يا سيادة الرقيب أول؟ أجاب النقيبُ معتصم مستهزئا.

- أنا معه سيدي! صاح الرقيب المجنّد نظير.

- أنا لا أسمح بأن يُقتل أحد من فصيلتي، مفهوم يا بهيمة أنت وإياه، لن أغامر بروح أحد، إذا أردت أن تموت رُح مُت في مكان آخر. ردّ قائد سرية المداهمة النقيب معتصم بحزم. سندمّر كل شقة تخرج منها رصاصة، لا بد من تلقين هؤلاء الكلاب الذين يؤوونهم درسا لا يُنسى.

- أرجوك، سيّدي، دعنا نحاول- قال عمّار متوسّلا أمرَ قتالٍ فردي- هؤلاء الأنذال يحتمون بالناس العزّل، يأخذون الناس كرهائن، ويجروننا إلى قتالهم بين أناس لا حول لهم ولا قوة، دعنا لا نقع في الفخ سيّدي، أنا مستعد لأن أموت.

- وأنت يا نظير، هل تريد أن تموت أيضاً؟!

- لا أحد يريد الموت سيّدي، ولكن، إذا كان لا بد من الموت، فأنا على استعداد، علينا أن نحاول ففي البناية عائلات كثيرة لم تغادرها سيّدي.

– ولكن، إذا لم تُطلاّ من شبّاك الشقة خلال– نظر قائد سرية المداهمة إلى ساعته– عشر دقائق سأجعل هؤلاء الكلاب يندمون على إيوائهم. لا تنس أن تُلقي قنبلة في الشقة قبل دخولها، اخلعْ الباب والق قنبلة، ثم اقتحما الشقة، هيّا.

– أمرك سيّدي. تعني عشر دقائق بعد وصولنا إلى البناية سيّدي، صاح عمّار، راجيا أن لا يتراجع قائده عن أمره.

– غطٍّ تقدّم الشباب! صاح القائد. فبدأ رامي رشاش بإطلاق النار نحو نوافذ الشقة المعنية في الدور الثالث...

عاين عمّار، بنظرة سريعة، المسافة الفاصلة بين مكان تَمَتْرُسِ سريتهم ومدخل البناية الحجري المعتم، لم يكن هناك بدٌّ من الركض في العراء حوالي مائتي متر. فالمسافة بين كشك بيع السجائر ومدخل البناية مكشوفة تماما.

قال عمّار لنظير بعد أنْ بلغا الكشك:

– بأقصى سرعة، كالرصاص، نحو المدخل، لا تتلفّت إلى الخلف، إذا قُتلت سلّم على أهلي وقل لأمي عمّار لم يَقتل أعزلَ من السلاح.

– وأنت أيضا! رجاه نظير.. يا ربّ جنّبني قتل الناس واحمني من القتل يا الله.

كان في بيت نظير غرفة جانبية لم يُغلق بابها بالمفتاح يوما، غرفة فيها فرش وأغطية وماء وخبز وزيت زيتون، يأوي إليها غرباء أصحاب حاجة مؤقتة في خربة التين وعابرو سبيل. كانت أم نجيب، نجيب الأخ الأكبر لنظير، كانت تحرص على بقاء الغرفة نظيفة، وعلى مؤونةٍ فيها تكفي ثلاثة رجال على الأقل. كان أبو نجيب ميسور الحال، فقد ورث عن والده معصرة زيتون، وثلاثة وستين دونما من أشجار الزيتون وخمس بقرات، وغرس بنفسه إثني عشر دونما بالزيتون أيضا، وكان جد نظير منذ صباه على علاقة طيّبة بتجّار الدخّان البلدي في حماه. لم يحدث أن خدعوه أو خدعهم. حين أخبر نظير أهله بأنّ سرية المداهمة التي يخدم إلزاميته فيها متوجهة إلى حماه، اجتمع أفراد العائلة جميعهم – نجيب النجل البكر، ومحمّد علي الابن الأصغر وسميّة وناهدة، اجتمعوا لوداع نظير. توسّلت أم نجيب إلى زوجها التوسّط لدى أحد ما من أجل أن لا يرسلوا نظير إلى هناك، رجته: ادفع لهم ما يريدون، تدبّر أمرهم، فمصيبتنا مصيبة، إن قُتل نظير، لا سمح الله، ويلنا من الهم، روحي فداه، وإن قَتَل ويلنا من الله...أمّا أبو نجيب فكان رغم همّه يفكّر بطريقة أخرى: نظير ليس أغلى على أمّه من غيره، سمّي بالله يا امرأة، على الأقل نظير، أملي بالله العليّ العظيم، لا يسرق ولا يقتل ظلما، ادعي لله، يا أم نجيب أن يحفظه ويحميه ويقيه شرّ الحاجة إلى القتل الحرام. يا بني، يا نظير، أرجوك افعل ما يخلّصك ويرضي الله. وإذا اضطررت لقتل إنسان فقل ربِّ سامحني، فقتل النفس حرّام يا بني، فليس من حقك أن تحكم على أحد بالموت. توكّل على الله يا بني! مرّ على بيت أبي حُسام في الدباغين، بلّغه تحياتي، وقل له إذا أراد المجيء والبقاء عندنا حتى تنتهي الأحداث فأهلا به وبعائلته، عرّج عليه قبل التحاقك بالقطعة، لا تنس، من كل بد. كان أبو نجيب كلّما أخذ عائلته لزيارة مقام علي زين العابدين، يكمل مشواره بعد اكتمال طقس الزيارة، حاملا قطعا مختارة من لحم الذبيحة المسلوق وقِدرا كبيرا من البرغل المطبوخ مع الحمّص إلى بيت أبي حسام، يمضون ساعة طيّبة مع أصحابهم في حماه ثم يركبون شاحنتهم عائدين بالبسمة إلى دار كثيرا ما أمضى فيها أبو حسام من ليالي الصيف: يا رب ابعد بلاك عنا يا الله، وخذ لنا حقنا من الظالمين. في عصر ذلك اليوم أخذ أهل نظير ذبيحة وصعدوا إلى مقام جعفر الطيّار سائلين إياه أن يتشفع لحماية نظير وكل أبناء الأمهات الآخرين وأن يدحر الظالمين، وفيما عاد أبو جابر وابنه البكر وابنتاه، قررّت أم جابر أن تمضي الليل في حضرة المقام، تواصل الدعاء حتى مطلع

الفجر، ومن أجل أن لا تبقى وحيدة أُبقي معها محمد علي، وتولّى هناك متابعة إشعال النار كي لا تغيب رائحة البخوّر.

– هل أنت جاهز؟ سأل عمّارُ نظيراً.
– جاهز.

على بعد أمتار من مدخل البناية، بدا لقائد السريّة المتحفّز، يده على الزناد، ولسانه يكاد يُطلق الرصاص، أن نظير تعثر في جريه، كاد يسقط. قُبيل البوابة هوى نظير. كان عمّار قد سبقه إلى المدخل وكمن هناك وراء الدرفة المغلقة من الباب الحديد، ملتفتا إلى الخلف. كانت شرفة من الإسمنت المسلّح تستند إلى عمودين أسطوانيين رفيعين تستر مدخل البناية. رأى عمار رفيقه منكبّا على وجهه، صرخ بأعلى صوته مناديا عليه بأن ينهض ويتبعه، لم يستجب نظير لأي نداء. نظر عمّار نحو المكان الذي يقف فيه قائد سريته فرأى مقاتلين، صعب عليه تبيّن وجهيهما، مقاتلين يندفعان صوبه فيما فوهة رشاش ثان تمطر بالرصاص نافذةً في الطابق السفلي. وما أن وصل المقاتلان إلى المدخل وانبطحا هناك، حتى دوّى صوت انفجار كبير في الأعلى. كان قائد السريّة قد أمر بدك الشقة العلوية بقذيفة مدفع، فقد رميت من هناك قنبلة يدوية باتجاه مدخل البناية، ارتطمت، لحسن حظ المقاتلين، بالشرفة التي فوق رؤوسهم وانفجرت هناك.

قال إسماعيل لعمّار:
– لدينا أمر! أنت وخالد وأنا، سنقتحم هذه الشقة– مشيرا بيده إلى الجهة اليمنى– من هنا أُطلقت النار على نظير.

كان في كل طابق أربع شقق، اثنتان مقابل اثنتين، وكانت مهمّة السرية تنظيف المبنى من المسلّحين الملتجئين إليه قبل حلول الظلام، للانطلاق إلى الجهة الأخرى من الشارع.

– سأخلع أنا الباب– قال إسماعيل موجّها كلامه لعمّار– وستقوم أنت فورا بإلقاء قنبلة داخل الشقة، ثم نقتحمها خالد وأنا، وتحمي لنا ظهرنا.

بعد رشقة كلاشينكوف ودوي انفجار آخر في غرفة النوم المطلّة على الساحة من جهة المدخل، حل صمتٌ مُصمّ للآذان، صمت صاخب بطنين الانفجار. خلّفت المعركة خمس جثث وجريحا واحدا. جُرح إسماعيل برصاص أحد المسلّحين في كتفه، حين حاول اقتحام غرفة النوم، فآزره خالد، بعد احتمائه بالجدار لصق الباب، بقنبلة يدوية ألقاها في الغرفة التي خرجت منها رشقة الرصاص، ثم صمت كل شيء. لوّح المقاتل خالد من النافذة لقائد سريته مشيرا إلى نجاحهم في تنفيذ المهمّة. اجتاز خالد في طريقه إلى النافذة جثة لفتى لم يَنْمُ شارباه بعد، جثة سقط قريبا من يدها اليمنى مسدس براوننغ، هو سلاح المقاتل الصغير الوحيد. خمّن خالد أن يكون هذا الفتى ابناً لهذه العائلة أجبره الغريب الذي اقتحم شقتهم، الغريب الذي خرّ بين النافذة والسرير، على إطلاق النار، لكن أحدا لم يدقق في وثائق القتلى. وفيما انشغل خالد بإيصال الإشارة إلى قائد سريته وبأفكاره حول أصل الفتى الصريع، لبّى عمّار نداء إسماعيل، كان الأخير في حاجة إلى من يضمّد جرحه. رأى عمّار، حين عَبَر الصالون الذي ينفتح عليه باب الشقة الرئيس، جثة لامرأة عجوز تكوّمت على شيء ما أسود، أدرك عمّار أنها جثة أخرى لفتاة، يبدو أنّها ابنتها. نظر عمّار إلى يده التي نزعت صمام

الرمانة اليدوية، اجتاحت جسده رعشة، عضَّ عمّار يده حتى أدماها، ثم صرخ بصوت غريبٍ فيه من الفزع والغضب والأسى والندم والعجز والرجاء: يا الله!

كان ذلك قبل أن يأتي إلى دار ربيعة ويختبر عهده الذي قطعه أمام نفسه بأسبوع: لن أقتل امرأة حتى لو متُّ ألف مرّة، الموت أهون من قتل النساء– قال عمّار، ونارٌ في أحشائه تكاد تبدد صاحبها إلى دمع وهباب – ما أدراني أنهما لم تكونا رهينتين! لماذا لا يدقّق أحد في هويات القتلى خاصّة من النساء؟ لماذا لا يهتمون بالقتيل إذا لم يكن مطلوبا في إحدى قوائم الأسماء؟ عضّ عمّار يده ثانية وعوى. لم يكن هناك قمر في السماء. سيكون عليه أن يعوي مرّة أخرى أمام جدار أصم لا ثغرة فيه لقمر ولا يشفّ عن شمس. قريبا سنرى عمّار في معركته، أمام عيون مفزوعة إلى الله، كيف يكون.

-11-

حين كانت الجاكارندا لا تزال..

بين أصابعها سيجارة مشتعلة وأمامها فنجان قهوة يتصاعد منه بخار خفيف، وحيدة على طاولتها في زحمة مقصف كلية الآداب، سمراء كاحلة العينين تنظر إلى درويش بين الحين والآخر مبتسمة. يتشجّع درويش ويدنو منها محييا، وإذا بها تستقبله بالترحيب:

– أهلا درويش!
– أهلا بك! أنت تعرفينني؟
– وأنت تعرفني، أنا نجوى!
– من أين؟!
– من اللاذقية.
– أقصد من أين أعرفك؟
– غير معقول! بيننا أصدقاء مشتركون في الجامعة وخارج الجامعة.. أنا نجوى سمراء الأدب العربي، سأزعل فعلا إذا كنت لا تعرفني! أنا نجوى بنت بلدك و..
– أصدقاء مشتركون! ومن هم هؤلاء الأصدقاء المشتركون؟
– أقرب صديق إليك!
– عجيب! تعنين كاسر، غير معقول!
– لا!
– إذن، غريب!
– لا!
– ومن يكون هذا الصديق الحميم الذي لا أعرفه؟!
– طالما الأمر هكذا فلن أقول لك.
– وأين تسكنين يا صديقة صديقي الحميم الذي لا أعرفه؟!

– أسكن في المدينة الجامعية.

– لا أقصد هنا في الشام! أعني بيتكم في اللاذقية، في أيّ حارة؟

– في حي الرمل الشمالي، في شارع غسان حرفوش. إذا كنت من أنصار التبّولة تفضل في العطلة الانتصافية سأكون هناك. مر مع صديقك الحميم عزيز. عرفت الآن من هو! عزيز يعرف البيت ويزورنا باستمرار. اتفقْ معه على موعد. عزيز، بالمناسبة، يحبّك ويحب كاسر. صحيح أنّ هناك مشكلة صغيرة بينه وبين كاسر بسبب سلوى. أنا زعلانة على سلوى، ولكن إذا كان الرجل لا يحبّها فما ذنبه! اعزمْ كاسر وتفضلا في أي يوم من أيام العطلة.. أنتم وعزيز من ضيعة واحدة، ، ضيعتكم عين الغار حلوة. زرتها مع عزيز مرتين ونزلنا إلى كور بينار، ونزلنا من هناك بطريق الوادي إلى خليج جبّور. دَلّني عزيز على بيتكم وبيت كاسر.

– عزيز صديقكِ!! قال درويش ساحبا يديه عن الطاولة كما لو انّه يهمّ بالنهوض.

– صديقي وصديقك، وهو تقريبا خطيبي، ما الذي يجعلك تستغرب؟ هل بينك وبين عزيز مشكلة؟!

– لا، أبدا.. أنا آسف حان موعد محاضرتي.. فرصة طيّبة، إلى اللقاء.

– إلى اللقاء. لا تنس أن تزورنا في العطلة مع عزيز.

لم ينس عزيز أن يدعو درويش وكاسر لزيارة نجوى في بيت أهلها، في ثاني أيام العطلة، لكن لم يكن صعبا على أيّ منهما إيجاد سبب يمنعهما من مرافقته. كان عزيز قد شجّع نجوى على دعوة أصدقائها الآخرين المقرّبين، وكان قد عمل طويلا على جعلها تؤمن بأن درويش وكاسر صديقاها أيضا، شجّعها على دعوة الجميع واعدا إياها بإحضار جميع مستلزمات التبّولة ومساعدتها في فرم البقدونس، بل وشراء بعض الفطائر.. كان يريدهم أن يأتوا، وكان يصلّي لله بأن يأتي درويش وكاسر أيضا. أجل عزيز يصلّي لله قبل كل عملية من عملياته.

كان عزيز يخطط للتحقق من وجود علاقة بين أصدقاء نجوى الشيوعيين وصاحبي الرأسين اليابسين درويش وكاسر. رآها عزيز فرصة رائعة لإثارة مواضيع طالما تدرّب على إدارتها، مواضيع لا بد من أن تجعلهم ينزلقون أثناء نقاشها إلى آراء تُظهرهم على حقيقتهم التي يحاولون إخفاءها. أمّا إذا تبين أن درويش وكاسر على علاقة مع أصدقاء نجوى فستتحقق فرصة رائعة لإثبات ما عجز عن إثباته إلى الآن. لن يحتاج الأمر بعد ذلك إلى الكثير من الجهد ليذهبا معا إلى الجحيم. أمّا إدانة أصدقاء نجوى فباتت جاهزة. وإذا ما تبيّن أنّ درويش وكاسر لا يعرفان هؤلاء الشيوعيين، فستكون فرصة لعقد علاقات فيما بينهم، وقد يلتقون بعد ذلك، وسيكون بالإمكان ضبطهم معا. وحتى لو لم يلتقوا بعد ذلك فتقاربهما من نجوى سيمنحه فرصة طيّبة لتوريثهما إياها بعد أن يكون قد انتهى منها: يجب أن يتواصل درويش وكاسر مع نجوى، يجب أن يأتيا إلى زيارتها– قال عزيز، باحثا عن حيلة تجعلهما لا يترددان بمرافقته إلى بيتها– يجب أن تنعقد بينهم صداقة، فهذه البلهاء لا تعرف شيئا، تظنني أموت فيها وبأصدقائها حبّا، تظنني متحمّسا لأفكارهم المريضة، وأولئك المغفّلون يتسابقون لتنسيبي إلى رابطتهم.

لكن درويش وكاسر لم يأتيا ولم يصادقا نجوى. بل راحا يتهربان من اللقاء بها في الجامعة، ويكتفيان حين يلتقيانها، مصادفة، بسلام عابر. لم تنجح خطة عزيز في الإيقاع بأيٍّ منهما عبر نجوى. أمّا نجوى، وبعد أن اختفى أصدقاؤها وجُرّت إلى التحقيق مرّة وثانية وثالثة وبعد سهرة رأس السنة المشؤومة، فراحت تسعى إلى درويش وكاسر بنفسها، راحت تسعى إليهما بحثا عمّا قد يعيد الاعتبار لكرامتها المهدورة، بحثا عن شيء يرتكز عليه عقلها، هرباً من الغفلة والبلاهة.

حين صحت نجوى إلى نفسها بتأثير من صدمة اكتشاف حقيقة عزيز، لم تفكر بالانتقام، إنّما فكّرت بأنّ الشيء الذي يمكن أن يثبت بأنها ليست غبية إلى هذه الدرجة لا بد أن يكون موجودا في مكان ما. وقد يكون عند درويش وكاسر بالذات ذلك الشي الذي يعيد إلى عقلها الاعتبار. أمّا كرامتها فمن شأنها هي وحدها أن تعرف كيف تنتقم لها، ولكن بعد أن يقول لها أحدٌ ما، في مكان ما بأنّها ليست مغفلة، وأنّ ما حدث لها حدث ليس لأنها غبية إنما لأسباب أخرى تقع خارجها، أسباب في عزيز وفي الذين يقفون خلفه، أسباب يسهل أن تجعل كثيرات وكثيرين في موقعها، فإذا بهم ضحايا طيبتهم، ضحايا أحلامهم وإيمانهم. سعت نجوى إلى درويش، دون غيره، ليقول لها: لا تحزني يا نجوى فأنت لست حمقاء. هذه المرّة لم يبخل درويش على نجوى بلقاء، ولم يقل ما قاله لتطييب خاطرها، إنّما قال ما يؤمن به:

– أنت طيّبة يا نجوى، المشكلة أنّك طيّبة أكثر مما يجب!
– تعني أنني بلهاء.
– لا، أنت لست بلهاء على الإطلاق، أنت فقط تثقين بمن لا يستحقون الثقة.
– يعني غبيّة ولا أعرف كيف أميّز بين الناس.
– بل طيبة رغم مظهرك الذي يوحي أحيانا بالمكر.
– بل قل ساذجة!
– ساذجة، أو هو الحب يعمي فعلا، أو شيء آخر.

في لقاء آخر مفاجئ في محل ألبسة مستعملة أمسك درويش بيد نجوى طويلا ونظر إليها نظرة لم تر مثلها من قبل في عينيه. كانت نجوى تبحث هنا عن حذاء شتوي أوروبي، وكان درويش يبحث عن لا شيء. كانت أعوام طويلة قد مضت لم ير أحدهما فيها الآخر، أعوام أمضاها هو بين جزيرة فاسيليفسكي وشارع نيفسكي وقبو فرع التحقيق، وأمضتها هي في صناعة الشمع. سحب درويش نجوى من يدها إلى الشارع. لم يدعُها إلى أي مكان. هو فقط راح يمشي ممسكا بيدها لا يعرف إلى أين. قال لها: أنا مشتاق! فوجئ درويش بلسانه يقول ما لم يستشر أحدا به، لكن اللسان رأى في عيني صاحبه علامات الرضى. شعر درويش برغبة كبيرة في البقاء مع نجوى أطول فترة ممكنة. اتجها من ساحة أوغاريت صوب البحر. بدا درويش كأنّما يكتشف الآن، لأوّل مرّة، يكتشف أنّ البحر قد ردم، وأنّه لا سبيل للوصول إليه. سحب درويش نجوى باتجاه بوابة الميناء. لم تكن نجوى قد زارت الميناء قبل ذلك.

مرّةً دعاها عزيز بإلحاح لزيارة الميناء لكنها رفضت. قال لها إنّ له صديقا اسمه مالك: هو في الحقيقة ليس صديقي–قال عزيز– إنما صديق أخي تمّام! مالك يعمل في الميناء من زمان، ومن زمان كان يزوّد طلاّب الثانوية بمجلات الجنس. كان يحصل عليها من البواخر الأجنبية مجانا ويبيعها في المدرسة. كان مدرّب الفتوة يسمح له بدخول المدرسة وبيع مجلاته مقابل مجلّة مجانية ينتقيها بنفسه: قال لي مالك مرّة: ابن الكلب، وكان يعني مدرّب الفتوة، ينتقي أحسن واحدة كلّ مرة، ولا يتركني أكثر من عشر دقائق.. يدخل دورة المياه فجأة ويزعق في وجهي: من أين دخلت! من سمح لك بدخول المدرسة؟ يا الله انقلع.

رفضت نجوى زيارة مالك ولم تفد إغراءات عزيز لها بالفرجة على أشياء كثيرة هناك في إقناعها. أمّا الآن فباتت تعرف من أين جاءت تلك المجلّة. فقد سبق لعزيز أن حشر واحدة من المجلات في حقيبة نجوى، فيما كانت تتحدث إلى زميلة لها على طاولة مجاورة في مقصف كلية الآداب. كان قد غلّف المجلّة بالصفحة الأولى من عدد الأمس من جريدة البعث. رأته نجوى بهامش عينها يضع شيئا ما في حقيبتها التي تشبه الكيس. لكنها ما أن عادت ومدت يدها محاولة معرفة ما خبأه من أجلها، حتى أمسك بيدها متوسلا وَعْداً: عديني بأنّك لن تفتحي حقيبتك إلا وقت تكونين وحدك في البيت. وعدته نجوى مبتسمةً، وراحت تضغط يده بمحبة وامتنان، فيما عيناها تتشوفان لرؤية الهدية التي لا بد أن يكون قد انتقاها بعناية من أجلها. لكنه ما أن خرج من باب المقصف، مشيرا بحركة من يده صوب مكتب صديقه بسّام،- بسّام مصدر معلوماته عن أسرار فرع حزب البعث، الأسرار التي يزوّد بها عزيز أصدقاء نجوى في رابطة العمل الشيوعي لكسب ثقتهم-، ما أن خرج حتى فتحت نجوى حقيبتها وراحت تستطلع الهدية التي تنتظرها.

كان بسّام أمينَ سرّ مكتب أمين فرع الحزب في الجامعة، وكان يفتش درج رئيسه يوميا بعد انصراف الأخير في نهاية الدوام، وكان يسجّل أسماء زائريه، فلم يكن يسمح لأحد بالدخول إلى مكتب سيده قبل أن يعرف اسمه، وكان يسترق السمع إلى الأحاديث التي تدور في الداخل مع الضيوف، ويقرأ جميع المراسلات التي يستطيع الوقوع عليها، شخصيةً كانت أم رسمية، وينسخ المهمّ منها. كانت هذه الأشياء من مهام أمين السر. كان بسّام يُسرّ لعزيز ببعض المعلومات، مقابل معلومات عن أسرار مكاتب اتحاد الطلاّب يسرّ له بها عزيز. كان كل منهما يخمّن أنّ على الآخر تزويد جهة ما بمعلومات ما. لذلك لم يَحْتج الاتفاق بينهما إلى كلمات أو أوراق أو تواقيع. انعقدت بينهما علاقة أمتن من أن تنفصم عراها، علاقة أقوى من علاقة الصداقة وأشدّ من علاقة العداء. كانا صديقين لدودين. فكل منهما كان يحذر الآخر ويخشاه ويتودد إليه في آن. بل، ما كان أي منهما يطيق قضاء يومه دون رؤية الآخر، أو ما كان يستطيع. لكن علاقة عزيز ببسام لم تكن تخلو من حالات المد والجزر. وغالبا ما كانت المشاكل تبرز بسببٍ من خرق القواعد المتفق عليها ضمنيا دون إعلان. فمرّة وبينما كان بسّام يتنصت من وراء الباب على حديث رئيس مكتب الطلبة في الفرع مع أمينه سمع الأول يعاتب الثاني على أشياء ما كان يجب أن يعلم بها. كانت أشياء خاصة بتقويم أمين الفرع لرئيس مكتب الطلبة لديه. بعد انصراف مسؤول الطلبة استدعى الأمين أمين سرّه مستفسرا عن معنى تسرب المعلومات. قال بسّام لرفيقه الأعلى مبتسما، والغيظ من عزيز يخنقه فهو لم يخبر أحداً سواه بالأمر: غير معقول يا رفيق أن تظنّ بي مثل هذا الظن، فأنا أمين سرّك! ولماذا لا تعتقد، يا رفيق، بأنّهم هم الذين أخبروه ليوقِعوا بينك وبينه. ومع أنّ هذه الفكرة الأخيرة ابتدعها بسّام للدفاع عن نفسه أمام حنق رفيقه الأعلى، إلاّ أنها سرعان ما بدت له مقنعة. فلماذا لا تكون الأمور هكذا: إذا كنت أنا مجرد أمين سر صغير ومطلوب مني تقديم تقارير عن عمل رئيسي فلماذا لا يكون مطلوبا منهم جميعا أن يقدموا تقارير ضد بعضهم بعضا، وإذا اختلفوا كلّهم فذلك أفضل، فلن يتردد كل واحد بفضح ما يعرفه عن الآخر.. ومع ذلك فقد يكون عزيز هو من نقل الخبر لرئيس مكتب الطلبة الفرعي مباشرة، أو عن طريق الرفيق رئيس اتحاد الطلبة.. أعرف كيف سأتأكد، وحتى أتأكد لن تحصل مني يا عزيز النذل على معلومة واحدة. أمّا أمين الفرع فلم تكن فكرة أمين سرّه غريبة عنه، فهو يعلم أنّه لا يستطيع أن يثق بأحد من رفاقه هنا، لا بأعضاء قيادة الفرع ولا بأمناء أسرارهم.. ولكن معرفته لم تكن تزيده إلا شعورا بالضعف. فهو لا يستطيع تغيير شيء هنا حتّى لو أراد. بل لا يستطيع تغيير حتى أمين سرّه. هو طبعا لم يفكّر بأن رفاقه أيضا لا يثقون به، وبأنه هو أمين الفرع وعضو اللجنة المركزية في الحزب، بالنسبة لهم، قناة تسريب معلومات.

لم يكن فتور العلاقة بين عزيز وبسّام يعود فقط إلى وضع الأول للثاني في مواقف محرجة. فقد كانت اللعبة تتقلب بين الحين والآخر. فإذا ببسام يجد نفسه تحت عدسات عزيز الفاحصة وكلماته الملمّحة المتهمة. فذات مرّة اتصل عزيز ببسام ملحّاً على رؤيته اليوم بالذات في استراحة الغداء. اتفقا على اللقاء في مطعم الجامعة. وهناك:

– من أين يعرف أمين الفرع بأن عائدة تأتي إلى مكتب رئيس الاتحاد بعد الدوام، وأنه يقفل الباب بالمفتاح!؟
– ربّما هي أخبرته، أنت تعرف أن الرفيقة عائدة كانت صاحبته من قبل!
– وهي أخبرته عن المناديل! هي نفسها لا تعرف عنها أي شيء. أنا الذي شممت رائحتها وأخرجتها من السلة وخبأتها في كيس النايلون، وقلت له ثاني يوم: كانت رائحة المحارم تفوح في المكتب، انتبه في المرّة القادمة يا زميل! قبل أن ينظّف الآذن المكتب ويراها...من، يا خرا، يعرف غيرنا هو وأنت وأنا بالقصة؟!
– أنت متأكد نحن الثلاثة فقط نعرف!
– نعم متأكد!
– لا سيدي، تأكّد أكثر!
– فهمت قصدك، يا طيزي، يعني هم حكوا لأمين الفرع عن المناديل.
– من تقصد!؟ قالها بسّام متهكّما ومهددا في الوقت نفسه، وقد شعر بأنّ الجولة انتهت لمصلحته.
– كُلْ خرا واسكتْ، أحسن لك، كأنّه لا يعرف من أقصد!

كان عزيز يشعر بتفوق بسّام عليه في المكر والدهاء. وفي الوقت الذي كان يمكن فيه لبسّام أن يستغني عن عزيز، لم يكن عزيز يتصور كيف سيكون حاله لو انقطعت العلاقة بينهما. كان عزيز يغضب من بسّام، أحيانا، ويتمنى لو يختفي عن وجه الأرض، أحيانا أخرى، لكّن يوما لم يكن يمضي دون أن يتحدّث إليه بالهاتف أو يراه.

مرّة، بعد عطلة عيد الأضحى، قال عزيز لبسام:
– اكتشفتُ شيئا أثناء العطلة، خمّن ما هو!
– أنّك اشتقت إلي.
– نعم، اكتشفت أنني أحبك يا كلب.

وبالفعل كان عزيز يشعر أحيانا بحب حقيقي تجاه بسّام، حتى إنّه راح يفكر بطريقة تجمع هذا البسّام الكلب بأخته شاديا. كان عزيز يستخدم كلمة كلب مرّات للتعبير عن الحب والشوق ومرّات أخرى للشتيمة. هكذا نحن مع الكلاب المسكينة!

فكّر عزيز بدعوة شاديا إلى دمشق. كانت شاديا في الصف الحادي عشر ولم تكن قد رأت دمشق بعد. وفي دمشق سيوصي أخته بأن تهتم بصديقه الحميم، الطيب القلب، الرقيق المشاعر، الرفيق الذي لا بد أن تعلو مراتبه، فهو نشيط والمستقبل أمامه، وهو لطيف ويعرف كيف يسعد من معه ومن حوله، وهو شهم. كثيرون كانوا يصفون عزيز بالشهامة أيضا.. سيقول عزيز لشاديا أشياء كثيرة حسنة عن بسّام، أشياء تجذبها نحوه، وسيطلب من بسّام أن يعتني بشاديا أثناء وجودها هنا، فهي تزور الشام أول مرّة، وهو مشغول كثيرا بأشياء مستعجلة طلبها منه الزميل رئيس الاتحاد، وها هي

شاديا تأتي، للأسف، في زحمة الشغل، وليت صديقه الحميم يرافقها خلال هذين اليومين. فهي فتاة رائعة تحب الفن وستفرح لزيارة المتحف وقصر العظم وأي مكان في الشام القديمة، وهي مخلصة جدا ولن تنسى له لطفه.. وأشياء أخرى كثيرة سيقولها عزيز لبسّام كي ينتظر الأخير شاديا بشوق، وبعدئذ يمكن ترتيب شيء ما لكي تقع في حبّه ويقع في حبّها. لكن شاديا لم تتحمس لفكرة السفر، خاصّة بعد أن شعرت بتلميحات أخيها تجاه صديقه بسّام. فقد كانت شاديا عاشقة ولم تكن الشام أو أية مدينة في العالم تغريها بالابتعاد عن حبيبها يومين.

فشل مشروع عزيز، فصب جام غضبه على أخته الحمارة التي لا تعرف مصلحتها. لم تفهم شاديا عن أي مصلحة يتحدّث ولا هو فهم سببا لرفضها.

خرج عزيز لزيارة صديقه بسّام تاركا نجوى، في مقصف كلية الآداب، في حالة شوق لمعرفة سرّ تلك الهدية التي أدركت من لمسة سريعة لها، أثناء إخراجها من الحقيبة، أنّها كتاب، أو بالأحرى كتيّب. ترددت نجوى في فض الجريدة، ثم أحجمت عن فعل ذلك هنا. فماذا لو كان فيها نشرة سرّية أو كتاب ممنوع من تلك التي اعتاد عزيز تزويد أصدقائها بها. أخذت نجوى حقيبتها واتجهت إلى دورة المياه.

-12-

على لسان البحر

ترددت نجوى بين قبول دعوة درويش لدخول الميناء وبين الاعتذار. قفزت إلى ذاكرتها أحاديث عزيز عن مالك الذي لم تره ولم يصف عزيز لها شكْلَه، لكنّها تخيلته بسحنة حمراء مليئة بحبوب يخرج منها القيح، تخيلته وتخيلت عزيز معه...أغمضت عينيها قليلا، ثم نظرت إلى عيني درويش وقررت النزول معه إلى لسان البحر. أمّا درويش فلم تكن هي المرّة الأولى التي يلجأ فيها إلى ذلك اللسان الطويل الممتد في البحر، اللسان الذي يحجز البواخر حين يشاء ويحررها حين يشاء.

عالم الميناء عالم رجال وحديد. كل شيء هنا من حديد، حتى نظرات الرجال، وحتى الماء الذي ينظر بعينين مفزوعتين إلى الحاويات الثقيلة تتأرجح فوق وجهه. كأنّ الماء هنا من طبيعة أخرى! أجلْ، لماء ميناء الصيد روح أخرى غير روح ماء ميناء الشحن، ولماء ميناء السفر روح غير هذه وتلك.. شعرتْ نجوى بأن الحديد ينظر إليها من كل صوب، ينظر مرتابا متفحصا فهو لم يعتد على رؤية نساء في هكذا يوم. فثمّة باخرتا ركّاب فقط تقصدان هذا الميناء. وفي هذين اليومين، يوميّ قدومهما فقط يرى الحديد النساء. وأمّا الآن فينصرف الحديد إلى نفسه. ثمّة رائحة أخرى أقوى تأخذه عن هذه الزائرة التي تسير بخطوات مضطربة.

فيما يشبه الشارع بين صفوف الحاويات المعدنية الكبيرة قصّت نجوى على درويش آخر فصول لعبة عزيز معها، آخر فصول مسرح القرف، مسرح المرحاض، كما راحت تسميه.

– أليس هناك مسرح الحجرة! فلماذا لا يكون هناك مسرح المرحاض؟ حكت له عن تلك الأمسية التي وجدت نفسها فيها هديّة يفض عنها عزيز أغلفتها الجميلة ليقدّمها لصديقه بسّام، وعن زواجها التالي الذي لم يدم أكثر من شهر...

كان عزيز قد اتفق مع بسّام على أن يأتي الأخير إلى غرفة العمليات، كما كانا يسميانها، الغرفة التي استأجراها معا للقاءات الخاصة. كان على بسّام أن يأتي في ساعة محددة ليلةَ رأس السنة ويفتح الباب بمفتاحه الخاص، حين تكون نجوى في وضعية لا تسمح لها بالرفض.

– كانت تلك المرّة الوحيدة التي أُمضي فيها سهرة رأس السنة خارج بيت أهلي. وعدني السافل بسهرة رومانسية رائعة نكون فيها وحدنا. أظهر لي من الحب في الأسبوع الأخير قبل رأس السنة ما لم يظهره من قبل، وراح يعتذر لي عن انشغاله عني بالاتحاد وبالحزب، وعن امتلاء أيامه بأشياء كثيرة تافهة.. قال إن الأيام تمضي بسرعة فظيعة، وإنه لا يصدق أنّ عاما كاملا قد مضى دون أن يشبع عينيه من رؤيتي ويديه من ضمّ يدي.. لم يقل شيئا عن حيوانيته! قال إنه جائع للنظر إلى عيني، قال إنّه سيجلس ويتطلع في عينيّ ألف ساعة، وإنّه سيخزّن صورتي وكلماتي ورمشاتي وارتعاشات أصابعي في دماغه.. قال أشياء كثيرة أسكرتني وجعلتني أعتذر عن السفر لقضاء السهرة مع أهلي..– صمتت قليلا ثم تابعت– ولكنني لا أريد أن أكذب عليك، فأنا أيضا كنت أريد أن نلتقي وستعرف لماذا. حين احتجَّ أهلي على بقائي في دمشق. قلت لهم إن الوقت غدرني وإن المادة الأولى في الامتحان صعبة وأنا مسبوقة ولا أستطيع أن أسهر في أي مكان، ولا أستطيع أن أسافر فالامتحان ثاني يوم بعد رأس السنة. دعوا لي بالتوفيق وأوصوني بصون نفسي. قال إنّه نظّف الغرفة ورتّبها وزيّنها وإنّه حصل على ويسكي ونبيذ رائعين من حصة رئيس الاتحاد. قال إن الجميع مسافرون، وإن أحدا لن يخطر بباله أننا هنا. فأخيرا سنكون وحدنا، وسنقضي الليل معا وحدنا، سأستلقي واضعا رأسي في حضنك وأغفو بينما تفلّين شعري.. كم أحلم بأن أغفو بين يديك.. قال لي وصدّقتُ ورحتُ أتعجل الوقت لقضاء الساعات الرائعة الموعودة. رحت أسترجع المواقف التي قسوت فيها عليه وألوم نفسي على ظلمي له.. فهو شاب وطبيعي أن ينشغل عني بأشياء كثيرة، وطبيعي أن يبدو لي متقلّب المزاج.. وحتى تلك المرّة التي حشر لي فيها المجلة بين دفاتري، رحت أراجعها فأجد أنني لم أكن على حق. فهو كما قال أرادها هدية لي، هديةً دَفَعَهُ الحبُّ لتقديمها. فمن أين لي أن أتعرف على هذه الأشياء إن لم يكن عن طريقه هو حبيبي وزوجي في المستقبل، وما العيب في أن أتفرج على ما يتفرج عليه الجميع ويتمنّونه في السر.. وسرعان ما وجدت له العذر: ألم أحتفظ أنا نفسي بتلك المجلة! ألم أعد إليها مرّات ومرّات في خلواتي! فلماذا، إذن، أصرخ في وجهه وأتهمه بالقذارة والعهر والانحطاط!؟ تغير عزيز كثيرا بعد تلك الحادثة. لم يقاطعني ولكنه راح يتعامل معي برسمية وقسوة. راحت أشياء صغيرة تغضبه. قلت له: من الأفضل لنا أن ننفصل، من الأفضل أن لا يرى أحدنا الآخر! فوافقني، وقال إنّه شخصيا لن يأتي لرؤيتي بعد اليوم، وانصرف دون أن يلتفت إلى الخلف. في اليوم التالي لم يسأل عني. وجدت نفسي أجلس طوال الوقت في المقصف وأنظر باتجاه الباب متطلعة إلى دخوله. لكن أسبوعا مضى لم أره فيه! وجدت نفسي أصعد الدرج إلى مكاتب قيادة الاتحاد. وهناك وقفت أمام الباب. وقف لمّا رآني وتحرّك نحوي. دعاني إلى الدخول فلم أدخل. شعرت بالندم على مجيئي. قال لي: انتظريني في المقصف سآتي بعد قليل. هربت إلى غرفتي في المدينة الجامعية. شعرت بأنني انهزمت وبأنه أقوى مني، ورحت أعلل انهزامي بالحب.. قلت في نفسي: أنا أحبه بالتأكيد، أنا واثقة من ذلك، فلماذا أكذب على نفسي! ومن حق الحب عليّ أن أتنازل عن كبريائي الفارغة. فليس هناك كرامة وحب معا.. في اليوم التالي لم أذهب إلى المحاضرة

الأولى، إنّما جلست منذ الساعة الثامنة في المقصف. هذه المرة جاء. جلس قبالتي وأمسك بيدي. لم أسحبها. ضغطها قائلا: أنا أعرف أنّك تنتظرينني هنا كل يوم. الحب بحاجة إلى امتحان وأنت نجحت فيه. وأنا أيضا سأنجح في امتحان الحب. ستتأكدين بنفسك من ظلمك لي. قلت له إنني شقية ومشوشة ولا أعرف إلى أين أذهب بنفسي.. ضغط يدي برفق أكبر، فقلت: إنني أشعر الآن بحبه لي وبأنه لو لم يكن يحبني لما جاء. طلبت منه أن يقول لي أحبّك وهو ينظر في عيني. قال أحبّك دون أن ترمش عيناه. قالها وهو يبتسم، ثم قال: ليتني كنت أستطيع أن أضمّك هنا وأقبّلك أمام الجميع وليقتلوني بعد ذلك. فبكيت. وضعت رأسي على يديه وأجهشت بالبكاء. لم أر في عينيه أيّة ملامح للكذب. عيناه كانتا صادقتين. في ذلك اليوم سحبني من يدي فانقدت له. لم أقاومه ولم أسأله إلى أين يذهب بي. سحبني إلى تلك الغرفة، وما أن دخلنا حتى شدّني إليه وضمّني بقوة. راح يقبّل عنقي. لم أقاوم، بل رحت أنتظر فاصلا بين قبلة وأخرى حتى أرجوه الجلوس. فأنا متعبة جدا. شعرت برغبة شديدة في الاستلقاء والنوم. شعرت بأن جسدي كله ينتمي إلى عالم آخر، وبأنّ آلامه تنتمي أيضا إلى ذلك العالم. نعم كنت أتألم ولكنه لم يكن ألما قريبا، لم يكن ألما يخص روحي. إنّه ألمٌ من طبيعة ذلك التعب الذي تشعر به حين تسترخي بعد توتر طويل، ذلك الشعور بالانهداد، تلك الرغبة بفصل الهاتف وإغلاق النوافذ وإسدال الستائر والنوم، تلك الرغبة بالانفصال عن العالم، بالاكتهاف.. انسللت من بين يديه واستلقيت على السرير الوحيد الموجود في الغرفة. جلس قربي وراح يداعب عنقي بيديه. رجوته أن يتركني أغفو ولو خمس دقائق. قال لي: حسنا! نامي، نامي يا حبيبتي. أغمضت عيني، تاركة لجسدي أن ينفصل عنّي، كأنّ شيئا مما راح يفعله بي لا يعنيني. وهو بالفعل لم يكن يعنيني. لم أقاومه ولم أستسلم له. إنّما كنتُ في مكان آخر، في عالم آخر. استلقى قربي وراح يقلب جسدي الذي عرف كيف يطاوعه، تاركا لي أن أغفو. أنا لم أنم طبعا، ولم أستيقظ إلا عندما حاول الولوج. عندئذ دفعته، راجية أن لا يفعل. رجاني أن أتركه يحبني كما يكون الحب، وكلامه اللاهب الحلو ينساح على عنقي وصدري. رجاني أن أسمح لنفسي بتذوّق طعم الحب الحقيقي. حالفه جسدي. انزلق من بين يدي إليه. وإذا بشعور كاوٍ يعيد جسدي إليّ، وإذا بي أحدّق في السقف، وإذا به ينفضّ عني. انتظرت فيما أنا ساهمة في السقف أن يُقبّلني. كانت تلك القبلة ستعني لي شيئا كثيرا. كانت ستعيد الدموع من شرفتي عيني إلى جرار الدمع. لكنه لم يفعل. انصرف عنّي إلى الحمّام، تاركا لدمعي ساخناً أن يسيل. وعندما عاد ورآني أبكي وكان قد اغتسل صافعا وجهه الساخن بحفنات من الماء البارد، ظنني أبكي عذريتي. انتظرت أن أسمع صوت غنائه وهو يغتسل. قلت في نفسي غناؤه أفضل من صمته. فالذين يغتصبون النساء يحملقون في سحناتهم الحمراء في المرآة بعد أن ينتهوا من فعلتهم، أمّا الذين يغنّون فيشعرون بالسعادة. والسعادة ليست شيئا حيوانيا.. هم يحبّون على طريقتهم.. لكن القبلة تعني أكثر من ذلك. القبلة تعني مشاركة وامتنانا. القبلة هنا، وفي هذه اللحظة بالذات، كأنّما تتم في منطقة الحب الحقيقي التي تتشكل من الجسد والروح، من لذة اندماجهما معا. لكنه لم يقبّلني، بل انصرف عني إلى الماء. وهناك لم يُغنّ، بل ظل يصارع وجهه بالماء. لم يكن يبدو عليه أنه يتذكّر وجودي. شعرت بأنّه سينصرف ويتركني على حالي. أغمضت عيني شاعرة بأسى شديد. قلت في نفسي: أنا الحمقاء! أنا التي خدعت نفسي وتظاهرت بأنني أعيش لحظات حب حقيقي. أنا التي تركت له أن يفعل بي ما يشاء. رحت أستعيد أحاديث النساء عن طبيعة الرجال: الرجل ما أن يحصل على المرأة حتى لا تعود تعني له شيئا. يلاحقها، يتذلل لها، يعبّر عن ألف صورة للحب ولكن ما أن تخضع له حتى ينفضّ عنها. ألف مرّة سمعت بذلك، وألف مرّة عاهدت نفسي على أن لا أسمح لرجل بامتلاكي كي لا يهملني. عاهدت نفسي على أن لا أسمح لأحد باحتقاري، وها أنا على فراشه مهملة كالخرقة التي مسح بها قضيبه. لا تسلّمي نفسك له قبل الزواج، دعيه ينتظر هذه اللحظة ويحلم بها. سيحبّك أكثر كلما تمنّعت أكثر.. أمّا أنا فأغمضت عيني وتواطأت معه على حرّاس جسدي.. أدخلتهم في ضباب من أوهام الحب، فغافلهم وغافلني.. توقّفَ صوت اندفاع الماء من الصنبور، وتناهى صوت خطواته هو،

يخنقني اسمه، خطواته تدنو من السرير. لم أفتح عيني. شعرت بيديه باردتين تمسحان الدمع عن وجهي، وبشفتيه تعيدان شفتي المختلجتين إلى بيت الأمان. استسلمت لقبلته. أردتها أطول وأعمق. راحت هذه القبلة تعيد إليّ عذريتي وإيماني بالحب معا. شددته نحوي ورحت أعالج شفتيه ولسانه. أوقدت جسده من جديد. أتاني ثانية. لم يعد يعني لي ذلك الألم شيئا. صرت كلّي قبلة، ولست أدري ما الذي صاره هو. لكنه لم يسرع إلى المغسلة هذه المرّة. هذه المرّة أنا التي قبّلته ونهضت. لم أشعر بالانكسار والهزيمة، إنما شعرت أنا نفسي بالامتلاك، شعرت بنشوة النصر وقررت أن لا أتنازل عن هذا الشعور أبدا. أنا مَنْ سيدير اللعبة الآن، ولن يكون بمقدوره التخلي عني بعد اليوم. فما تقوله النساء هراء. هو الذي سيريدني وهو الذي سيلاحقني.. فمعي، معي وحدي سيكتشف لذة الحب، وحتى لو بحث عنها في ألف امرأة فسيعود إليّ، وهنا سيغوص أكثر في طقوسٍ ستجعله أجمل حتى لو أراد أن يكون أقبح، ستجعله أطيب حتى لو أراد أن يكون أكثر شرّاً.. قبّلته وسألته عن مكان القهوة. قرّرت أن أدير أنا اللعبة. قرّرت أن أطوّع جسدي ليخدم لعبتي أنا. على جسدي أن يقوّي حُبَّه لي، لا أن ينفّره مني. على كل عناق أن يفتح حجرة جديدة من حجرات قلبه المغلقة. سأجعله يدمن عناقي، سأجعله يكتشف حبّي في هذه اللحظات. سيراني هنا كما لا يمكن أن يراني في أي مكان آخر، وفي أية لحظة أخرى. وسيراني كل مرّة جديدة، ويرى أشياء أحلى فأحلى، ويعاني شعورا أعمق فأعمق، وسيطلب المزيد كل مرّة... وهكذا رحت أنسج أيامي الجديدة مع عزيز. أتمنّع عنه حين أكون راغبة جدا في وصاله، وألتقيه حين يكون هو راغبا جدا، فأتحكّم بتفاصيل اللقاء. أتهرب من لقائه حين أكون مشتاقة جدا لرؤيته وأستجيب لندائه حين أكون متأكّدة من شوقه الشديد لرؤيتي. وفي كل لقاء أترك له أن يكتشف شيئا جديدا من نفسي ومن جسدي.. وهكذا رأيته يفقد صبره على بُعدي مع كل يوم من أيام علاقتنا. فيتوسل قبلة هنا ولمسة هناك، في كل زاوية يصادفني فيها. يرجوني أن أزوره في المكتب في نهاية الدوام. يقول لي: حرام عليك، أنا أشتعل من جوا!... وجاء يوم رأس السنة. كنت أتمنّى أن يطلب مني قضاء سهرة رأس السنة معا. ولو أنّه لم يطلب لكنت لمّحت إلى ذلك بنفسي. الناس يقضون عيد رأس السنة وسط عائلاتهم. وأنا أردته أن يشعر أنه معي في عائلته، أردت نفسي عائلة له. سيكون لليلة رأس السنة معان أخرى. فإذا أمضينا ليلة رأس السنة معا فسنكون بمثابة زوجين عاشقين. كل شيء حينها سيكتسب معنى جديدا. كنت متأكّدة من الشعور الذي ينتظرنا. كنت قادرة على لمسه. كنت أعرف جيّدا كيف سيكون. وكنت أريد له أن يتعرّف عليه، أن يكتشف نفسه ويكتشفني مع هذا الشعور الذي لم يعرف مثله من قبل. كنت متأكدة من أنّه لم يعرف شعورا مثله من قبل، ولا خطر بباله كيف يكون، ولذلك رحت أستعد لتلك الليلة وأدرس تفاصيل الدقائق التي سنعيشها. كنت واثقة من أنني سأدير تلك الليلة دون أن يشعر بأنّه يفعل الأشياء التي أريدها أنا بالذات منه. بل سيشعر بأنّه هو نفسه الذي يريد، وأنّ ما يقوم به الآن كان يسعى إليه من زمان. قال لي: سنمضي سهرة رائعة لم تعيشي مثلها في حياتك، سهرة أفكّر بها منذ أكثر من شهر. أرجو أن لا ترفضي لأنها، حقيقةً، ستكون رائعة. فكل شيء جاهز.. الأكل جاهز والمشروب جاهز والموسيقى جاهزة، وسأفاجئك بشيء رائع، ولكن خذي بالحسبان بأننا سنبقى يومين مع بعضنا.. أعرف ستقولين لي: عندي امتحان! أرجوكِ لا ترفضي ولا تفوّتي هذه الفرصة الرائعة. أعدك بأن أضمن لك النجاح، أعرف موظّفة في الامتحانات ستغيّر لك العلامة إذا رسبتِ، قدّمت لي هذه الخدمة أكثر من مرّة، لا تستطيع أن تقول لا فأنا أعرف كيف أجعلها توافق، انسي أمر الامتحان.. لم يكن عزيز يعلم أنني أنتظر هذه الفرصة أيضا، ولم يكن يعلم بأنني، من قبيل الاحتياط، مهدّت لأهلي الأمر أثناء زيارتي السابقة لهم الشهر الماضي. قلت لهم إنني قد لا أتمكن من المجيء وقضاء سهرة رأس السنة معهم. لم يكن عزيز يدري بأنني جهّزت روحي وجسدي لهذا اللقاء الذي سيكتشف معه نعيمَ أن نكون زوجين ونمضي العمر معا. درست تفاصيل اللقاء. وضعت ترتيبات مختلفة للسهرة التي سنمضيها والليل الذي سيعقبها والصباح. لم أكن قد رقصت له من قبل. قلت في نفسي هو لا يخطر بباله كم أنّ

رقصي مثير. لم أكن قد توجته ملكا ورفعت من شأن رجولته من قبل. كنت واثقة من أنّه هو نفسه لا يعرف كيف يكون حين أكون بين يديه أنثى حتى النهاية. كنت لا أزال أجيد أن أكون أنثى يشعر معها الرجل بأنّه مارد يستطيع اقتلاع الجبال. وماذا يريد الرجل من المرأة أكثر من أن تجعل منه أقوى الرجال!؟ كنت بلهاء! كنت عمياء! رحت أرسم كل شيء على ورقة جعلها غبش عيني تبدو لي بيضاء. نعم، جعلتْ أوهامي من عزيز ورقةً بيضاء، وظننت أنّ الذي أبنيه في مخيلتي هو الذي سيتحقق في الواقع. لم يترك لي غبش ثقتي الزائدة بنفسي، وغبش الحب أن أرى الرسم الذي يلطخ الورقة بقذارته.

في الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم، كان عزيز بانتظاري تعلو وجهه ابتسامة. سألني في الطريق إن كنت لا أمانع أن نتفرج معا في سهرة اليوم على فيلم خلاعي: لديّ فيلم رائع، وعليّ أن أعيده بعد غد. فما رأيك بأن نستغل الفرصة. هي مرّة في العمر.. سيعجبك وسنقضي ليلة مجنونة! رفضّت الفكرة مباشرة وتوقّفت عن المسير. كانت لا تزال تفصلنا بضع خطوات في الزاروب عن باب الدار. قال لي مرتبكا: لا تنزعجي أرجوك.. أنا فقط قلت لنفسي: اليوم عيد وربما كنتِ تريدين ذلك وتخجلين من طلبه. قلت له: عندما سأريد سأطلب منك. دعنا نكن معا. لا أريد أن تشاركنا سهرتنا نساء عاهرات. قال لي: أنا آسف! معك حق. لن أعرض عليك هذا الموضوع بعد اليوم. لم يكن واردا في ترتيباتي أن يعرض عليّ مشاهدة فيلم خلاعي معه. لو خطر ببالي الأمر قبلا ربما لقبلت. كنت سأرتّب الأمر وأدرس الطريقة التي سأتصرّف وفقها. كنت سأرتّب الأمر لأجعله يشعر بنفسه معي أنا بالذات أقوى من أولئك الرجال الذين يتفرّج عليهم، أولئك الرجال الذين لا يتعبون. لكنني لم أكن أريد لأي شيء مفاجئ أن يخرّب عيدي. لذلك رفضت: لا تهتم– قلت له– ولا تنزعج، أنت فقط فاجأتني. فأنا أخشى أن يكون الفيلم مثل المجلة.. مجموعة رجال ونساء. غير معقول! فأنا لا أستطيع تصور ذلك. لو كان الأمر بين واحد وواحدة فقط ربما كان معقولا. ردّت كلماتي له الروح. وسرعان ما عرض عليّ: نتفرج على اللقطات التي فيها واحد و واحدة فقط.. مع أنّ اللقطات الجماعية تثير أكثر! وماذا يضرّنا أن نتعلم منهم أشياء لا نعرفها. نتفرّج مرّة واحدة، وبعدها لن نحتاج إلى ذلك. كم من الناس لا يعرفون كيف يمارسون الجنس. هم بحاجة إلى من يعلّمهم. وأنا لا أرى عيبا في ذلك. ما رأيك؟ تركت لنفسي فرصة المناورة. قلت له: اتركنا من هذا الموضوع الآن. فإذا شعرت بأنني أستطيع رؤية الفيلم سأقول لك.. أمامنا يومان سنعيش فيهما كعروسين في العسل. قاطعني: كثيرون يتفرّجون على أفلام في شهر العسل.. أنا أعرف ذلك.. الجميع يقولون بأن ذلك مفيد.. والرجال لا يخرجون من الفيلم حتى تخافي: ليست المسألة في الخوف– قلت له– ولكنني لا أفهمك، فهل يعقل أنّك لا تمانع أن أرى رجال غرباء، وأن أشتهيهم!!: ولكنهم رجال في فيلم وليسوا رجالا حقيقيين! أنت ستشتهينهم هم وستنامين معي أنا وليس معهم، وأنا أيضا سأشتهي نساء أخريات ولكنني سأنام معك أنت وليس معهن.. وهنا فائدة أخرى في الإثارة غير العادية.. تلمّست لدى عزيز رغبة كبيرة في أن نشاهد الفيلم معا. راح يستحضر كل الحجج العقلية الممكنة لإقناعي بضرورة أن أشاهد فيلما ولو مرّة واحدة في حياتي وبأن ذلك سيكون أصح لو شاهدناه معا واليوم بالذات، فإذا ما شعرنا لاحقا بأثر نفسي سلبي سنعلل الأمر أمام أنفسنا بأنّها ليلة عيد وفي العيد يمكن فعل ما لا يُحتمل فعله في الأيام الأخرى.. وكلام آخر كثير أقنعني بأن نتفرج على الفيلم ولكن ليس من أوّل السهرة. وافق عزيز فرحا. قال لي: حسنا نتفرج بعد منتصف الليل. لم أكن أدري، أنا الحمقاء، أنّه كان يخطط لسكري قبل ذلك وللأشياء الأخرى التي حصلت.. ومع ذلك اعترضت: لا أريد أن يبدأ العام الجديد مع فيلم خلاعي. الأفضل أن نتفرج وننتهي منه قبل الثانية عشرة. وافق عزيز. ظننت لسان حاله يقول: ما أن تبدأي الفرجة حتى لا تعودين قادرة على الابتعاد عن الشاشة.. لم أكن أدري أنّه يخطط لما بعد الفيلم. وبأن الشيء الذي يخطط له ليس في حسباني على الإطلاق. ولكنني لمّا كنت قد

وضعت نفسي أمام تحد مع عزيز منذ اليوم الأول الذي تركت له فيه أن يفض بكارتي، وجدت نفسي أمام تحد جديد، تحدٍ أقف فيه قبالة أولئك النسوة العاهرات الماهرات، تحدٍ ومنافسة لا بد أن أفوز فيها. لم يخطر ببالي، أنا البلهاء، أنّ التحدي من طبيعة أخرى، أن عزيز يريدني واحدة منهن لا واحدة قبالتهن.

في الساعة العاشرة كانت زجاجة الويسكي قد نقصت أربع كؤوس. قال لي عزيز: يشربون الويسكي، عادة، قبل الطعام، يخلطون الويسكي بالكولا، وبعد ذلك يشربون النبيذ الأحمر مع الطعام. مرّة كنت مع الزميل رئيس الاتحاد في حفلة راقية.. هكذا كانوا يشربون. أولاد كلب أغنياء.. مائة راتب من رواتبي لا يكفي لفرش طاولة مثل تلك الطاولة!.. شعرت من إلحاح عزيز عليَّ بالشرب بأنه يريدني سكرانة تماما، بأنه يريدني أن أفقد وعيي. أمّا أنا فلم أكن أستطيع تصوّرَ أن أكون فاقدة الوعي.. لذلك قررت أن أتحايل عليه وأتخلّص من المشروب بطريقة ما.. وبينما راح هو يشرب باندفاع رحت أشرب من كأس الكولا الخالية من الويسكي.. كان عزيز قد وضع ثلاث كؤوس بدلا من كأسين. لم يخطر ببالي أن أسأله عن الحاجة إلى الكأس الثالثة. لم أكن أعرف، بعد، أن هذه الكأس تنتظر صاحبها. لكنني حين بحثت عن حل للتخلص من المشروب بدت لي الكأس الثالثة منقذة فملأتها بالكولا. وهو لم يتساءل عن حاجتي إليها طالما كأسي ثلاثة أرباعها من الكولا. بدّلت موقع الكأسين وارتحت. بعد العاشرة بقليل، نظر نحوي غامزا وقام لتشغيل الڤيديو. اكتشفت أن الشريط الذي تحدّث عنه موضوع فوق جهاز الڤيديو من قبل. استعد السافل لكل شيء مسبقا.. من اللقطات الأولى تبين أن الشريط يحتوي أقذر لقطات يمكن أن تخطر بالبال. شعرت بقرف شديد. ليس فقط لم تثرني المشاهد التي راح يتابعها بنهم، بل أشعرتني بقذارة الجنس. رجوته أن يوقف العرض. قلت له: لا أستطيع أن أرى هذه القذارات! إذا كنت تريد مشاهدته، يمكنك فعل ذلك عندما تكون وحدك وليس بوجودي. أجابني مندهشا: انتظري قليلا هناك لقطات أحسن، هناك لقطات مثيرة جدا ستعجبك. بدت سحنته حمراء وجحظت عيناه حين راح يسرّع الشريط حينا ويرجعه حينا آخر.. قلت له: أرجوك أوقفه! أنا لا يمكن أن تثيرني شلعة كلاب على عاهرة. قلت ذلك وفتلت الكرسي لأواجه الجدار المقابل لطاولة الڤيديو. كان في الغرفة كرسي واحد فقط. كان قد جلس على حافة السرير. لم يصدّق ما سمعته أذناه. لم يصدق أن امرأة يمكن أن تقاوم الفرجة على كل هؤلاء الرجال. صرخ، وكأن إهانة كبيرة قد لحقت به: مستحيل! أنت متخلفة وستبقين طوال عمرك متخلفة.. قمت إلى المطبخ الصغير الذي ينفتح على الغرفة. هو مطبخ ومرحاض وحمّام في مكان واحد. وقفت هناك وأغلقت الباب. بعد دقيقتين جاءني صوته: أنا آسف، تعالي، تعالي، لا تزعلي.. أطفأتُ الڤيديو.. تعالي نكمل السهرة. فتح الباب وعانقني وسحبني وهو يلفّني باتجاه السرير. رجوته: ليس الآن، لا أستطيع! أشعر كأنّك ستغتصبني! أنتَ ما زلت في الفيلم! اهدأ الآن أرجوك.. قال: طيّب، طيب. وجلسنا. شعرتُ برغبة في الشراب. أردتُ الخروج من حالتي.. كنت حمارة! لا أعرف لماذا لم أفكّر بالخروج، بالذهاب إلى المدينة الجامعية أو إلى أي مكان. قلت في نفسي: أشربُ ونكمل السهرة. عدّت إلى كأس الويسكي وشربتها دفعة واحدة.. ما أن فرغت من الكأس حتى رجوته: عدني بأنك لن تعرض عليّ مثل هذه القذارة مرّة أخرى! وعدني. أفرحه أن أشرب الكأس بهذه الطريقة. صبّ لي كأسا مضاعفة وقدمها لي دون أن يضيف إليها الكولا. قمت بنفسي بإضافة الكولا. لم أشرب الكأس الثانية دفعة واحدة ولكنني شربتها على جرعات كبيرة. نظرت إليه. كان ينقّل عينيه بين عينيّ وساعة يده. بدا كمن ينتظر شيئا ما. سألته: لماذا تنظر إلى ساعتك!؟ هل تريد الخروج. إذا كنت قد أمللتك رُحْ إلى أي مكان تريده، سأبقى هنا وحدي حتى الصباح، رح.. نهض من مكانه إليّ. لفّني وراح يقبّلني في عنقي. شعرت بدوار خفيف. قال: أنت لا تفهمينني، أنت تظلمينني دائما.. أنا فقط أنظر لأعرف كم بقي من الوقت لرفع نخب السنة الجديدة. كان قد بقي حوالي نصف ساعة. نهضت معه لأجلس قربه على السرير. طلبت منه وأنا أتملّص من قبلاته:

قل لي إنّك تحبني، قل لي كلاما لطيفا. قال لي إنني أجمل واحدة في الدنيا وإنّه يحبني لدرجة أنّه يريد أن يَشربني دفعة واحدة، وإنّه مستعد لتقبيل كل خلية من خلايا جسمي ألف مرّة، وإنه على استعداد لتدمير العالم كله بشرط أن لا أزعل منه، وإنّ نظرة من عيني تعادل الكون كلّه بالنسبة له، وإن جسمي يثيره إلى درجة الجنون، وإنّه عندما يتذكرني ينتصب كلّه ولا يستطيع أن يعود إلى حياته الطبيعية إذا لم يمارس العادة السرية، وإنني أملك أشياء يتمناها الرجال كلّهم، فليس لدى امرأة أخرى مثلها.. راح يصف مواضع الإثارة في جسدي بينما شفتاه ترعيان عنقي وصدري بين الكلمة والكلمة...استطاع أن يعيدني إليه. رأى ذلك في عيني. لم يكن من الصعب تخمين درجة انسجامي معه. ومع ذلك تركني ممددة في ضبابي، واتجهَ إلى آلة التسجيل. وضع شريطا لـ زمفير، وصب لي كأسا جديدة وعاد إليّ. شربت من الكأس جرعتين بينما راح يعالج ثيابي. لم ينقطع عن قول الكلام الحلو. طلبت منه أن يبعد السخانة الكهربائية عن السرير فأنا أشعر بحرارتها المرتفعة. أدارها باتجاه آخر. شربت ما بقي في الكأس. طلبت منه أن يطفئ النور. قام وأطفأ اللمبة الوحيدة المعلّقة في وسط الغرفة، ووقف قليلا قرب النافذة، وسحب الستارة قليلا ونظر إلى الخارج ثم أعادها وعاد إليّ. لم يبق في الغرفة إلا ضوء وشيعة الكهرباء الأحمر. بدا كل شيء رائعا ومثيرا: موسيقى ساحرة ودفء وكلام عذب ولمسات خبيرة.. رحنا نتمرغ على السرير. لا أدري كم من الوقت مضى مع دفء الحب وبلله! وإذا بيدين باردتين تمسكان بمؤخرتي! لم أفهم في البداية من أين جاءت هذه البرودة إلى يدي عزيز. لكنّني سرعان ما جمدتُ، تصلّبتُ كالصخر! فهاتان اليدان ليستا له! يداه تطوقانني، تضغطان صدري على جسده المستلقي على السرير! فهمت أن رجلا آخر يقف هناك. انتفضت من حالي مذعورة. رأيت بسّام وقد أنزل سرواله، مستعدا لإغماد سيفه في لحمي. قفزت من السرير. لكن الكلب عزيز أمسك بي وأعادني. قيّدني برجليه ويديه. لم يفك قيدي، رغم أنني عضضته حتى أدميته، لم ينهض قبل أن يبصق صديقه بسّام بصقته القذرة في روحي.. وبعد ذلك خيراني بين أن أبقى في سريرهما حتى الصباح، أو أن أخرج إلى الشيطان الرجيم. فاخترت الشيطان. بعد أن خطوت فوق العتبة توقفت. التفتُّ إلى الكلب عزيز. بصقت في وجهه فصفعني صفعة أعمتني وأغلق الباب.

-13-

من حماه إلى موسكو

كان طافش قد فشل في الحصول على الثانوية الزراعية. فبعد طرد سمير لابنه إبراهيم من البيت لم يعد بمقدور أحد أن يضبط ابنه الثاني طافش ويجعله يهتم بدراسته. كان أبوه مشغولا عنه بالعمل على الشاحنة، وأمّا أمّه فلم تكن تستطيع شيئا إلا قذفه بالحذاء بين الحين والآخر وكَيل الشتائم إليه ثم البكاء. لكن، كما تبين لاحقا لم يكن للدراسة علاقة بمستقبل طافش الدراسي. أجل، هي صيغة غريبة ولكنّها حقيقية. أو لنقلْ كان لعدم الدراسة أهمية في تحديد مستقبل طافش. فهناك، في الاتحاد السوفيتي الصديق، لم يجد متفحّصو أوراق طافش الثبوتية ووثائقه ما يثير الريبة، فقد كان بين الأوراق المقدّمة إلى وزارة التعليم السوفيتية شهادة ثانوية عامة من الفرع العلمي باسم طافش ممهورة بالأختام والتواقيع اللازمة ومترجمة حسب الأصول ومصدّقة من الخارجية السورية كما يجب. ولم تكن الأوراق الأخرى أقلّ منها مصداقية.

كان إبراهيم المطرود إلى بيت عمّته قد سبق أخاه في العجز عن النجاح في البكالوريا. فقد كان إبراهيم يعمل كل شيء في ضيعة عمّته إلا الدراسة. لم تكن عمّته تعلم ما الذي يفعله في ليالي خربة التين، ولماذا لا يعود إلا في ساعة

متأخرة من الليل. بعد صدور نتائج الثانوية العامّة بقليل، طردته من بيتها، ولكن ليس بسبب رسوبه أو خروجه المريب من البيت وعودته المتأخرة إليه، إنّما هي طردته بعد أن ضبطته يداعب ابنها صبري ابن العاشرة بطريقة جعلتها تضربه بالحذاء على رأسه وتصرخ لاعنة أباه مع أمّه على تربيتهما القذرة. لم يحاول إبراهيم التقدّم إلى الامتحانات مرّة ثانية. قال له صديقه صفوان، الصديق الذي وطّد علاقته به أثناء إقامته في خربة التين:

– لماذا لا تتطوّع مثلي للعمل في المخابرات، أنا مرتاح جدا هناك، ولا أحد يزعجني، ولا أحد، هنا في الضيعة، يجرؤ على التنفّس أمامي؟
– كيف أتطوّع!؟
– بسيطة، تعال معي إلى الفرع، المساعد فهد في القلم يدبّر الأمر، هو الذي طوّعني.

بعد خمسة أيام من ذلك وجد إبراهيم نفسه عنصر أمن، وكان أول شيء فعله بعد تسلّمه مسدسا هو أنّه جاء إلى عين الغار حاشرا مسدسه في زنّار سرواله بحيث يراه الجميع، ودخل دار أبيه دون أن يلقي عليه السلام واستلقى على السرير في حذائه ملقيا بالمسدس قربه.

– ما شاء الله، ما شاء الله، صرت رجلا!! قال سمير ساخرا من تصرّف ابنه الغريب، دون أن يفوته الحذر من مسدسه.
– نعم رجل، وإذا كنت لا تصدّق جرّبني!
– لعنك الله من ولد ضال، ومن أين لك هذا المسدس أيّها البطل الذي يتحدى أباه؟
– تطوّعت في المخابرات.
– ما شاء الله، ما شاء الله، وبماذا تأمرنا سيّدي؟!
– خلّصني من سخريتك وحلّ عني يا...
– أمرك. طظ فيك وبمخابراتك يا أستاذ، مفهوم!؟ قال سمير وهو يصفق الباب خارجا.

ومع ذلك، فما أن حلّ العشاء حتى تحلّق جميع أفراد العائلة حول المائدة بمن فيهم أبو إبراهيم وإبراهيم والمشاغب طافش، تعشوا جميعا معا بعد طول انقطاع، وتبادل إبراهيم مع أبيه الأنخاب. شعر سمير براحة داخلية لم يُعبّر عنها، كان راضيا عن خيار ابنه إبراهيم. وأمّا منيرة فلم تجاهد في إخفاء فرحتها.

– الحمد لله، هداك الله أخيرا، إن شاء الله تستقر وتتزوج وتصير كباقي الناس.

وبعد ثلاثة أعوام على خدمةٍ تنقّل خلالها إبراهيم بين حلب وإدلب نُقِل إلى فرع حماه. وفي حماه كُلِّفَ ببيع الدخان في الشوارع.

كانت هناك شبكة واسعة من بائعي الدخان والباعة المتجوّلين على عربات وباعة الأكشاك تعمل لصالح الأجهزة. وكانت حصّة البائع من الربح تتراوح بين ربع وثلث المبلغ الذي يصرّح به، أو الذي تحدده عينا "المْعَلِّم" المشككتان،

المعلّم يمكن أن يكون في أي موقع وأية رتبة. أمّا إبراهيم فقد كُلّف، إضافة إلى مهمّته هذه، بمهمّة داعمة أشد أهمية وخطورة مما كان يتصوّر. فبعد النجاح الذي حققه بضبط حالات تلاعب قام به زملاؤه وكشف مصادر جانبية للدخان الذي يبيعونه، كُلِّف إبراهيم بمهمّة عضو ارتباط مع المجموعة الرئيسة المسؤولة عن تهريب الدخان. لكن مراسم التكليف لم تتم إلا بعد ضمان صلاح إبراهيم للقيام بالمهمّة الجديدة. فبعد اتصالات تنسيق قام بها مدير مكتب المعلِّم أبلغ خلالها جهةً ما بوجود مضاربين في التهريب، استدعى الأخير المساعد عبد الفتّاح قائلا له بأن عليه الحضور في السابعة مساء إلى مكتب المعلّم. جاء عبد الفتّاح في الموعد المحدد وبعد أداء التحية، سَمِعَ: اعزم إبراهيم إلى مكتبك وخلّيك حنون معه، اليوم الساعة الثالثة. كان إبراهيم ينفر من عبد الفتّاح ويخشاه، وكانت تصله بين الحين والآخر أقاويل عن أشياء تدور في مكتبه. كان يجب ضمان سكوت إبراهيم عن كل ما سيطّلع عليه لاحقا بحكم مهمته الجديدة، كان يجب إخضاعه وكسر كرامته الشخصية قبل أن يتسلم عمله الجديد. قال المساعد عبد الفتاح لإبراهيم عندما حضر بين يديه في قيلولة الظهيرة: تعال إلى مكتبي الساعة الثالثة. سأله إبراهيم مستفسرا: تعني غدا؟! فجاءه الجواب ساخرا: لا، الثالثة من ليل اليوم. حاول إبراهيم الاستفسار عن طبيعة المهمة التي سيُكلَّف بها، وعن ضرورة حضوره في مثل هذه الساعة المتأخّرة من الليل، فقطع عليه عبد الفتاح الطريق قائلا: ستعرف كل شيء في حينه، إذا لم تجدني في المكتب انتظرني حتى آتي. كان عبد الفتّاح يعني ذلك، كان يريد لإبراهيم أن ينتظره. لم يقل عبد الفتاح لإبراهيم بأنّه هو نفسه لا يعرف شيئا عن أيّة مهمّة أخرى غير المهمة التي اعتاد تنفيذها، ولكن بحق المعتقلين وليس بحق زملائه. راجعَ أَمْرَ رئيسه في ذهنه وهو يتفحص إبراهيم: خليّك حنون معه! وكان عبد الفتاح يعرف جيّدا ماذا يعني ذلك. في الساعة الثالثة ونصف وثلاث دقائق أشارت الشاشة في غرفة استراحة المعلِّم الملحقة بالمكتب إلى أزوف اللحظة المناسبة. بعد دقيقتين من ذلك، دقيقتين بدتا لعبد الفتاح مثيرتين وطويلتين إلى ما لا نهاية، فُتح باب مكتبه فجأة. تظاهر عبد الفتاح بالاضطراب أمام عيني رئيسه، فيما راحت عينا المعلِّم تتفحصان وجه إبراهيم. أمر المعلِّم إبراهيمَ باللحاق به إلى المكتب بعد أن يغسل سحنته القذرة، متظاهرا بالصراخ في وجه المساعد: أمّا أنت فحسابي معك عسير! في مكتبه، استعاد المعلِّم شريط التسجيل متجاوزا محاولات إبراهيم اليائسة مقاومة طلب عبد الفتاح، متجاوزا قول عبد الفتاح لإبراهيم: كثيرون يعرفون أنّك لوطي، فلماذا تشرّف نفسك معي أنا! هل تريد أن أفضحك أمام أهلك!؟ ثم أنا أحق من غيري! قال عبد الفتّاح مداعبا قضيبه.. بدأ المعلّم استعراض الشريط من اللحظة التي أمسك فيها إبراهيم بآلة المساعد، الآلة التي عرفت كيف تُسْكِتُ إبراهيمَ في اللحظات التالية: أنت حيوان، قذر، انظر إلى نفسك– راح إبراهيم يتجنّب النظر إلى نفسه في شاشة تلفاز المعلِّم في تلك الوضعية المشينة– ما هذا!؟ والله، ثم والله غلطة واحدة منك، وستجد هذا الشريط في كل بيت من بيوت عين الغار. حيوان! كانت إضبارة إبراهيم في الفرع تتضمّن معلومات من مصادر مختلفة عن مثليته. ضحك الضابط حين تفحّص أوراق إبراهيم طالب التطوّع: عُرف عنه أنّه لوطي!– لا بأس.. لا بأس هزّ الضابط رأسه– سيكون مفيدا في تأديبهم. هذه الـ (هم) كانت تعود إلى أولئك المحتجَزين في الأقبية لديهم. أمّا هنا فوجد إبراهيم نفسه في وضعية طالما حاول إخفاءها عن زملائه، فكيف بأهل ضيعته.

بعد أقل من أسبوع من ذلك، جاءت سيارة جيب سوداء وتوقّفت ليُفتح بابها الأمامي اليميني أمام عيني إبراهيم المتفحّصتين. رأى وجها في السيارة نصف المعتمة يأمره: اركب من خلف، المْعَلِّم يريدك! حاول إبراهيم السؤال عن طبيعة المَعْلِّم الجديد الذي يريده، كان واضحا بالنسبة له أنّهم لم يأتوا من قبل معلَّمه الرسمي، فجاءه الجواب قاطعا: حتى الآن لا تعرف من يكون المْعَلّم!! جحش بِرخصة! اركب، اركب، خلّصنا! حاول الاستئذان لإجراء مكالمة قبل ركوب السيارة: ما لها لزوم، معلّمك يعرف!

هناك، عند المْعَلِّم، بُلّغ إبراهيم بكل التفاصيل. ستصله شحنات الدخان إلى مكان تم إعلامه به، وسيكون عليه تدبّر أمر توزيعها، وجمع الغلّة، كما سيكون عليه أن يتصل فورا، برقم تركه له معلّمه الجديد، عند تأخر البضاعة بالوصول أكثر من ساعة عن الوقت المحدد، وسيكون عليه، كذلك، أن يأتي بنفسه مرّة في الأسبوع إلى المْعَلّم لتسديد الحساب: رُح استلم سيارتك من مرآب الفرع، وخذ معك صندوق الويسكي لمْعَلّمك. الشغل معنا لا يحتمل طول لسان. إياك.. سوف يكلّفك معلّمك بمهمة جديدة تناسب شغلك الجديد. في اليوم التالي سُلّم إبراهيم سيارة جيب جديدة وكلّف بمهمّة متابعة مراقبة الآثار في المحافظة أمنيا. في بداية تسلّمه مهمّته الجديدة فكّر إبراهيم بالانتقام من عبد الفتاح الذي فضحه أمام معلّمه.. ولكنه سرعان ما عدل عن أفكاره الانتقامية، وراح يفكّر بطريقة عملية تناسب وضعه الجديد، ومعلّمه الجديد. راح يحلم بأمجاد لا بد أن يسمح له وضعه الجديد بتحقيقها. فكّر بأن مهمته لن تقتصر على خط الدخان، فالآثار أغلى بكثير وأربح بكثير، ولا بد من أن يوحي للمْعَلِّم بأهمية هذا الأمر. شعر إبراهيم بنفسه مُبدعا. خال أنّه اهتدى إلى فكرة لم يسبقه إليها أحد، وأنّ نجمه سيسطع وسيجني ملايين كثيرة، راح يحلم بقطعٍ يخفيها عن الجميع ويبيعها لحسابه الشخصي فيما بعد.. شعر إبراهيم بنشوة عامرة. وكاد في خضم نشوته يجتاح في طريقه عربة خضار كان الرقيب اسكندر يدفع بها باتجاه سيارة تحمل لوحة غريبة تقف أمام أحد المحال التجارية، محاولا رؤية من بداخلها، بعد أن حفظ رقمها، ليدوّنه فيما بعد في دفتره الصغير الملقي في درج العربة قرب المسدس.

كان إبراهيم يعلم أنّ لأبيه قصته غير الموفّقة مع المْعَلِّم، فقرر أن يكون أكثر فطنة من أبيه، وأن يجيد استغلال وضعه الجديد، لا كما فعل أبوه الغشيم الذي ما زالوا يعاملونه معاملة الكلاب، وهو يظنّ أن جرافته التي استبدلها بالشاحنة أهم شيء في الحياة: سترى أن ابنك الذي طردّته من بيتك أشطر منك بألف مرّة.

حين باع أبو إبراهيم سيارته الشاحنة لم يقل لجيرانه أو أصدقائه شيئا عن الأسباب التي دفعته إلى بيعها، على الرغم من يقينه من أنّ جميع من في عين الغار يعرف بقصته مع المْعَلِّم، الذي يسمّونه هنا في عين الغار بأبي طلال! لماذا هو أبو طلال؟ لا أحد يعلم، فلا طلال في عائلته أو بين أقربائه، وربما لا وجود لطلال بين رجاله. الأمر وما فيه أنَّ يونس المجنون عندما رأى سيارة جيب سوداء تجتاح ساحة الضيعة مثيرة عاصفة من الغبار، صرخ بأعلى صوته: اهربوا، اهربوا.. جاء بوطلال!!. كان أهل عين الغار يعرفون بقصة شاحنة سمير، فقد كان لدى بوطلال،- هذه الـ"بوطلال" احتراما لروح يونس المجنون، فقد دهسته على الطريق العامة واحدة من سيارات بوطلال بعد حوالي شهر من إطلاقه الاسم-، كان لديه من ينشر أخبارَه بين الناس ويعود بانطباعاتهم وتعليقاتهم وردود أفعالهم إليه. كان ينشيه سماع أخبار دهشتهم حينا وذعرهم حينا آخر وشعورهم بالعجز في أحايين ثالثة.

في المرّة الأولى كان أبو إبراهيم في طريقه من عين الغار إلى مكتب الدور في اللاذقية حين أعترض طريقه شابان مسلّحان، استوقفاه. وما أن توقّف حتى فتحا بابي الكابين وأمراه بالنزول وترك الشاحنة. حاول إطفاء المحرّك وإخراج المفاتيح، راجيا أن يدعاه يذهب إلى مكتب الدور: لا تكن غبيا - قال أحدهما- ستجدها بعد يومين هنا.. أو لأقل لك سنتركها أمام مكتب الدور.. إياك أن تتفوه بكلمة. مضى يومان من القلق، لم تغادر خلالهما كأس العرق يد أبي إبراهيم إلا في ساعات النوم. وبعد يومين جاء إلى أمام مكتب الدور، بحث عن شاحنته بين السيارات المركونة على جانبي الشارع الرئيس، بحث في الجوار، بحث في كل مكان يمكن أن تركن فيه السيارة لكنه لم يجدها. انتظر

حتى حلول المساء، نظر إلى ساعته، اكتشف أن الوقت فاته، وأنَّ عليه مُغادرة المكان حالا باتجاه موقف الحافلات وإلاّ فاتته الحافلة الأخيرة المتجهة إلى عين الغار. لعن نفسه على غبائه، فلو أنّه اشترى ذلك المسدس الذي عرضه عليه فائز الذي يأتي بالسلاح من مكان ما ويبيعه دون حذر كبير، فالجميع يعرف أنّ فائزا يبيع مسدسات وبنادق آلية.. لو كان يحمل سلاحا لاستطاع إخافتهما ولما تجرآ على التعرض له ثانية، ثم سرعان ما فهم لا جدوى السلاح. فهما مسلحان، وليسا سائحين أو عابري طريق، وقد لا يترددان بإطلاق النار باتجاهه مجرد أن يحرك يده باتجاه مسدسه. وعندئذ يخسر حياته وليس شاحنته فقط.

في اليوم الثالث، استقل أبو إبراهيم الحافلة الأولى المنطلقة من عين الغار إلى اللاذقية في الرابعة والنصف صباحا، صعد الحافلة مع عاملات الوردية الصباحية في الريجي. كُنّ إحدى عشرة امرأة يعملن في الريجي، خمس منهن في الوردية الصباحية وست في الليلية، لم يكن بينهن قمر أو شمس. كُن، على قلّتهن، يملأن الحافلة ضجيجا، ولا يعبأن بعيون الغرباء الذين يستقلون الحافلة من أماكن مختلفة في الطريق، العيون المدهوشة من قدرة النساء على كل هذه البذاءة منذ الصباح الباكر. لم يستجب أبو إبراهيم لمزاح العاملات اللاذع وللكثير من الإيحاءات الجنسية التي يروّحن عن أنفسهن بها النعاس، ولم يُجبْ عن أسئلتهن عن شاحنته وعمّا إذا كانت معطّلة، أم أنّ زوجته منيرة ساقتها وهربت بها مع عشيقها.. فقط قال لهن: "يا ريت!" حين وصل أبو إبراهيم إلى أمام مكتب الدور رأى شاحنته بين الشاحنات المركونة على الجانب الأيمن من الشارع. شعر بأصابع يمناه ترتعش وهو يخرج نسخة المفاتيح الثانية من جيب سترته. لكنّه ما أن دنا من باب كابين الشاحنة حتى تقدّم منه شابّ بلحية سوداء مشذّبة وملابس سوداء. لم يكن واحدا من المقاتلَين اللذين رآهما من ثلاثة أيام، إنّما شاب جديد لم يجهد نفسه كثيرا بإخفاء مسدسه الثقيل المحشور أسفل خاصرته اليسرى. حيّاه الشاب مبتسما: لأنّك ابن حلال رجّعنا لك الشاحنة بسرعة رغم حاجتنا إليها، على كُلٍّ اتصلْ بهذا الرقم– سلّمه قصاصة ورق عليها رقم هاتف– بعد رجعتك. سنحتاج إلى السيارة الأسبوع القادم ليوم أو يومين. لا تتأخر ولا تفكّر بعدم الاتصال، أنت رجل عاقل وتعرف الأصول. يا الله، السلام عليكم! ورحل. تفحّص أبو إبراهيم الشاحنة بعد رحيل الشاب ولكنّه لم يعثر على ما يدلّ على طبيعة المواد التي نُقلت بها. كان أبو إبراهيم قد سمع الكثير عن تهريب الدخان والمخدّرات والأسلحة.. أسف أبو إبراهيم لأن بيلا لا تجيد تمييز الروائح المثيرة للريبة.

في الأسبوع التالي، قلّب أبو إبراهيم الأمر من جوانبه كافة. تردد بين الاتصال وعدمه، فهم أنّه مع كل مرّة سيكون من الأصعب عليه التخلّص من طلباتهم وسيجد نفسه خاضعا لهم أكثر فأكثر. فكّر باللجوء إلى أحد زملائه السائقين وقضاء عدّة أيام عنده وإخفاء السيارة هناك ومحاولة إيجاد طلبات خاصة خارج مكتب الدور، لكنّه سرعان ما أسقط هذا الاحتمال، فهم كانوا بانتظاره على طريق عين الغار ويعرفون جيّدا أين يسكن، وقد تجرّ معاندتهم الوبال على أسرته. فكّر بمقابلة بوطلال واستعطافه، ولكن ماذا لو قال بوطلال بأن السيارة ستبقى معهم طوال موسم الشغل؟! وهل للتهريب مواسم؟ أو ماذا لو عرض عليه بأن يشتغل مع الشباب ويكسب أفضل مما يكسب الآن ويقود بنفسه الشاحنة؟ ولكنه يعلم بأنّه وحده سيكون مسؤولا عن البضاعة المهرّبة فيما لو ضبطت، وأنّ أحدا غيره لن يُسأل عن الأمر، وأنّهم سيتخلون عنه مجرد أن يقع في ورطة.. فكّر أبو إبراهيم بأشياء كثيرة تخلّصه من الشبكة التي وقع فيها، كما يمكن لأي أحد آخر أن يقع، ولم يجد سبيلا للخلاص، كما لا يمكن لأي أحد آخر أن يجده بمفرده، ذلك أن كل محاولة لخلاص فردي تؤدي إلى المزيد من الغوص والمزيد من التورّط أو تؤدي إلى الانتحار. كان أبو إبراهيم على يقين من أنّه ليس الوحيد في مثل هذه المحنة، ومع ذلك شعر بوحدته وبأن أحدا لن يعينه في شيء. يمكن أن يتعرض آلاف الناس لقهر

من طبيعة واحدة، بل ونمط واحد ومع ذلك لا تكون هذه الآلاف الكثيرة أكثر من واحد، لا تكون أكثر من آحاد غير قابلة للجمع.. لم يفكر أبو إبراهيم ببطلان قانون الجدل هنا حيث لا معنى للعتبة الكمية، حيث يمكنك أن تزيد الرقم قدر ما تستطيع: آلاف.. ملايين.. عشرات ملايين.. ومع ذلك لن تؤدي الكمية إلى نوعية جديدة من تلك التي تحدّثت عنها قوانين الجدل أو توخّتها.. لم يفكّر أبو إبراهيم بهذا الشيء إنّما أحس به نبضاً وتنفّساً وهو يفكّر بأشياء كثيرة دون جدوى. الشيء الوحيد الذي لم يفكّر به هو اللجوء إلى الشرطة. فالشرطة لن تفعل له شيئا، ولن يجرؤ هناك على ذكر ما يدل على مرجعية الشباب الذين أخذوا شاحنته ويبدو أنّهم سيأخذونها إلى أجل غير مسمى، وإذا فَعَل فالشرطي نفسه الذي يُفترض به أن يدوّن محضر الضبط سيمتنع عن تسجيل بعض الأسماء، وقد يقوم هو نفسه بإخبارهم عن هذا المتجني الذي يُشهّر بهم ويحاول الإساءة إليهم، طَمَعاً بمَنْفَعةٍ أو سَنَدٍ قد يحتاج إليه غدا. فكّر أبو إبراهيم للمرة الأولى، منذ اشترى الشاحنة، ببيعها، ولكن: سأنتظر قليلا! قال في نفسه، عازما على الاتصال بالرقم الذي بين يديه.

من هناك جاءه صوت يمتدحه وينعته بالخال: أهلا يا خال، على رأسي يا خال، ابن أصول، اتركها مكانها ولا يهمّك. الله معك، إذا احتجت أي شيء خبّرنا، لعيونك! الله والخضر معك.. يومين ولا يهمّك. مع السلامة يا حبيب.. تركها كما أشاروا إليه ومضى إلى كاترينا، كاترينا اسمٌ لإحدى ثلاث حافلات تنقل الركّاب بين عين الغار واللاذقية.. حملت كاترينا أبا إبراهيم إلى ساحة الضيعة. كان صوت محمد سلمان يملأ الهواء بـ"سوريا يا حبيبتي" خارجا من محل كامل الحلاّق الذي راح يُعْمِل مقصه في شعر غسّان الأشبه بمكنسة آدو زبّال البلدية، صائحا " أعدتِ لي كرامتي"، تاركاً للمقص أن يلتهم المزيد من المكنسة. غسّان هو ابن صافي المساعد في المخابرات العسكرية. عندما يأتي غسّان إلى مجلس عزاء ينصرف كثيرون في الحال، داعين: رحمه الله، السلام عليكم! أمّا عندما يأتي صافي فلا أحد يبرح مكانه. ميتات الشتاء كانت تناسب غسّان أكثر، وكان يعجبه أن يموت العجائز في الشتاء. ضبطه أحدهم مرّة يضغط زر التسجيل في الآلة التي أخفاها في جيب سترته الشتوية الداخلي: الفاتحة يا أخوان ليوفق الله رئيسنا ويطيل عمره ويحفظ عائلته وذويه، بسم الله الرحمن الرحيم*الحمد لله رب العالمين ...صاح الرجل الذي رأى زر آلة التسجيل يُضغط، بأعلى صوته، وراح، بعدما مَسَحَ وَجْهَهُ بالرحمن، مع انتهاء تلاوة الفاتحة، يتحدّث عن الوفرة والسعادة والأمان: بلدنا أرخص بلد في العالم،– تهامس اثنان من المعزين: ابن بطوطة، الأخ! أبعد بلد زاره هو النبك يوم ساقوه إلى الجيش!– ولا يوجد بلد أكثر أمنا من بلدنا في العالم، مَنْ في العالم يستطيع ترك بيته مفتوحا وينام دون خوف مثلنا...

في البيت بدا الاضطراب واضحا على وجه أبي إبراهيم، بعد انتظار دام خمسة أيام لم ير خلالها الشاحنة ولم يأته أحد بخبر عنها، وعجز لسانه عن النطق بسببٍ يقنع زوجتَه منيرة بأن الشاحنة بخير وبأن مكروها لم يصبها. اضطرته منيرة على البوح بهمّه. للمرّة الأولى وجد أبو إبراهيم نفسه يشارك زوجته مشكلة يعانيها، للمرة الأولى يطلب منها النصح. استشاطت المرأة غضبا: أولاد القحبة ما تركوا شيئا إلا وحشروا أبوازهم النجسة فيه!! فكّرتْ المرأة بالمقاومة، شعرت بنفسها نمرة على وشك القفز من النافذة والانقضاض لتمزيق سحناتهم، شعرت بأن وجوههم هنا عالقة في الهواء يراها الجميع خلا عديمي الإحساس: والله، والله.. لولا الصغار لرحت وفجّرت نفسي في قلب بيته وخليته عبرة لمن يعتبر.. هدّأها زوجها واعدا إياها بإيجاد حلّ في القريب العاجل. للمرّة الثانية، راودت أبا إبراهيم فكرة بيع الشاحنة.

في فجر اليوم السابع، استيقظ أبو إبراهيم على نباح الكلبة بيلا، تصاعد النباح وعلا هدير محرك الشاحنة. نظر أبو إبراهيم من وراء الستارة دون أن يشعل المصباح. لم يخرج خشية أن يفضح لسانه ما في قلبه فيأتيه بما لا تحمد

عقباه. تابعت الكلبة نباحها محاولة إغلاق بوابة الدار بجسدها، قافزة بين حدّيه، كحارس مرمى يستعدّ لتلقي ضربة جزاء. توقّفت الشاحنة وسرعان ما توقّفت بالقرب منها درّاجة نارية عملاقة. ترجّل شابٌ أسود اللباس من الشاحنة، ثم اتجه صوب حديد البوابة وراح يدقّه. نبحت الكلبة أكثر، ثم اضطرت إلى التراجع عندما رأت عينين شريرتين تخرجان من محجريهما. في البداية تظاهر أبو إبراهيم بالنوم. نهضت زوجته على صوت النباح وصوت الخبط على الحديد مفزوعة، أخبرها بأنّهم جاؤوا. وجدها تتجه صوب الباب لمواجهتهم، أمسك بها من ذيل قميص نومها، شدّها نحوه، استجابت لعزم ساعده، وجد نفسه يطوقها بذراعيه، همس في أذنها: اهدئي، منيرة، منيرة.. شعر بدفء جسدها، قبّلها في عنقها.. سمعا فرقعة محرّك الدراجة النارية، ثم رشقة شتائم، ثم دوّت رصاصتان، ثم تلاشت الأصوات في الخارج. وإذا باضطرابهما يتحوّل إلى عناق تعاطفٍ. نهضا معا. نظرا من النافذة بوجل، لم يجدا بيلا. فتحا النافذة معا يدها فوق يده على مقبض القفل، صرخا معا: بيلا.. بيلا.. لم تجب بيلا. كانت الكلبة غارقة في دمها على بعد أمتار من الشاحنة.

في مساء اليوم الثامن، جاء راكبا الدراجة، أبلغا أبا إبراهيم بأمر المعلِّم: الحضور في الساعة الواحدة من ظهر الغد إلى مكتبه. هذه المرّة، قرر أبو إبراهيم، دون سؤال أحد، بيع الشاحنة، فكّر بِرَكْنِ الشاحنة في خربة التين ريثما يجد من يشتريها، لكنّه لم يجرؤ على التفكير بالتخلّف عن الموعد الذي حدّده بوطلال: سأقول له: السيارة في الصيانة.. وعندما يطلبها في المرة القادمة سأقول له بأنني بعتها.. أرجو أن أجد شاريا قبل أن تقع المصيبة على رأسي. وبالفعل تمكّن أبو إبراهيم من بيع الشاحنة في غضون ثلاثة أيام بعد زيارته التاريخية لمكتب بوطلال. باعها بسعر أقل من سعرها الحقيقي، لم يساوم ولم يتردد، قال للشاري: مبروكة عليك. وقال لنفسه: الحمد لله.

بعد حوالي عشرة أيام من حمده لله، استفاق أبو إبراهيم، بعد منتصف الليل، على صوت شاحنة تتوقف أمام داره. نظر من النافذة فرأى شاحنته. لبُرهة قصيرة ظنّ بأن الشاحنة عادت بنفسها إلى بيتها، كما تفعل الكلاب الوفية، حين يحاول أصحابها التخلص منها فيلقون بها في أماكن بعيدة ويفرّون في سياراتهم عائدين دونها. فرك أبو إبراهيم عينيه، رأى شابين يترجلان من كابين السيارة ويتجهان صوب باب الدار. لم يجد بدّا من ملاقاتهما. لم ير بينهما شاري السيارة، وعند إمعان النظر عرف فيهما ذينك الشابين اللذين أوقفاه أوّل مرّة على الطريق. فتح أبو إبراهيم الباب. قال أحدهما، فيما وضع الآخر يده على خدّه مبتسما ابتسامة ساخرة مستندا باليد الأخرى إلى إطار الباب الحديد:

– البسْ، وتفضل، لا تتأخر

– تفضلا، اشربا كأس شاي! وجد نفسه يدعوهما. خطر بباله في هذه اللحظة أن يكونا قد أبطلا البيع وأعادا السيارة إليه ليستمر بوطلال في استغلاله وإذلاله إلى آخر العمر، لكنّه كان قد تنازل عن الشاحنة في مديرية المرور، ونُقلت ملكيتها إلى رجل من عائلة كبيرة، ظنّ أبو إبراهيم أنّ أحدا لا يجرؤ على إزعاجها. ومع ذلك فها هو يرى السيارة بأم عينيه متوقفة أمام داره: لا تقل إنك لم تشتق إلى حبيبتك– قال الساخر منهما– ما عندنا وقت لشرب الشاي، عجّلْ، خال، عجّل، سيارة بيت صالح بانتظارك.. ثم قهقه وبصق بعنف على الأرض متجها صوب السيارة.

وجد أبو إبراهيم نفسه يقود شاحنته السابقة لا يدري إلى أين. لم يَسْأل عن الاتجاه الذي عليه أن يسلكه. تذكّر أنّه خبط الباب بعنف في وجه زوجته التي اندفعت إلى غرفته تستطلع الأمر. سمع صرخة ألم ثم بكاء، ثم خرج. تابع أبو

إبراهيم، شاردا، قيادة شاحنته، وجد نفسه يجتاز المدينة، ثم يخلّفها وراءه ممسكا بالطريق العامة المتجهة إلى دمشق. لكن دمشق بقيت بعيدة، فما أن بانت أولى أشجار الصنوبر، على بعد كيلومترات قليلة من اللاذقية، في بقايا غابة تمتد من الطريق العامة إلى شاطئ البحر حتى أُمِر السائق بالانعطاف إلى اليمين. فهم أبو إبراهيم أنّهم يقودونه إلى مرفأ صغير سبق أن سَمِع عنه الكثير، مرفأ خاص بالتهريب. بعد انتهاء هذه المهمّة لم يسمحوا لأبي إبراهيم بالذهاب إلى بيته: ابقَ في سيارة بيت صالح حتى مجيء تعليمات جديدة!- قال مرافقه الساخر، مركّزا على اسم العائلة التي حاولت حماية سيارتها فكان أن أمر بوطلال بأخذها دون تحديد أي موعد لإعادتها. لم تكن العشيرة التي ينتمي إليها الشيخ صالح مَرْضيّاً عنها، ولم تكن تؤخذ بعين الاعتبار على الرغم من كثرة عددها، وعلى الرغم من صلوات كثيرة رفعها الشيخ، أصرّ الله على جعل كل من ينتمي إليها يخدم في الدفاع الجوي والوحدات الأخرى التي لا تخيف أحدا. رأى الشيخ مرّة في منامه أنّه يُسلّح سبعمائة وسبعا وسبعين من شباب عشيرته، وبعد صلاة الفجر رأى أن من الحكمة تفسير المنام على غير وجه، فغير قليل من أبناء عشيرته يحملون سلاحا ليس لحمايته- كان على أبي إبراهيم أن ينام في كابين السيارة. كان قد نسي أخذ بطانيتيه ومخدته عندما سلّم السيارة لابن كبير العائلة الشيخ صالح. لم يقل أبو إبراهيم شيئا. لم يَسأل عن أي شيء. رَكَن السيارة في المكان الذي حدّدته له إصبعٌ تكاد لثخنها لا تدخل من حلقة زناد المسدس، ونام منكبّا على وجهه هذه المرّة.

عاد أبو إبراهيم إلى بيته بعد شهر من العمل الليلي على الشاحنة، شهر سافر خلاله إلى لبنان وإلى حلب وإلى حماه. في الليل الأخير قُبيل تحريره بساعات، أرسل بوطلال في طلبه: أنت لم تكن عندنا ولم تر شيئا!- عينان خبيثتان، دامعتان، لامعتان، متوعدتان، متوسلتان الفضيلة قالتا له ذلك- قد نرسل في طلبك في أي وقت. ابق جاهزا، خلّيك عاقلا مثلما عرفناك.

عاد أبو إبراهيم إلى بيته. وكانت زوجته قد رأت خروجه مع الشابين فلم تسأله عن شيء. كان كلٌّ من في عين الغار قد سمع بخروج أبي إبراهيم، وكانوا إلى ذلك الحين قد ألّفوا الحكايات عن قصة اختطافه وسجنه في سجن سرّي خاص ببوطلال، يُحكى أنّ بعضهم منسي فيه منذ سنوات، ولا أحد يجرؤ على السؤال عنهم، بعضهم قال إنّه على يقين من أنّهم قتلوا أبا إبراهيم وأطعموا لحمه للكلاب. وإلاّ ما تفسير أنّهم، على خلاف جميع مربّي الكلاب، لا يأخذون أرجل الدجاج لإطعام كلابهم؟ أردف صبري لمجالسيه في الخمّارة، فردّ أحدهم، ولم يكن معروفاً بنباهته: ناقصهم لحم! العمى ما أجحشك!

بعد حوالي شهر من إطلاق سراح أبي إبراهيم، توقفت سيارة جيب أمام داره. كانت الساعة تقارب العاشرة مساء. نزل منها شاب ضخم الجثة وبيده علبة كرتون مستطيلة، فيما بقي داخلها آخران، لم يتبين أبو إبراهيم ملامحهما من خلال زجاج سيارة الجيب المعتم. بوّدٍ ظاهر حيّا الزائرُ أبا إبراهيم: هذه هدية خاصّة من المْعَلِّم! عربون صداقة ومكافأة على إخلاصك. إذا احتجت أي شيء لا تتردد. أمسك أبو إبراهيم بالعلبة، وجدها أثقل مما كان يتوقع: سلّمْ على المَعْلِّم، شكرا، شكرا، شكرا. قال أبو إبراهيم وسارع إلى إغلاق الباب دون دعوة الرسول إلى الدخول: مَهْلك، مهلك، لا تستعجل، قُلْ تفضّل يا رجل!: عفوا، عفوا.. تفضّل، تفضّل. وما أن خطا الرسول خطوته الأولى داخل الغرفة حتى قال: افتحها! فتح أبو إبراهيم العلبة فوجد فيها لُفافةً من خيشٍ، فضَّها فيما أنفه يتحسس رائحة سلاح جديد. وجد بين يديه بندقية كلاشينكوف، عُلِّقت على حلقة زنادها قصاصة ورق مقوّى كتلك التي تعلّق على قطع الملابس في محلات البيع، راح

يقرأ ما كُتب عليها: أقسم بالله العظيم أن أكون وفيّا لكم، وأن لا أبخل بنفسي وبأولادي ومالي من أجلكم. ثم، خادمكم، وتحته الاسم والتوقيع: وَقِّعْ، خال، وقّعْ، أنت من اليوم واحد منّا وفينا.

خلاف أبيه، أثبت إبراهيم أنه صيّاد فرص، عرف كيف يكون واحدا من المقرّبين إلى معلّمه الجديد بوطلال. فلم يكن الإشراف على توزيع الدخان وتأمين سلامة الشحنات إلا بداية لنجاحات أكبر حققها. تعلّم إبراهيم بسرعة الصمت حين يكون في السكوت حكمة، والكلام حين يُطلب منه قول بعينه، بات يعرف ما الذي يرضي بوطلال، بل ويعرف كيف يُحدث تحوّلا في مزاجه من العبوس إلى الضحك. والأهم من ذلك أجاد توطين نفسه على التبعية والذل، وبات يعرف المكاسب التي يجلبها ذلك.. بل نال بعون من خدماته النسائية لأسياده حظوة عندهم، حظوة انتهت بأخيه طافش إلى الاتحاد السوفيتي. النساء كُنَّ يأمنَّ جانب إبراهيم، لم تكن لديه مطامع شخصية فيهن.

كان طافش، كما تذكرون، قد فشل في نيل الشهادة الثانوية الزراعية، لكن ذلك كما تبيّن فيما بعد كان أمرا هيّنا على إبراهيم تدبّر أمره. كان رجال بوطلال يعلمون أن إبراهيم على معرفة بالأسلحة التي تُورّد إليه تحت اسم دخان وأدوات كهربائية وتلفزيونات وأجهزة ڤيديو وأشياء أخرى.. من تلك التي تتضمّنها أيضا الشاحنات الواصلة إليه في حماه، وكان يريحهم أنّه لم يُشِرْ في أية لحظة إلى ذلك أمام أي منهم وقد اختبروه عبر رجالهم، ولم يُبد ما ينمّ على معرفة ذلك، بل لم يبد عليه للحظة واحدة أنّه يشك بشيء من هذا القبيل. أجابه بوطلال، ضاحكا حين رجاه مساعدةَ طافش شارحا له ظروفه: تكرم عينك، راجعني بعد أسبوع، أنت تستأهل! بعد أسبوع طرح إبراهيم موضوع أخيه طافش، وكان يظن أن المُعَلِّم انشغل عنه وعن أخيه، فجاءه الرد مفاجئا: سيسافر أخوك إلى الاتحاد السوڤييتي ويدرس الهندسة في موسكو من أوّل السنة القادمة، نحن نعرف كيف نخدم جماعتنا. سلّم على أبيك وأخيك، وخلّ طافش يراجع مدير مكتبي لتحضير الأوراق اللازمة. ضحك بوطلال راضيا عن إبراهيم أيما رضى، فقد أتاح له فرصة أن يتبيّن سكان عين الغار وأقرباؤهم ومعارفهم فوائد الخدمة لديه وإطاعة أوامره، وكان ذلك من حظ طافش، الولد الذي كاد طيشه يُهلك أمّه.

قبيل أحداث حماه قُتل إبراهيم في ظروف غامضة. كان بوطلال أوّل من عَلِم بذلك. جِيء بتابوت خشبي إلى عين الغار مرفق بمجموعة من المسلّحين.

لم يسمحوا لأحد بفتح التابوت. كان بوطلال قد أرسل في طلب أبي إبراهيم.

– كيف حالك يا سمير؟
– بفضلكم وفضل الله بألف خير.
– الحمد لله، ونعم بالله! كيف إيمانك بالله يا سمير؟
– قوي بإذن الله!
– مَنْ منا أغلى عندك، نحن أم الله؟
–...
– لا تقل نحن، لا تَخَفْ.
– وأنتم أغلى من الغوالي، يا سيّدي.

– حيّاك الله يا سمير. لو طلبت منك شيئا فهل تردني خائبا، أي شيء؟
– طبعا لا!
– حتى لو كان ولدك؟
– أنا وأولادي خدّامكم يا سيدي، نفديكم بأرواحنا عند اللزوم!
– يعني لو طلبت روح ابنك إبراهيم فلن تبخل عليّ بها. فماذا لو طلبها الله، سبحانه وتعالى. العمر لك يا سمير، ولدك إبراهيم في ذمة الله.

أطبق أبو إبراهيم على عينيه براحتي يديه، غالب الدمع فغلبه، وبعد حشرجات وغصّات قهر حنجرته.

– كيف!؟
– تعددت الأسباب والموت واحدٌ. لا تسأل عن السبب يا سمير، لا تسأل. قُلْ الحمد لله! عِدني بأنّك لن تسأل عن السبب. دع روح إبراهيم ترتح، البحث عن السؤال يقلق الروح يا سمير، استغفر الله واحمده على كل شيء يا سمير.
– الحمد لله، أستغفر الله، الحمد لله.
– ستصل جثّته– نظر إلى ساعة يده– بعد نصف ساعة، سيتولّى الشباب كل الأمور، لا تقلق، اسبقهم أنت إلى الضيعة. سيرافقك جعفر ووفيق.

كان وفيق ذلك الشاب الذي أطلق الرصاص على بيلا وكان جعفر أحد الشابين اللذين استوقفاه أوّل مرّة وأمراه بتسليمهما الشاحنة. لم يقل أبو إبراهيم شيئا، بل دار حول نفسه متلفّتا إلى كل الجهات كمن يبحث عن منفذ. كان فعلا يبحث عن الباب.

– لا إله إلا الله، الحمد لله! قال وهو يجتاز العتبة، ثم التفت إلى الخلف وعاد.
– لا تؤاخذني نسيت أن أشكرك وأودّعك، لا تؤاخذني أرجوك، لا تؤاخذني بحق الله!
– الله معك، الله معك، أجابه منصرفا عنه إلى الهاتف.

في عين الغار علا الصراخ والولولات. واحد ما ألقى في الهواء كتلة كبيرة من الديناميت فوق بيت أبي إبراهيم. كانت تلك الطريقة المتّبعة لإعلان الموت. امتلأت الشوارع بنسوة يسترن رؤوسهن بمناديل بيضاء، ورجال يُكبّرون بصوت مسموع: الله أكبر، الله أكبر. دائم الله، لا إله إلا الله.. والجميع يسيرون حاملين مناديلهم، استعدادا لهطول الدمع، قاصدين دار أبي إبراهيم، مشيّعين بنظرةٍ، فيها من الأسف والشماتة والتساؤل عمَّن سيرث ثيلا إبراهيم القائمة على التل المقابل لمقام الخضر، الثيلا التي لم يسكنها صاحبها بعد، فما زال هناك من يزيّن غرفها بزخارف من جبصين.

– آمين! استجاب الرجال بعد أن قرأ أول الشيوخ الواصلين الفاتحة، طالبا الرحمة لروح إبراهيم.

جاء حملة المعاول والفؤوس يسألون عن مكان حفر القبر، قال الشيخ:

– قرب الخرنوبة في طرف المقبرة مكانٌ جيّد يا بني، ما رأيك يا ابن أخي سمير؟ جاء أحد الفتيان من غرفة النساء صائحا:

– أم إبراهيم تقول عند القيلا.

– احفروه على يمين السنديانة! قال الشيخ. كان الشيخ أبو شوقي يعرف الموقع جيدا، كان قد أقام الصلاة هناك ليبارك الله لإبراهيم عمارته ويزيد نِعَمه عليه. نحروا عجلا في ذلك اليوم، يوم تأسيس العمارة، ووزّعوا دمه في حُفَرِ الأعمدة، مصحوبا بدعاء الشيخ أبي شوقي الذي احترف الدعاء والصلاة على الموتى بعد ثلاثين عاما من خدمته في الشرطة والأمن السياسي، وشووا اللحم وشربوا من عرق التين سبع زجاجات.

– احفروه هناك، عمّقوه ووسّعوه، عجّلوا، النهار قصير، بارك الله بكم. أكّد الشيخ، ثم راح يتحدّث عن حاجة الإنسان إلى الموت، داعيا الناس إلى التفكّر في حكمته.

كان غسّان وأبوه صافي من أوائل الواصلين إلى بيت أبي إبراهيم. هناك شغلا مكانا في صف الكراسي قبالة الشيخ أبي شوقي، وغير بعيد عنهما جلس عزيز. كان عزيز يقضي إجازة قصيرة مع أهله في الضيعة، أمّا كاسر وغريب فكانا، في هذه الأثناء، في دمشق. كانا في عامهما الثالث بعد التخرّج يبحثان عن فرصة عمل، أي عمل، دون جدوى، بعد أن قنطا من إمكانية التعيين في سلك التعليم، وأُغْلِقَتْ أبواب الدراسات العليا أمامهما، وبعد أن أحرق رجال بوطلال الفلوكة الصغيرة التي اشترياها من أحد الصيادين عتيقة ورمماها حالمين بصيد السمك وتدبّر أمور العيش، في ذلك الليل شاهدا قاربا، ينطلق منه ضوء كشّاف مبهر، يتقدّم نحوهما بسرعة جنونية.

– حاذر، صاح كاسر، تجنّبه كأنه ينوي الاصطدام بنا، يبدو أنّهم جماعة بوطلال!. دار القارب الغريب حولهما، ثم توقّف. كان فيه رجلان مسلّحان. أمر أحدهما:

– انزلا منه، هيّا! حاولا فهم السبب، فقد سجّلا القارب بصورة نظاميّة في مديرية الموانئ، وحصلا على رخصة الصيد المطلوبة، كان الجواب احتكاك الحديد بالحديد، تلكّآ بمغادرة القارب، تشاغلا بلمّ أشيائهما الملقاة في قاعه، تناوبا توسل السماح لهما بالوصول إلى الشاطئ وحلِّ الالتباس هناك.

– انقلعا! هيّا انزلا هنا! أمرهما صوت عجزا عن رؤية صاحبه وراء الضوء المُعمي للعيون.. تباطآ، نفذ صبر صاحب الأمر، أخرج شيئا أسطوانيا من حزامه، نزع منه شيئا ما، خرجت منه حزمة نار شديدة التوهّج، ألقى به في القارب على صفيحة المازوت. عادا بلا شيء يتصببان ماء مالحا، في ليل ربيعي بارد.

دُفن إبراهيم في غيابهما، على تلّ يرى البحر. كثيرا ما كان كاسر، قبل أن يشتري إبراهيم قطعة الأرض تلك، ليبني قصره الصغير عليها، يجلس متكئا على جزع تلك السنديانة العتيقة متأمّلا البحر، متابعا سفنا تبحر إلى حيث يحمل الحلم ركّابها. بعد أربعين أمّون، لجأ كاسر إلى تلك السنديانة، جلس هناك، وضع في مسجّلة أمّون شريطا لأم كلثوم، أخذ حجرا أبيض صغيرا بحجم عقلة الإصبع، حفر عليه اسم أمّون، أعمل النصل في ثلم ضيّق في جذع السنديانة، وسّعه ليصلح مهدا، أرقد فيه اسم القتيل، غطّاه بقطعة من اللحاء، ثم استلقى يتملّى خضرة السنديان، تاركا لأم كلثوم أن ترقي الجرح.

نُقل التابوت، على غير عادات عين الغار، في سيارة جيب سوداء كبيرة، لحقت بها اثنتان مثلها، تدافعت النسوة للفرجة على الرجال الغرباء.

في ذلك الليل، حين سمع درويش بحرق رجال بوطلال لقارب كاسر وغريب، رأى حلما، هو في الواقع لم يكن حلما إنّما استعادة لجلسة من جلسات التركيز التي كان يخضعهم لها المعلم جاد، محاولا تنمية قدرتهم على رؤية أهدافهم الحقيقية دون مشوشات وقدرتهم على الوصول إلى تلك الأهداف.

– لا سلوى! لا ترشّي درويش بالماء...انتبهْ درويش، سلوى وراءك! نبّهه المعلّم جاد.

..يستجيب الماء لعينيّ– يقول درويش لنفسه– تتسع دائرته، أوسّع القارب معه، من مكان ما من عمق البحر تحضرني الأخشاب اللازمة لبناء قارب آخر في حال غرق قاربي.

– ما هو حاصل 15 ضرب 3 تقسيم 45؟

..يبتسمُ درويش دون أن يُظهر ابتسامته.. يأمر الموج بالعلو والهبوط، يتأرجح القارب، يأمر الموج بالهدوء فلا يستجيب، شيء ما في العمق يدفع الموج لتسلّق جدران القارب...

– درويش هل أخبرتك أمُّك بلون الأفعى التي قتلت أباك؟

.. لا بد أنّ غواصة إسرائيلية تدفع الماء إلى أعلى ليبتلع قاربي– فكّر درويش–..لا بد من أن أقضي على الغوّاصة الإسرائيلية. يجب أن ينزل أحد ما من القارب ويذوّب الغوّاصة المهاجمة بالملح كما تُذوّب أمّي البزاقات.

– كيف تنقذ ثعبانا من الموت والذي قتل أباك ثعبان؟!

..سيغرق القارب! لو تتوقف عن هذه الأسئلة الآن يا معلّمي.. يقفز أحد ما عن سطح القارب إلى الماء.. هو كاسر، بكامل ملابسه يقفز في الماء، يغطس، يقطع الحبل الذي يربط القارب إلى الغواصة، يبصق غريب بصقة ثقيلة تأتي على ظهر الغوّاصة، تُسقط الغوّاصة إلى القاع.. يتوازن القارب.

– لم تجبني يا درويش عن سؤالي! كيف يمكن أن تنقذ ثعبانا والثعبان قتل أباك؟ يسأل المعلم جاد.

...لم أفكّر بهذا الأمر. لا تجعلني أندم! يكزّ درويش على أسنانه كي لا يقول شيئاً مما يفكّر به.. قوّة عجيبة تدير القارب إلى الخلف، يتجه القارب نحو درويش، يأمره بالتوقف فلا ينصاع، بل تزداد سرعته، ما يفصل درويش عنه قليل، سيصطدم بجبهته، يجب أن يفعل شيئا، يجب أن يُفجّر الغوّاصة قبل وصولها إليّه.

– لكن كاسر وغريب في الماء– يستدرك درويش– سيودي بهما الانفجار، سيموتان لو فعلت، يجب أن أنزلهما أوّلا.
– بل كاسر وغريب هنا.. يُخرج ثعبان أسود كبير رأسَه من الماء، يضحك، يقول لدرويش:
: لا تخف، أنا أمازحكم، أنتم أصدقائي سأترك لكم القارب..
يظهر شراع أصفر يرفرف فوق القارب كراية عظيمة! لماذا هو أصفر؟ ما معنى أن يكون أصفرَ؟ أليست راية الطاعون!؟ يتساءل درويش.

– انتبهْ درويش على رقبتك دبّور. يمرّر المعلم جاد سنبلة شوفان برّي خضراء على عنقه.

يصفع درويش ذلك المكان من عنقه الذي يحس بدبيب عليه. واحد ما يلوّح له عن ظهر القارب، يمعن النظر فيه، ينساب بجسده الأسطواني الأسود اللامع عن سطح القارب إلى الماء، يصرخ درويش دون أن يرفع عينيه عن القارب:

– كاسر، سلوى، غريب تمسّكوا بي جيّدا! نحن جميعا غارقون، لكننا لن نموت. يقفز درويش من مقعده في غرفة الصف الصفراء مقهقها.
– أنا الآن يا معلّمي من لحم القارب، فكيف يأخذون القارب دوني؟!
– أنت شيطان،– يضحك المعلّم جاد –، أحسنت..

يُطرق درويش للحظات متذكّرا آخر نزول للأفاعي من سقف بيت جدّه. كان الشيخ ينظر مبتسما حين يأتي عابر غريب، يخرج الأفاعي من بين القصب والبلاّن المرصوص تحت طين السقف. كان الرجل العابر يخرجها ويأخذها إلى مكان ما، كان يفعل بها شيئا ما، لم يقل يوما ما هو. أمّا الشيخ خليل جد درويش فلم يكن يسمح له بأخذها، بل كان يرجوه إعادتها إلى السقف، بعد أن يُرقّصها العابر الغريب على أنغام الناي. أمّ درويش فقط كانت تحتج، وتصرخ أحيانا باكية، ثم لا تلبث أن تهدأ وتنام مع حلول الظلام تحت سقف الأفاعي.. ودرويش ينام، وأنا أنام، فإذا بأفاع تنزل من السقف وتصعد إليه.
ذات مرّة رأيت ثعبانا كبيرا ينزل من السماء وثعابين أصغر كثيرة تصعد لملاقاته. كان منظرا جميلا حاولت رسمه عدّة مرّات، لكنّ شيئا ما كان ينقصني كلّ مرّة. فثمّة أشياء لا تُرسَم. درويش على حق.

–14–

باب الريح

ما أن خرجتْ نجوى حتى راحا يقهقهان. وقف بسّام عند حافة السرير معيدا تمثيل المشهد، دافعا بوسطه في الهواء حيث كانت نجوى مقيّدة منذ قليل. وبينما تصاعدت قهقهات بسّام وارتسمت على وجهه علامات الرضى والتباهي برجولته، راحت ضحكة عزيز تخفت شيئا فشيئا، وراح شيء من الكدر يخالط نفسه.

– اضحك، اضحك.. خسرنا البنت كرمى لعيونك..

– لا تخف، يوم والثاني وترجع مثل الكلبة وتركع عند رجليك.

– وإذا لم ترجع! أدقّ فيك أنت.. أنت محلّها، أو تجلب لي صاحبتك نهى بدلا منها..

– أي صاحبة!! لا حبيبي، لا.. نهى حبيبتي وما هي قحبة مثل صاحبتك. خذ صاحبة رئيسك سوزان! سوزان ظريفة، وما عندها أحد اليوم. أنت قلت: من أسبوعين قال لي رئيس الاتحاد: لا تدخلها بعد اليوم إلى مكتبي، وإذا اتصلت قل لها غير موجود.. وقلت: هي كل يوم تدور حول المكتب مثل السكرانة.. خذها، ممتازة.. ووجهها أحلى من وجه صاحبتك الشريفة، وأكيد بضاعتها أحسن من بضاعة صاحبتك السوداء.

وفيما كان بسّام يتحدّث بسخرية، ومن موقع المنتصر، انصرف عنه عزيز إلى المطبخ وهناك راح يغسل وجهه بتيار قوي من الماء البارد. شعر عزيز بالندم على ما فعل وتمنى لو يذهب بسّام الآن إلى الجحيم. بل راح يفكّر بطريقة للانتقام من بسّام: لكن أية طريقة لا تعيد لي الاعتبار إلا ركوب نهى حبيبة هذا الكلب– فكّر عزيز باحثا عن طريقة يهين فيها بسّام– نعم نهى، وهنا، على هذا التخت بالضبط، سأركبها وسأصوّرها عارية وأقدّم له الصور! ومع أنّها لا تعجبني لكنني سأفعل كل شيء من أجل الوصول إليها.. وبعدها سيرى هذا الكلب من هي القحبة صاحبتي أم صاحبته!.. لكن تفكيره هذا لم يعد الهدوء إلى مزاجه فسرعان ما تعكّر بعد صفوة قصيرة:.. ذلك، أيضا، لن يعيد إليّ الاعتبار.. فلن يقدّم لي ابن القحبة صاحبته نهى كما قدّمت له نجوى. المشكلة أنني أنا الذي قدمتها له، أنا الذي بنفسي فتحت ساقيها له. لم أفكر بأنها أحسن منه وبأنه لا يستحق لمسها.. أردت أن أمارس الجنس جماعيا ونسيت بأن بسّام سيتباهى بأنني قدمت له صاحبتي، سيتباهى بذلك حتى آخر العمر.. وسأبقى بنظره تافها وبنظرها خائنا وسافلا. نجوى طيبة وتحبّني! أمّا أنا فمن أجل مَن فعلت بها هذه الفعلة القذرة! من أجل الكلب بسّام.. نجوى تحبّني، حقيقة تحبّني، أمّا هذا الكلب فلو أنّه يستطيع ركوبي لركبني.. هذا البزّاقة! نجوى بالتأكيد لن تسامحني. لن تصدقني بعد اليوم، ولن تصدّق أنني أحبّها. بل ستنتقم مني انتقاما شديدا إذا استطاعت. ومن حقها أن تفعل ذلك.. نعم! يقولون الحب يتحوّل إلى كره ثم إلى بغض. سيكون الحق معها حتى لو قتلتني. هي تنتظر مني الحب وأنا أفتح فخذيها أمام هذا الكلب الجربان! هو سيتباهى بذلك في كل مكان. سيحكي لهم كيف قدّمت له حبيبتي، نعم هو سيقول إن نجوى حبيبتي، وقد يقول بعد سنوات بأنني قدمت له زوجتي.. سيحكي لأصحابه كيف أمسكت بها وساعدته على ركوبها، وربما سيقول إنني أمسكت بخصيتيه.. سيقضي عليّ هذا القاذورة، ولن أستطيع رفع رأسي أمامه بعد اليوم. لا، لا.. هذا غير معقول! يجب أن أفعل المستحيل من أجل الوصول إلى نهى، ويجب أن يكون هو موجودا عندما أركبها، يجب، على الأقل، أن يتفرج على ذلك، حتى لو اضطررت إلى ربطه هنا.. نعم، نعم هي فكرة ممتازة.. بعد أن توافق نهى على المجيء معي، سأقنعها بأي شكل أن تأتي. وقبل الموعد أجرجره إلى هنا وأربطه على الكرسي أو حتى على التخت، وأركبها أمام عينيه، بل وأقذف على وجهه هو، حتى لا يتمكّن من رفع عينيه في وجهي بعد ذلك.. عند ذلك فقط تُرَدُّ لي كرامتي. أمّا الآن فليضحك هذا البزّاقة. سنرى من سيضحك أخيرا!

– كيّف، كيّف.. اضحك ا!!

– وهل أنت منزعج!؟ ما الذي يزعجك؟ هوّن عليك. عندنا ألف زميلة بالجامعة. لا تنتهي الدنيا عند نجوى.. أمّا إذا كنت خائفا من انتقامها فاترك الأمر عليّ أنا. أنا سأدبر لها حلا يسكتها تماما. هي طبعا ستطمر نفسها مثل الخرية وتسكت، فهي لن تفضح نفسها. ولكن، احتياطا، سأفكر بشيء يجعلها تسكت مئة بالمئة. لا تقلق، اترك الأمر عليّ أنا.

– اتركها بحالها! لا علاقة لك بها.

– كأنّك اكتشفت أنّك تحبها بعدما شفتها تحتي! وكيف لا علاقة لي بها أنا الذي ستكون لي علاقة بها بعد اليوم وسترى كيف ستصاحبني أنا وتهملك أنت.. فهي لا تملك شيئا ضدي أنا. أنت الذي دعوتني وأنت الذي أقنعتني بأنها موافقة وتتمنى أن ننام معها في ليلة رأس السنة.

نظر عزيز إلى عيني بسّام المهدِّدتين، عاجزا عن قول شيء. فهل يقول له إنّه سينتقم منه شر انتقام، أم هل يقول له إنّه نادم، وإنها تثير عطفه الآن، وإنّه سيخرج للبحث عنها في الشوارع والاعتذار منها، وإنّه سيسأل عمّا إذا كانت لجأت إلى غرفتها في المدينة الجامعية، وإنّه قد يكتب لها رسالة اعتذار وندم ويطلب من البوّاب إيصالها لها..؟ فكر عزيز بهذه الأشياء، وأشياء أخرى كثيرة. فكّر بأن نجوى قد تقتل نفسها. فقد يدخل البوّاب ويطرق باب غرفتها في المدينة الجامعية، فلا تفتح له. فلا بد أنّ زميلتيها في الغرفة مسافرتان إلى أهليهما في ليلة رأس السنة. البوّاب رآها داخلة منذ قليل. ومع ذلك فهي لا ترد. ستبقى الرسالة في يد البوّاب، وقد يفكّر بحشرها تحت الباب. وفي الصباح، أو عندما تعود جارتاها إلى الغرفة تجدانها مشنوقة، وتجدان الرسالة.. فكر عزيز بأن عليه الإسراع بالخروج الآن والبحث عنها: يجب الوصول إليها قبل أن تنتحر.. نعم، قد تنتحر بعد أن تترك هي رسالة تصف فيها ما حصل وعندها تحلّ المصيبة على رأسه هو عزيز... راح شعور بالخوف يحل محل شعور الندم والغضب على بسّام، خوف من أن تفكّر نجوى بالانتحار وأن يفتضح أمره وأمر بسّام معا.

– أنا خارج، ابق أنت هنا، سأعود بعد ساعة!

– إلى أين!؟ – سأل بسّام وقد اختفت ملامح السخرية من عينيه– في هذا الوقت. إذا كنت تفكّر باللحاق بها، فالأفضل أن لا تفعل.. فالصباح رباح. اقعد يا صاحبي. صدّقني هي سترجع بنفسها. لم يعد لها غيرنا، خاصّة بعد هذا اليوم.

قال بسّام ذلك وأراد أن يكمل بأنها قد يكون أعجبها أن تكون بين رجلين، وربما ندمت على أنّها لم تحصل عليهما معا، وربما هي تؤنّب نفسها على جبنها، أو ربما هي تحلم بأن تعود إليهما وتستلقي بينهما وتحصل على متعة فاتتها منهما معا. لكنّه أحجم عن قول ما خطر بباله حين رأى القلق في عيني عزيز.

– سأتمشّى وأشمّ الهواء قليلا.. انتظرني هنا.. أو الأفضل أن تذهب أنت! لا تنتظر عودتي.

قال عزيز ذلك وهو بالباب. وما أن خرج إلى صقيع الشارع، حتى راح بسّام يستعيد لحظات تلصصه من شق الستارة واشتهائه لجسد نجوى بين يدي عزيز ثم دخوله عليهما، ثم نفورها غير المتوقع وانكماش جسدها. راح يتذكّر الغضب والرجاء في عينيها. هَالَهُ تذكر الشرر الذي خرج من عينيها. أرعبه أنّ العينين يمكن أن تنتقما، فراح يرسم خطة لغسل رغبتهما بالانتقام، خطة تجعلها تعود إليه نادمة، فلا يرى في عينيها إلا الندم، ولا ترى عيناها إلا ما فوتته من متعة ممكنة. فكّر بسّام:

– سأستدعيها غدا، وستكون حمقاء إذا لم تأت. هي بالتأكيد ستأتي. فهي ذكية وتعرف أنّ من مصلحتها ومصلحة أصدقائها أن تأتي دون تردد. سأقول لها بأنها تعجبني من زمان، وبأن الشيء الوحيد الذي منعني من مفاتحتها بالأمر هو علاقتها بعزيز. فقد كنت دائما أحسده على علاقته بها. وبأن الذي حصل فرصة طيّبة لقطع علاقتها بعزيز وبدء علاقة رائعة معي. فأنا رجل وسأحميها ولن أسمح لأحد بالتطاول عليها: عزيز حيوان ولا يستحقك. فلا يعقل أن تحب واحدة مثلك شخصا كريها مثله. تخيلي هو منذ اليوم الذي أعطاك فيه تلك المجلّة.. بل أنا أكذب! الحقيقة، منذ أول لقاء جنسي بينكما وهو يحكي لي عن تفاصيل جسمك، محاولا إثارتي بكل الطرق، يحكي لي كيف ينام معك.. يصف لي كل شيء، يحكي لي عن أعضائك وهو يفرك قضيبه.. يحكي إلى درجة أنني صرت أحلم بك، صرت أنتظر اللحظة التي أراك فيها، وإذا به يدعوني لقضاء ليلة رأس السنة معك. قال لي: هي تريدك أن تكون معنا. فقد كنا نتفرّج على فيلم جنس، يقصد أنتِ وهو كنتما تتفرجان، وحكيتُ لها كيف أنني أتخيل أننا نمارس الجنس نحن الثلاثة معا. فقالت لي، أي أنتِ قلتِ له: إذا كنت تريد أن تدعو بسّام لنسهر معا ادعه. قلت لها، أي هو قال لك: ونتفرج على فيلم معا. فأجبتِ: ونتفرّج ونفعل ما تريد، ونقضي سهرة جهنّمية.. هكذا قال لي عزيز، ودعاني كما رأيتِ، ثم هو من اقترح في الساعات الأخيرة بأن أدخل بهذه الطريقة. قال: قد تخجل فتتراجع في اللحظة الأخيرة، وتخرب السهرة. فالأفضل أن تدخل عندما تكون مثارة، وقال لي بأن أتابعكما من النافذة وبأنه سيعطيني إشارة كي أدخل في اللحظة المناسبة بحيث لا تريننني إلا بعد أن أكون قد أولجته، وهو من زّيت مفصلات الباب والقفل بحيث لا تشعرين بدخولي.. أمّا إذا لم تأت للقائي، أو لم تقبل بهذا الكلام، ولم تستجب لدعوتي لها بالصداقة– فكّر بسّام– فأعرف كيف سأنتقم منها. ولن يعرف عزيز بذلك إلا بعد فوات الأوان. وليضرب رأسه بالحائط إذا لم يعجبه الحال.

أوّل ما خطر ببال بسّام، في حال رفضت نجوى صداقته، أن يجعلها تلحق بأصدقائها الشيوعيين في السجن. وكان ذلك أمرا هينا عليه. لكنّه سرعان ما تردد: لا، ليس هذا هو الحل الأمثل، بل يجب أن تبقى بمتناول يدي، آتيها عندما أريد، وأستخدمها ضد عزيز عند اللزوم. فمن السهل إدخالها السجن. ولكن ماذا سأجني من ذلك؟ لا شيء! ستصبح بطلة في نظر الناس، وستصبح عدوة بنظر الحزب والمخابرات، وسيكون بمقدور عزيز أن يتباهى بأنّه أهان عدوة بهذه الطريقة، وبأنّه تقصّد فعل ذلك بها، بصفتها عدوة للسلطة، قبل أن تعتقل، وسيزداد عزيز حظوة عندهم وتتعزز مكانته، بينما سأتحوّل أنا إلى مجرد أداة في نظرهم. بالتأكيد، بالتأكيد، فلا بد من أن يكون عزيز قد قدّم تقارير عن علاقاتها بالشيوعيين.. فهو نفسه حكى لي عن هذه العلاقات. هكذا إذن، فلن أتركك تخرج من ورطتك رابحاً يا عزيز.. بل يجب أن تتحول نجوى إلى صفي، ومن أجل ذلك لا بد أن تبقى بين يدي، ولا بد أن أحميها من تقارير عزيز.. نعم، ويجب أن أحكي لها عن أنّه كان يكتب تقارير للمخابرات ضدها، ولا بد أن تصدقني بعد كل الذي فعله بها. ثم ما الذي يمنعها من صداقتي بعد أن...هل يمكن أن تتمنع عني بعد أن خَبِرتني!! مستحيل! ولكن ماذا لو تمنّعت؟ إذا تمنّعت أو رفضت صداقتي فهناك حلّ ممتاز: ستصبح عاهرة بنظر الجميع، بل يمكن أن تُفْصَل من الجامعة. برافو بسّام برافو..عقلك ما زال ممتازاً– راح بسّام يمتدح نفسه، فاركاً راحتي يديه واحدة بالأخرى– ممتاز.. مجلّة، بل عدّة مجلات والملازم أوّل خالد والبهدلة مضمونة والفصل من الجامعة أكيد.

كان لدى بسّام صديق في فرع الأمن الجنائي هو الملازم أول خالد النجّار. كان خالد حريصا على صداقته ببسام، وكثيرا ما كان يزوره إلى الجامعة بلباسه المدني، ويصرّ على تناول فنجان قهوة معه في مكتب أمانة السر. كان بسّام يهاتفه ويدعوه حين يكون أمين الفرع غائبا، ويكون بإمكانه التصرّف بالمكتب بحرّية.. وغالبا ما كان يأتي خالد، متدبرا

أمر مهمّة رسمية إلى الجامعة. كان خالد على علاقة أيضا برؤساء المفارز الأمنية في الجامعة. كان يعرف الجميع: رئيس مفرزة الأمن العسكري، والسياسي، وأمن الدولة.. وكانوا يرحّبون بوجوده في الجامعة، ويدعونه لشرب فنجان قهوة معهم هنا أو هناك. فخالد خريج كلية الحقوق في هذه الجامعة، وهو منذ كان طالبا تربطه علاقات طيبة بهم. كان خالد يعمل عميلا مزدوجا– لرئيس الجامعة من جهة، لما بينهما من علاقة قربى عبر النساء، ولرئيس فرع الأمن السياسي من جهة ثانية. ولم يكن ذلك يعوقه عن مصادقة عناصر مفارز الأمن الأخرى. أمّا صداقته ببسام فكانت تجلب له ما يتمناه وما لا يريد لأصدقائه الأمنيين أن يعرفوه. وهكذا كان بسّام يرتّب أمر مجيء بعض الرفيقات المختارات إلى مكتبه، وهنا لا يبخل الرفيق بسّام، طبعا، بتعريفهن على صديقه– الشخصية المهمّة في المدينة. لم يكن بسام يقدّم هذه الخدمات مجانا لخالد. فقد استقرت بينهما قواعد لعبة لم تكن تحتاج إلى الكثير من الكلام. بسّام يضع بين يدي خالد الرفيقات الطامعات بعلاقات مميزة توصلهن إلى مواقع عليا، مقابل أن يكون أول العارفين بأخبار الحوادث الجنائية في الجامعة، الأخبار التي تزيده قوة: المعرفة قوّة! هكذا يقول سيّدهم لينين! يضحك بسّام.. أجل قوة. أمّا هو، أي بسّام فيقدّمها إلى فرع الأمن العسكري قبل الجميع، وقبل أن يعرف بها حتى رئيس مفرزتهم في الجامعة، ثم يقدّمها إلى أمين فرع الحزب، مثيرا لديه تساؤلات مُرّة عن المصادر التي يستقي منها معلوماته، تساؤلات تجعل رئيسه يخشاه. لم يكن بسّام يتردد بإرهاب رئيسه، بل كان يميل إلى ذلك ويعدّ ذلك من أصول العمل.

كانت الخطة التي بدأت تكتسب ملامحها النهائية في رأس بسّام غاية في البساطة: يتصل بسّام بالملازم أوّل خالد، ويدعوه هذه المرّة إلى العشاء في مكان ما ويتفق معه على التالي: يتدبّر الملازم أوّل خالد أمر إحضار عدد من مجلات الجنس ويسلّمها إلى بسّام؛ يتدبّر بسّام أمر حشرها في حقيبة نجوى عن طريق إحدى زميلاتها في قاعة المحاضرات؛ تدخل دورية الأمن الجنائي القاعة بناء على إخبارية عن نشر الطالبة نجوى ساعيد الدعارة في الجامعة؛ تفتش الدورية حقيبة نجوى وتعثر على المجلات وتقودها إلى قبو الفرع الجنائي؛ يرفع الفرع الجنائي كتاباً إلى رئيس الجامعة؛ يخبر الملازم أوّل خالد الرفيق بسّام برقم وتاريخ الكتاب، ويزوّده بنسخة منه؛ يتولى الرفيق بسّام أمر الضغط على رئيس الجامعة، عن طريق أمين الفرع، لإحالة الطالبة نجوى إلى لجنة التأديب وفصلها من الجامعة فصلا نهائيا، ونشر قرار فصلها معللا بالأسباب في لوحات الإعلان الرسمية في جميع كليّات الجامعة؛ وإذا ما أبدى عزيز أي اعتراض أو امتعاض، أو حاول التطاول على نهى في هذه الفترة سيوصي بسّام صديقه خالد بالتحقيق مع عزيز بصفته مشاركا في نشر الدعارة في الجامعة، وستشهد نجوى على ذلك وتؤكد بأنه أوّل من أعطاها مجلة: هي، أصلا، ودون تدخّل، ستتهم عزيز. سيكون أول من يخطر ببالها، حين تفاجئها الدورية بإخراج المجلات من حقيبتها.. سأضرب عصفورين بحجر واحد! فكّر بسّام معتزّا بعقله الماهر.

ما أن انتهى بسّام من استعراض خطّته حتى صلّى لربه من أجل أن لا يضطره إلى تنفيذها. وبينما كان يختتم صلاته متطلعا إلى السماء، خطرت بباله قاعدة كان قد تعاهد مع عزيز على اتباعها، وهي أن ينذر أحدهما الآخر قبل أن يوجه إليه الضربة القاضية في حال اختلفا في يوم من الأيام.. فكّر بسّام: سأنذره، ولكنني لن أطلعه على أي من التفاصيل، وهو سيفهم أنني جاد، سأرى على أية حال، هل ستأتي نجوى إليّ أم لا! أمّا إذا جاءت، فسأعرف الكثير من المعلومات التي كان يبخل بها عزيز عليّ عن أصدقائها، سيكون عليها أن تخبرني بكل شيء عنهم، وعندها، فقط، يمكن أن تصبح صديقتي.

-15-

درويش يخوض في البرك الموحلة

تأكدت نجوى من أن الرجل الوحيد في الشارع الممطر، الرجل الذي تراه من ڤرندة المطبخ يسير بخط مستقيم، دون أن يحاول تجنّب البرك التي تعترض طريقه، هو درويش. كان درويش يمشي، حاشرا يديه في جيبي سترته، بخطوات ثقيلة يخبط الأرض بقوة، مركّزا نظرته أمام قدميه، كأن شيئا مما يحيط به لا يعنيه. وإذا به يقف فجأة. رأت نجوى ظّلا أسودَ يجتاز الشارع بسرعة أمام درويش. كانت تلك قطة سوداء. عاد درويش من روسيا بعادة التشاؤم من قَطْعِ قطة سوداء الطريق أمامه. توقف للحظات. فكّر: إذا كان من شأن الماء أن يمتص الإشعاعات الذرية! فهل يعقل أنه يعجز عن امتصاص الشؤم المنطلق من عيني قطة سوداء، أو غسل الشر المتجمّع في مخالبها؟ ولكن هل يريد درويش حقاً غسل الشر الآن؟! أم أنّ شيئا مما يختبئ تحت مخالبها قد يعنيه في هذه الساعة بالذات؟ : لتقطع هذه السوداء طريقي ألف مرّة ذهابا وإيابا، فما فيها من شر سيكون لي وليس عليّ. حتى ما يذوب منه بالماء سآخذه، سأغتسل به.

تذكّر درويش كيف كان ينتظر ذبح الثيران في الأعياد. كيف كان يذهب برفقة كاسر، ليغمسا أيديهما بدم ثور ذبيح. كانا يؤمنان بأن ذلك سيغرس فيهما قوة الثور وغضبه ورغبته في الانتقام وهو تحت السكّين. لم يبحث أي منهما عن تفسير لذلك، ولم يسألا أيّاً من الشيوخ أو الكبار عن علاقة طقسهما بالحقيقة. كانا يفعلان ذلك بصمت ويصرّان، رغم تأنيب أميهما، على عدم غسل الدم عن أيديهما الصغيرة قبل حلول الظلام. لسبب ما كانا يعتقدان بالحاجة إلى الظلام. كانا يحدسان بأن الثور الذبيح لا يمكن أن يحلّ فيهما إلا تحت جنح الظلام، وأثناء الليل سيكون قد حل فيهما تماما وتماهى مع دمهما. مرّة، في إحدى الظهيرات القائظة، أراد درويش أن يختبر قوة الثور التي فيه. كان واثقا من أنّ دمه الذي حلّ فيه دم ثور ذبيح ثلاث مرّات بات قادرا على قتل العظاءة الرمادية الكبيرة التي تقف متحدّية على صخرة أمام عينيه القاتلتين. انقضّ درويش على العظاءة في غفلة منها وأمسك بها بكلتا يديه. راح الحيوان اليابس يتحرك بعنف محاولا التملص من يدي الصغير، راح يصدر أصوات استغاثة. لكن يدي درويش لم تفلتاه، بل راحت اليسرى تنحشر في الفم صارخة به: عضّني، هيا عضّني! كانت العظاءة المضغوطة بقوة بين أصابع اليمنى أعجز من أن تفعل ذلك. ضحك درويش وهو يفلت الوحش الصغير المهزوم، شاعرا بالنصر. أثبت درويش بالتجربة أن دم الثور حل فيه، وأنّ روح الثور القوية الغاضبة هي روحه الآن. وأنّ :أحدا لن يستطيع أن ينال مني بعد اليوم إذا استطعت إيقاظ روح الثور الكامنة في دمي. أخبر درويش كاسر بتجربته، فتعانقا فرحين وتعاهدا على أن يكونا معا دائما، فمعاً لن يستطيع أحد قهرهما. فلا أحد يستطيع التغلب على ثورين متمردين على الموت.

رأت نجوى كيف راح درويش يجرف ماء الشارع الذي عبرته القطة السوداء براحة يده، وكيف راح يرشق به وجهه.. كرر درويش دفع الماء إلى ساعديه ثم وجهه سبع مرات، ثم خطا خطوة واسعة إلى الأمام، متابعا بعدها خَطْوَهُ الثقيل باتجاه زاوية الشارع، حيث عليه أن ينعطف قليلاً إلى اليسار صوب بيت نجوى. بدا لنجوى كأن درويش عند وصوله إلى زاوية الشارع سيقوم بتحويل اتجاهه، في زاوية قائمة، عبر حركة حادّة واحدة، كما يفعل الجنود في استعراض عسكري. بدا لها، للحظة، أنه ينظر نحوها فلوّحت له، لكنّ أية استجابة منه لم تصدر. لم يكن درويش ينظر إلى أي

مكان هنا. قدماه هما اللتان تولّتا قيادته إلى الباب الحديد المطلي بالأحمر. حين وصل درويش إلى الرصيف المقابل واتجه صوب باب البناية، بدا لنجوى كأنه سيدخل البناية دون أن ينتبه لوجودها على الشرفة، لكنّه توقّف فجأة، كأنّ أحدا ما أمره بذلك، ونظر إلى أعلى بالتفاتة حادة، فإذا بعينيه تلتقيان بعينيها في منتصف الطريق. أخرج درويش يده اليمنى من جيب سترته وأشار لنجوى بالنزول، ثم استدار وخطا بالاتجاه الآخر، دون أن ينتظر منها ردا على دعوته، أو يخطر بباله أنها قد لا تأتي أو لا تستطيع المجيء.

– عزيز عندي!

– ماذا فعلت به؟

– لا شيء.. فقط، أريدك أن تكوني معي. أريدك أن تشهدي على ذلك. يجب أن تشاهدي كل شيء. لا بد من ذلك.

– عن أي شيء تتحدّث! ماذا تريدني أن أرى! درويش، أرجوك، لا توسّخ يديك بهذا الكلب. إياك أن ترتكب حماقة. هو لا يستحق حتى أن تبصق في وجهه.

– لا تجعليني أندم على أنني أتيت! بإمكانك أن تعودي إلى البيت، فأنا لا أحتمل أن يشوشني أحد الآن. أنا جئت إليك لأنك الشخص الوحيد الذي يمكن أن لا يتعبني باعتراضاته السخيفة في لحظة حاسمة لا تحتمل الفلسفة، وإذا بك مثل البقية يستحق! ولا يستحق!.

– إهدأ أرجوك! أنا لم أقل شيئا. أنا فقط أخاف أن تتورط مع هذا الكلب، أنا فقط أخاف عليك. فأنت لم تغب عن بالي طوال المساء لحظة واحدة. شعرت بقلق خفي، وكنت سآتي إليك بنفسي لولا وجود ضيوف عندنا. خفت أن يكون قد حدث لك شيء.. وها أنت تقول لي عزيز عندك. أنا أتوجس شرا من وجوده عندك. ما الذي جاء به بعد هذا الانقطاع!؟ لماذا فتحت له الباب. اتركه في الشارع وانسه يا أخي. يا الله!

– لا تنوحي أرجوك. وفّري نواحك الآن.

– وإذا كان عزيز عندك بالبيت، لماذا تريدني أن آتي لأقابله! لماذا تفعل بي ذلك؟ هل يعقل أن تضعني في هذا الموقف، هل تعتقد أنني أستطيع النظر إليه بهدوء، أم أنّك تريدني أن أنتقم منه بوجودك؟ تريد أن تتفرج عليّ كيف سأنتقم منه. الآن فهمت. أنت تراها فرصة لأن أنتقم منه. ولكنني لا أريد! لا أريد أن أراه. ليذهب هو وقذاراته إلى الجحيم. أَهْوَن عليّ أن أموت ألف مرة من أن أجلس في حضرته. ارحمني أرجوك.

– هل يعقل أنّك لا تريدين الانتقام من عزيز بعد كل النذالة التي أوقعها بك!

– يا أخي أنا أشفق على نفسي وليس عليه هو. أنا التي سأتعذّب وليس هو. هو سيفرح حتى لرؤيتي أنتقم منه. سيشعر بأنه ينتصر عليّ مرّة أخرى. سيشعر بأنني لولا إهانة عميقة اشعر بها لما أقدمت على الانتقام. قد يتعذب ولكنه سيبتسم متشفّيا مني حتى وهو يتعذّب. سأبصق في وجهه وأبكي أنا فيما هو يبتسم، إذا جلدته سأشعر أنا بالألم فيما هو سيستمتع، سيشعر بضعفي، بالمزيد من ضعفي مع كل ضربة أوجهها إليه. عندما سأنتقم منه، عندها فقط سيتأكد من أنّه أصابني في الصميم. أمّا الآن فهو لا يعرف بماذا أشعر وبماذا أفكّر وماذا أريد أو لا أريد.. لماذا تريدني أن أقدّم له هذه الهدية!؟ لماذا تريدني أن أتعرّى أمامه مرّة أخرى.. سيفرح! صدقني، هو سيفرح لانتقامي وانتقامك منه! أفضل شيء تفعله مع أمثاله هو أن تتركهم يموتون في غيظهم. سيموت عزيز غيظا لو رآك تمر قربه دون أي انتباه كما تمر قرب حجر صغير أو كيس فارغ أو أي شيء تافه.. أن تمر ولا تنظر إليه على الإطلاق، وحتى إذا خاطبك أن تتابع طريقك، فهو لا شيء وأنت لا تراه ولا تسمعه. أن تعيش كأنك لا تراه ولا حتى تشعر بوجوده، هذا ما يقتله وليس

الانتقام منه. الانتقام سيشعره بأهميته، وكلما كان الانتقام قاسيا أشعره بأهميته الشخصية أكثر. الانتقام سيرفع من شأنه أمام نفسه. فهو يعرف في قرارة نفسه بأنه وضيع وتافه ولا يستحق أن يهتم به أحد، وإذا بك تؤكد له عكس ذلك! إذا بك تقول له: أنت مهم إلى درجة أنني أفكّر بك ليل نهار، وأفكّر بطريقة للانتقام منك. لا بد بعد ذلك من أن يشكرك من أعماقه ويدعو لك بالتوفيق، ولا بد أن يفرح من صميم قلبه، يفرح فرحا حقيقيا. فهو إذن يملك أقدار الناس ويستطيع أن يخرجهم عن طورهم ويقلبهم رأسا على عقب ويستطيع بحركة من يده أن يخرج الوحش من قفصه.. ثم بعد ذلك ماذا؟ انتقام! ما أتفه الألم الذي سيشعر به قياسا بالاعتزاز بالنفس والفرح الغامر بالنصر.. لا يا صاحبي، لا يعقل أن تهديه هذه الفرحة!

– أمّا أنا فأفكر بغير ذلك. لن أترك له فرصة ليفرح. هو قد يفرح إذا استطاع أن يرانا بعد ذلك. لكنه لن يستطيع. سيمنعه الرعب من الفرح. هل تظنينني سأقدم له فنجان قهوة!

– ولكنك لن تقتله! لا أصدّق بأنّك تفكّر بقتله. هذا جنون. هذا جنون وليس انتقاما. أنت ستقتل نفسك لو قتلته. درويش، أرجوك، انظر إلى عيني. أريد أن أرى عينيك.. انظر إلى عيني أرجوك.. درويش أنا أحبّك ولن أحتمل فكرة خسارتك. أرجوك دعنا نتوقف قليلا. قل لي قبل أن نذهب إلى البيت. هل حقا عزيز عندك؟ وهل أنت حقا عقدت العزم على أن تنتقم منه؟

– لم يعد للأسئلة معنى.. فقد فات الأوان. لكن أوان عودتك لم يفت. بإمكانك أن تتركيني أكمل طريقي وحدي، وذلك سيكون أفضل. بالفعل أفضل، فلقد أخطأت بالمجيء إليك في هذه اللحظة.. أنا بالفعل أناني، وكان يجب أن لا أقحمك بما يخصني أنا. أنا فقط أرجوك أن تنسي موضوع عزيز وتعودي إلى البيت. لا تزوريني بعد اليوم.. أنا سآتي لزيارتك لا أعرف متى ولكنني سآتي. عودي الآن. تصبحين على خير! لا تقلقي. لن أموت.

– درويش! توقّف عن هذا الهذيان. أنا معك ولن أدعك تذهب وحدك إلى أي مكان.

– بل سأذهب. اتركيني أرجوك.

لم تر نجوى عينيّ درويش من قبل كما بدتا الآن. كانت قد استندت إلى عمود هاتف في الشارع، مستجدية درويش أن يرأف بنفسه وبها. فإذا بها ترى عينين ميتتين تنظران إلى اللامكان. بدأت الحياة تعود إلى الشارع بالتدريج بعد توقّف المطر، فثمة شبّان يخرجون من دار هنا، وثمّة عائلة تخرج في زيارة أو تعود من زيارة هناك.. لكنّ عيني درويش كانتا تشغلان نجوى عن كل ما في الشارع من هدوء وحركة. ثمة أَسْوَد مُطفأ فيهما، أسود يخرج بلا ضوئه إليك مادّا أذرعه الميتة.. أدركت نجوى أنّه لا جدوى من مناقشته، أدركت أن أفضل شيء يمكنها أن تفعله هو أن تعود إلى البيت. لكن رغبة شديدة راحت تدفعها لأن تتسلل خلفه، وتدخل الدار التي اعتاد ترك بابها مفتوحا، تدخلها خلسة، وتتدخل في اللحظة المناسبة. وإذا بفكرة تلتمع في ذهن نجوى، فكرة ترى فيها مخرجا قد يعيد إليها درويش ويخرجه من سواد عينيه الميتتين.

– رأيت كاسر في منامي!

أضاءت كلمات نجوى ليل درويش السابق.. أجل، أجل.. هو استفاق متكدرا لا يعرف من ماذا! شعر بأنه كأنما كان قد رأى حلما مزعجا. لكنه يعجز عن تذكر شيء منه. أمّا الآن، فها هو يتذكره بوضوح. هو الذي رأى الحلم وليس

هي: سُلّمٌ متحرك يسير نازلا في نفق، سلّم شبيه بسلالم قطار الأنفاق، يسير في نفق مظلم إلى أسفل، وهو، هو ذاته درويش يقف في وسط هذا النفق متمسكا بشجيرة شوك على حافة السلّم المتحرك، وإذا به يرى كاسر يسحبه السلّمُ إلى أسفل.. كاسر في لباس أبيض، بل هو ملفوف بقماش أبيض يستر عريه، قماش يَعْلق طرفه بشجيرة الشوك التي يتمسك بها درويش فيخلّصه كاسر مبتسما لدرويش، متابعا النزول. يبتسم درويش عند رؤيته كاسر لكنه سرعان ما يشعر بالحزن.

يتذكّر درويش تفاصيل الأحاسيس التي انتابته عند رؤيته الحلم، يشعر بالخوف. كاسر ينزل في النفق وحيدا ملتفا بأبيض لا يثير إلا القلق والخوف والحزن، وهو درويش في منتصف النفق يتشبث بشجيرة شوك.. لكنه من جهة السلّم النازل، سيكون عليه القفز حتى يتمكّن من الإمساك بالسلّم الصاعد! لكن الصعود ليس أحسن دلالة من النزول. فالصعود إلى السماء كالنزول إلى باطن الأرض. أفضل ما يمكن أن يفعله هو أن يلحق بكاسر، أن يدركه قبل أن يختفي في الأسفل، ويعيده من هناك إلى السلّم الصاعد إلى الأرض، سيقتلع شجيرة الشوك بما عليها من تراب ويتمسك بها ليستدّل بواسطتها على الأرض، فهو يخشى بأن يتجاوز الأرض إلى السماء المميتة إذا لم يكن لديه ما يستدل به على الأرض. أجل، هي شجيرة الشوك ستعينه، ومعا سيعودان. لكن كاسر لا يلتفت إليه، لا يلقي إليه بالا. كاسر يذهب وحيدا مغتبطا كأنه لا يراه ولا يرى آلامه. عليه أولا أن يلفت نظر كاسر، بل عليه أن يوقف السير المتحرك إلى أسفل.. وبعد إذن سيكون بمقدوره أن يفعل كل شيء، سيكون بمقدوره أن يعيد كاسر: ولكن كيف لي أن أوقف كاسر؟ كيف لي أن أعيده إلى الأرض؟ وما معنى شجيرة الشوك؟ ما معنى أن يأتي عزيز بعد هذا المنام؟ لا بد أن ذلك يعني شيئا مهما. لا بد أن ينزل أحد ما ليكون كاسر قادرا على الصعود. ليس عبثا أن يرسل لي الله عزيز في هذه اللحظة بالذات.. وشجيرة الشوك لن أتمكّن من اقتلاعها إن لم ترتو تربتها.. يجب أن أرويها قبلا.

– شكراً نجوى– بدا درويش وقد انفرجت أساريره– شكرا ذكّرتني بمنامي. لم تعد هناك مشكلة. كل شيء يسير كما يجب أن يسير.. هناك إرادة إلهية تسيّر الأشياء. لا تقلقي كل شيء سيكون رائعا، كل شيء سيكون على أحسن حال، طالما هو في انسجام مع الإرادة الإلهية.. رائع، رائع، أنا أشعر بالراحة الآن، وبإمكانك العودة إلى البيت بهدوء. كوني مطمئنة. كان يجب أن آتي إليك حتى أتلقّى رسالة السماء. فلولاك لما تذكّرت الرسالة، أعني الحلم، ولما عرفت كيف يجب أن أتصرف. أمّا الآن، فأنا أعرف ذلك جيدا، شكرا للسماء، شكرا لك يا نجوى، تصبحين على خير.

قال درويش ذلك وانصرف بخطوات هادئة واثقة، دون أن يلتفت إلى نجوى التي شدت كلمات درويش وثاقها إلى العمود أكثر من ذي قبل، فإذا بها لا تعرف إلى أين تسير. فأيّ إلهٍ وأية إرادة إلهية! ومتى كان درويش يذكر الله بهذه الصورة؟

– لا يجوز أن أترك درويش وحده على هذه الحالة، لا يجوز، كان عليّ أن أوافقه حتى أعرف ما ينوي فعله. أمّا أنا فتصرفت بحماقة.. رحت أتفلسف عليه، وكأنّه جاءني ليسمع مني درسا في فلسفة الانتقام! عليّ اللحاق به، يجب أن أحميه قبل أن يتورط بمشكلة كبيرة يبدو أنّه يسير نحوها بحماسة.. ثم، ما أدراني أنّ عزيز لن يتغلب عليه وهو في هذه الحالة.. يجب أن أذهب، يجب أن أدركه قبل أن يصل إلى البيت.

تحركت نجوى مغادرة العمود فإذا بنباح كلبة صغيرة تخرج من أحد الدور إلى الشارع. خطرت بيلا القتيلة ببالها، تمنّت لو تصمت الكلبة كيلا يسمع درويش نباحها. فقد تذكّره ببيلا. سيغدو أكثر شراسة وتصميما.

-16-

بيلاّ والفرشاة

أعادت بيلا نجوى إلى ذلك النهار الجميل الذي أمضته بصحبة درويش. يومها أطلق درويش يدها. يومها قال لها أشياء كثيرة كأنّما هو يحاور نفسه، كأنّما هو يستحضر نقاشا قديما سبق أن خاضه مع نفسه مرّات كثيرة قبل الآن. يقول شيئا. يصمت. يعاود القول.

– وأنت أيضا تستطيعين الرسم، لا أحد إلا ويجيد الرسم! كل ما يقال عن القواعد والضوابط هراء. فالمهم أن تتحرري من الداخل وتتركي ليدك أن ترسم ما يسري فيها.

يومها راحت ترسم وهو يحدّثها عن بيلا...

– بيلا كلبة صغيرة. ارسمي أي شيء جميل وطيّب ومخلص ومظلوم فسيكون بيلا. لا تحاولي أن ترسمي كلبا، وأنا أيضا لن أحاول فسيكون في الرسم أشياء كثيرة مما نضيفه نحن إلى الكلب، سيخرج كلب ينبح ويعض، كلب قذر، كلب شارد، أي كلب، ولكن ليس بيلا.

كانت نجوى ترسم في هذه الأثناء كائناً حيوانيّاً لا هو كلب ولا هو غزال، وكان درويش يرسم باب دار ويكتب عليه حروفا ويرسم نجوما. لو جاء أحد يحلل هذه اللوحة المليئة بالمربعات وبالرقع المتفاوتة الأشكال والألوان التي يتراكب بعضها فوق بعض أحيانا ويتقاطع في أحايين أخرى لما ظن أن لبيلا وجودا هنا، ولصعب عليه، ربما، أن يرى أن بين هذه الرقع علاقات حب وألفة ووفاء...

إنما المشكلة في الألوان، فالألوان لا تستجيب كما يجب، الألوان تستبد، بعضها يطغى على بعضها. لو أن كل لون يشفُّ الآخر، يأخذ منه ويعطيه دون أن يفقد نفسه لكان ما نراه شيئا آخر، لكنه الطغيان في روح الأشياء جميعها. لا يكتفي اللون بملامسة اللون الآخر، بمحاولة التفاعل معه وخلق منطقة حدود جميلة قد تشغل المساحة كلها، لكنها تكون خاصة، فلا تشبه غيرها، وفي ذلك يكون جمالها، ترى فيها كل شيء، ولكنك لا تستطيع أن تقبض عليه فهو في حالة تحوّل دائم، من حيث أنها تكون التحول، وفي ذلك يكون سحرها. وتكون أصالتها من حيث أن الشيء يكتشف فيها نفسه، يكتشف وجوها لا يعرفها في نفسه، كما يكتشف غيره...

التفاعل روح جميلة مشتركة، لكنّ كيمياء اللون، اللون الذي نصنعه نحن، كيمياء ألواننا استبدادية. كل لون يحاول الطغيان، يسعى إلى سرقة روح اللقاء. الأقوى هو الذي يطغى فلا يبقى أي لقاء. ما يمتزج أقل بكثير من الممكن. ما يبقى هو الواحد ظانّا أنه يعبّر عن الجميع. كل شيء، كما كل أحد، يريد أن يعبّر عن كل شيء وكل أحد، دون أن

يأخذ خصوصية ذلك الأحد بعين الاعتبار، بل ينغلق على الضئيل الذي يلامسه منه، فلا يُبقي على شيء من شيء إلا نفسه، التي لا تكون دون غيرها إلا ضئيلة هزيلة مشوّهة...

كل لوحة بحاجة إلى كشط لإزالة روح الطغيان عنها، فثمة تحت السطح، بعيدا عن الأضواء منطقة تفاعل حقيقي مشترك، منطقة لقاء جوهري، حيث الباهت جميل وجماله في قلة سطوعه. ولكن من مِنَ الرسامين يسمح بكشط الألوان عن لوحته؟ سيكون ذلك بمثابة نزع الملابس عنه. لا أحد! كل رسام يتفنن بجعل لوحته راقصة شرقية تشف ملابسها عن جسد عامر بالأنوثة وحركاتها عن نداء اشتهاء. كل فنان يحاول أن يغويك، يخاطب لعاب العقل كيما يسيل، راسماً ما يكون بعد منديل شفّاف وبضع حركات وشريط ضيّق من القماش يذكّر بفتنة التمرد ولذة الترويض، وفنٌ أن تتخيل أنك تروّض من يفقد مقاومته بعد كلمتين أو أقل، كلمتين من قارئ ماهر للخطوط والألوان. لكنك إذا كنت تجيد فتح عينيك تحته فلست بحاجة إلى كشط الماء...

في الماء بعض من روح الألفة، روح الآخر، أمّا في الزيت فلا، ربما لأن في الماء خصوصية الخلق الذي لا يكون بواحد دون غيره. لكننا يا نجوى نرسم بالأكريليك، بشيء يشبه الماء وليس هو بالماء ويشبه الزيت ولا هو بالزيت، لا بد أن صناعة الأكريليك لم تكن صدفة، فهو من طبيعتنا التي، وهي تتحدث عن التفاعل والتمازج والاندغام، لا تعبر عن أي شيء آخر سوى نفسها ولا تكون سوى نفسها. والزيت اليوم لم يعد عطر الأشياء، لم يعد روحها التي ما أن ترفع الغطاء حتى تخرج كمارد أخرس يتبدد في الهواء دون أن يَعِدَ بشيء...

كنتِ سابقا، بحثا عن درجة ما من الأخضر، تضعين يدك على صيرورة الأخضر، على نسغه، تمسكين بعرق الحياة ويبقى في روحك كثير منه، أمّا اليوم، فلا شيء من ذلك. باتت الرغبات مبوبة اليوم، عليها لصاقات وعلامات تجارية، ولها أسعار. أنتِ تريدين هذه الدرجة! اخرجي محفظة نقودك فلست بحاجة لأن تلطخي أصابعك بالألوان، وأن تعايري عينيك بحثا عن طيف دون الآخر، كل شيء معدّ ومعلّب من أجلك، وإن شئت سترين من يرسم عنك وستظنين أن ما ترينه هو ما كنت تريدينه بالفعل من لحظات، دون أن تدري ماذا كنت تريدين أو ماذا تريدين الآن! فهل أنت تريدين أم أن الريشة هي التي تريد؟ أم أنكما معا والألوان تكونون صيرورة إرادة؟

لا ترسمي شيئا قبل أن أحدّثك عن بيلا. يجب أن تغمضي عينيك وأنا أحدثك، وإذا سحبك مركب النوم إلى البعيد فاستسلمي له، فسيكون كل ما ترسمينه بعد ذلك بيلا، ولا تخافي فستعبرين، فالكل مشغول بمقصورة الإله ولا أحد يلقي بالا إلى بيلا. اليوم يبيعونك كلابا مسبقة الصنع: هذا للحب، وهذا للحراسة، وذلك للنباح، وآخر للزينة، أمّا بيلا فشيء مختلف. لقد جاءت إلى أبي إبراهيم بروح كلبية خاصة، وكان يظن واهما أنه هو الذي صنعها.

كان أبو إبراهيم يقود سيارته الشاحنة قادما من بغداد. توقف عند الحدود العراقية الأردنية قرابة الساعتين، رأى جروة تدنو منه. في البداية شغله عنها أولئك الذين يدققون الوثائق ويفتشون السيارة الشاحنة. لكن، بعد ذلك ما كاد أبو إبراهيم يتحرك آن أذنوا له بتجاوز الحدود، حتى رآها. كانت الجروة تستلقي أمام الدولاب الأيسر الخلفي المزدوج. حاول أبو إبراهيم إخافتها، لكنها لم تخف، لم تجفل. اقترب منها أكثر فنظرت إليه نظرة متوسلة، لم تغيّر نظرتها من إصراره على إبعادها. خاطبها قائلا: لو كنت جروا لأخذتك معي، لكنني لا أريد عشيرة كلاب في بيتي، يكفيني أخوة زوجتي الذين

ينبحون عليّ طوال الوقت ويعضونني في الأعياد. صدقيني يا صغيرتي لا يمر عيد إلا وأنال عضة من أحدهم! لماذا؟ لا أعرف! اسألي زوجتي.

تراجعت الجروة قليلا لتتوقف تحت جسم الشاحنة. شيء ما تغيّر في نظرتها. صعد أبو إبراهيم وأدار محرك سيارته وأقلع بهدوء، مصدرا شخيرا شديدا من محرك سيارته، أملا بخروج الجروة إلى مكان آمن، وراح ينظر بالمرآتين الجانبيتين بحثا عنها. لا آثار لها على الطريق. إذن لم تدهسها الدواليب. حسنا، قال أبو إبراهيم في نفسه وهو يضع في آلة التسجيل شريط نجاح سلام. كان لديه في سيارته الشاحنة أشرطة لسميرة توفيق ونجاح سلام فقط. كان يقول إنهما الوحيدتان في الغناء العربي اللتان لا تبعث أغانيهما على الاكتئاب. كان ذلك شعورا لا يمكن لعلماء الموسيقا مناقشته فيه. راح يغني بصوته الأجش (برهوم حاكينا)، الأغنية التي يستطيع سماعها في اليوم عشرات المرّات، متمايلا معها كما لو كان ذلك الغزيّل الذي تغني له نجاح سلام أغنيتها التالية في الشريط هو ابنه إبراهيم. لم يعد أبو إبراهيم يستمع إلى نجاح سلام، ولم يعد ابنه إبراهيم يثير فيه مشاعر طيّبة، بعد ذلك الليل الذي ضبطه فيه يتلصص على أخته من ثقب في الحمّام ويمارس العادة السرية. لم يقل أبو إبراهيم لأحد شيئا. عرف إبراهيم بأن والده ضبطه، فانسحب من البيت بمفرده. قال أبو إبراهيم لزوجته منيرة بأن إبراهيم سيسكن عند عمّته في خربة التين. هناك سيدرس أفضل. وصل أبو إبراهيم إلى بلدة الصفاوي الأردنية الصغيرة حيث الدكاكين التي تعنى بالمسافرين وخاصة بالسائقين على جانبي الطريق. أوقف سيارته لأخذ قسط من الراحة وتناول فنجان من القهوة. بعد أن أنهى احتساء فنجان القهوة وتدخين لفافتين بلديتين، دار حول السيارة لتفقد الدواليب والشادر الذي يغطي الحمولة. لم يصدّق عينيه حين رآها مستلقية أمام الدولاب الأيسر الخلفي المزدوج. ظن في البداية أنه ما زال عند الحدود وأن هذه الكيلومترات وبرهوم حاكينا والسجائر التي دخّنها كلها وهمٌ بوهم. تلفّت حوله ليتأكد أنه لا يتوهم. لا، لا.. أنا هنا في الصفاوي! : ما الذي جاء بك أيتها الشيطانة من حدود العراق إلى هنا؟! كيف؟! هذا مستحيل. كانت تنظر إليه طوال الوقت. خيل إليه أنها ابتسمت حين قال كلماته الأخيرة بينما كانت تحاول أن تقول شيئا بنبحتين مختصرتين: غلبتني، قال لها، وهو يحملها إلى مقصورة السائق: لكن، يا مجنونة سيطلبون منك شهادة صحية على الحدود، أفهم، أفهم أنك تستغربين كيف يطلبونها من الكلاب والقطط ولا يطلبونها من البشر! أنا أيضا أستغرب، لكن لا تفتشي عن العقل في أفعالهم. على كل حال أنا أعرف كيف أحل المشكلة. نبحتْ نبحتي رفض رافعةً رأسها بعنف مع كل منهما إلى أعلى. فهم أنها تقول له: بل أنا سأجتاز الحدود بطريقتي، كما اجتزتُ حدود العراق. لا تقلق أنت بهذا الشأن. ألم أفاجئك في الصفاوي؟: طيّب، طيّب،- قال لها-، تصرّفي أنت، أنا لا مانع عندي. هزّت رأسها بامتنان، رابتة بقائمتها اليسرى على رجله: كلاب، عجيبون! لا أقصدكم أنتم، أقصدهم هم، لا تزعلي مني إذا سميتهم كلابا، نحن تعودنا على ذلك. أنا أعرف أننا نظلمكم بتشبيههم بكم، ولكن يوجد بينكم أيضا كلاب أولاد كلاب مثلهم يعيشون في العتمة ويغدرون ويسرقون، تنظرين إليهم فتظنينهم أولاد حلال، لكنهم أولاد شارع، أخلاقهم أخلاق أولاد شارع ولا علاقة لهم بالكلاب الحقيقيين. أنت تفهمين ما أقول. نبحت نبحة واحدة موافقة على ما يقول، ثم استلقت مغمضة عينيها فقد أضناها السفر. من يدري أي حلم كلبي سترى وهل سيكون في حلمها زينة وصور وملصقات. يبدو أنها لم تكن تفهم شيئا مما تقوله نجاح سلام. خفّض أبو إبراهيم صوت المسجّلة متابعا رحلته باتجاه الحدود.

بيلا أحسن من مرتي الآنسة منيرة،- قال أبو إبراهيم لمسامريه في خمّارة رزّوق-، وكانت العتمة المختبئة وراء التلال تختلس النظر إلى الشمس، متأهبة للهجوم من جهة الشرق، بيلا فيها كرامة أكثر من مرتي، لا يا سيدي فيها

كرامة أكثر منك ومنه ومني! عضّتني لأنها شعرت بأنني كذّاب وجبان. أنا واثق من أنها كانت تعرف أنني أكذب على رعد، وأنني لن أوصل أي رسالة لأهله في كربلاء، وأنا كنت أقول له أكيد، أكيد سأوصلها وسأجلب لك رسالة جوابية. كانت تبحلق في عيني لمّا كنت أقول ما أقول. أظن أنها كشفت الكذب في عيني، صارت تلعق قدم رعد، وصار هو يحك لها رقبتها بأصابعه الثخينة. كنت أخاف الكذب بوجودها، شعرتْ بأنني أتطلع إليها كثيرا، صرت أبالغ، قلت بيني وبين حالي لا بد أن تصدقني بيلا، لكنني كنت غلطانا فالبشر يكذبون بسهولة ويصدّقون الكذب بسهولة، البشر أغبى من الكلاب وأسوأ من الكلاب! قلت لرعد: طبعا هذا سهل علي، أنا آخذ حمولة إلى العراق باستمرار، لا، لا أنا لا أخاف من صدّام! كانت تحملق في عيني دون أن ترمش، قلت لرعد ولو على قطع رأسي سأوصل الرسالة، أنت تقول إن أمك مريضة وإنك لا تعرف شيئا عن أخوتك، أنا سأجلب لك الأخبار. شعرت بأن بيلا تفكّر بالهجوم على وجهي وعض لساني، غطّيت وجهي بيدي وطلبت لرعد شاياً، تصوروا طلبت الشاي والسمك كان في المقلي، كنت أنتظر حتى أشرب كأس عرق مع رعد. نعم، تغدينا وشربنا وسكرت، لكن رعد راح وعضتني بيلا في يدي، قالوا لي: اذهب إلى الطبيب قد تكون بيلا مصابة بالكلب! لم أذهب إلى أي مكان، كنت أعرف أنها ليست كلبانة. مراتي كلبانة وشيخكم كلبان والمختار كلبان وأنا كذّاب وكلبان وجربان.. حياتي كلها كذب بكذب، أولادي طلعوا من ماء الكذب، من روحه، وأنا حتى الآن كذّاب وابني إبراهيم كذّاب ابن كذاب وكلب ابن كلب، وجبان ابن جبان، وأنتم تعرفون عن أي شيء أتحدّث، كلكم أولاد قحبة مثلي، تتمنون أن تكونوا محلي...

– لكن، ليس مع منيرة، محلّك معها ملعون.. ضحكوا واستمتعوا بشتائمه. حين يسكر أبو إبراهيم يتحدّث كثيرا وعن أشياء كثيرة، ولا يتركه أصدقاؤه يغادر الطاولة حتى يهدّه التعب ويثقل عليه النعاس. ولم يكن مجالسوه يجرؤون على تركه، ليس خوفا من صلاته ببوطلال، إنّما طمعا بمائدته، فمنذ فترة طويلة لم يدفع أي منهم قرشا واحدا لقاء طعامه وشرابه في خمارة رزوق، اللهم إلا في الأيام التي يقعد فيها المرض سمير ويمنعه من المجيء. كان إبراهيم يزوّد أباه، ليس احتراما وحبّا، إنّما ليثبت له تفوقه عليه، بما يجعل مصروف المائدة اليومية رقما تافها.. ضحك سُمّار أبي إبراهيم، ورجوه أن يكرر على مسامعهم، ربما للمرة العاشرة، حكاية عرسه، وهو من دون ذلك كلّما سكر يتذكّر ذلك اليوم المشؤوم.

– الآنسة منيرة – لسبب ما كان أبو إبراهيم يستخدم كلمة آنسة للحديث عن زوجته في غيابها – قالت إن موت سلّوم في عرسنا فأل شر، وإننا سندفع ثمن روحه من حياتنا، وراحت تتهرب مني ولا تقبل أن أجامعها، ويمكنك القول إنني أخذتها بالقوة بعد انقضاء الذكرى الأربعين لموت سلوم، كنت في تلك الأيام الأربعين أسكر كل يوم وألعنها وألعن الساعة التي قرّرت فيها الزواج منها، وكانت تبكي، وحين كنت أغضب كانت تقول لي: أنا أخاف منك، أنت شرير... الآنسة منيرة تقرف من الرجال، في حياتنا كلها لم تقبل أن أجامعها عشر مرّات، كنت أجامعها بالقوة وكنت أرى القرف في عينيها. لم تعد تخاف مني، لكنني صرت أثير قرفها، نعم، نعم كنت أشعر بذلك، بل هي تقرف من كل الرجال وتكرههم. وماذا أفعل في هذه الضيعة الحقيرة! إلى أين أذهب؟ لا تستطيع أن تفعل شيئا ولا أن تذهب إلى أي مكان، إسكرْ ونَمْ مُنكبّاً على بوزك مثل البهيمة. الواحد منا مثل الحمار والنسوان مثل الجحشات لا يفهمن أننا بحاجة وأن عقلنا إذا قام تعطل، ينزل العقل من الرأس الكبير إلى الرأس الصغير فيُتتّح الأخ مثل التيس!... الآنسة منيرة تعرف أن أربع نسوان لا تكفيني وتتطلع صوبي بقرف إذا لمستها. نصف أولاد هذه الضيعة أولاد حرام، وكلهم فيهم قهر الرجال المحرومين، بصقة حرمان واحتقار للنسوان، وغضب من الحاجة اللعينة. صحيح مائة بالمائة أن المرأة شر وأشرّ ما

فيها أنه لا بد منها! الإمام علي معه حق! قل لي، أي ابن كلب يستطيع التخلي عن الجنس؟! الجنس يا أخي لذيذ وبدونه الحياة بلا طعم.

في عين الغار يتحدثون عن تلك القصة كأنها واحدة من حكايات ألف ليلة وليلة: تنتظر الأميرة دخول العريس عليها، بينما هو غارق في السكر مع أصحابه، وحين يوقظونه يكتشف أن سلوماً قد مات وأن الأميرة لبست ثياب الحداد، فقد تنبأت لها العرّافة بأولاد ستحل عليهم لعنة السكّير فيعيشون ويموتون دون أن يعرفوا شيئا آخر في الحياة غير السكر وشهوة المجامعة التي لا تتحقق! كان الجميع في الضيعة يتحدثون عن ممانعة منيرة وعن فشل سمير في مجامعتها، فيما يغمز بعضهم إلى أنها لم تمانع، إنما هو عجز عن مجامعتها. خانه ذلك الحقير الذي يذل أقوى الرجال! ولم تنقطع هذه الأحاديث إلا بعد أن بدا الحبل واضحا على منيرة. فموت سلوم المشؤوم وتوجس ولادة طفل مشوه أزاح الأحاديث عن فحولة سمير جانبا. ولما جاء إبراهيم سليمَ الجسد وراح يكبر بصورة طبيعية، تحوّل عرس أبيه إلى ما يشبه الطقس المقدس، الذي تخلله انتقال سلوم مشبعا بعرق التين إلى السماء كخبير خمر يعمل في خمارة الإله الخاصة.

– الحقيقة يا شباب، لا تضحكوا يا أولاد القحبة، مفهوم! أراد أصحابي الاحتفال بزواجي على طريقتهم، طلبوا أن أشتري لهم منسوجة عرق، دمجانة كبيرة، وأن أغلق درباس باب أوضة بيت أبي من برّا بالمفتاح، وأن لا أفتح لهم إلا بعد أن يكسروا المنسوجة الفارغة على حرف الشبّاك. كانوا أربعة دخلوا الغرفة بعد أذان المغرب في اليوم الأول من العرس. اشترطوا عليَّ أن أربط مفتاح الأوضة بتكة سروالي وأن لا أسمح لأحد بفتح الباب، وشهد على وعدي المختار والشيخ خليل.. واقترح المختار اللعين أن لا يسمحوا لي بالدخول على الآنسة منيرة إلا بعد أن تُكسر المنسوجة. قال: سنقطع تكة سرواله ونأخذ المفتاح في اللحظة نفسها بقطعة من بلور المنسوجة. وافق الشيخ خليل ضاحكا. أمّا الشباب فقالوا: لا تقلق، لن نعطل دخولك على منيرة، لن نتأخر، في اليوم الثالث من العرس قبل الدخلة نخلص منها إن شاء الله.. وأكمل سلّوم: أنا سأكسر المنسوجة، ما هي نبع ولن تكفينا أكثر من يومين، لا تخف، أنا بيدي سأقطع تكة سروالك، اقرأ الفاتحة يا شيخ خليل. أجابه الشيخ خليل ضاحكا: هذه لا تحتاج إلى فاتحة، برعاية الشيطان إن شاء الله! لا يا شيخ – ضحك سلوم وهو يمسك بيد الشيخ – أنا قصدي الفاتحة حتى لا يعضني ثعبان سمير عندما أقطع تكة سرواله! من أجل هذه معك حق، قال الشيخ خليل بخبث، مادّا عصاه نحو سلّوم وباقي الشباب، امسكوا بهذه العصا، برعاية الشيطان يا شباب..! ثم توجه نحوي وقال بجدية: ليكن مثل هذه العصا.. فأكملت أنا الغبي: بإذن الله. يبدو أنني أخطأت! كان يجب أن أقول: بإذن الشيطان. انصرف الشيخ والمختار بعد العشاء وتمنيت لو أنني كنت مع الشباب في الأوضة، لكن الضيوف كانوا كثرة وكان يجب أن أكون معهم. كنت بين الوقت والوقت أطل من الشباك وأناولهم سيخ لحمة مشوية وأدق كأسي بكؤوسهم. استمر الشغل على هذا الحال حتى أذان ظهر اليوم الثاني. لمّا جلبت لهم الغداء لم يستطع أحد منهم النهوض لتناوله من يدي. كانوا ممددين حول الصينية على الأرض. خطر ببالي أن أدخل، تفقدّت المفتاح، انشدّت مطاطة السروال، تذكّرت الاتفاق، قلت لحالي الأفضل أن أترك لهم الأكل على حافة الشباك، تركته ورجعت. كان الشيخ خليل والمختار وجيراننا الآخرون ينتظرون حول المائدة. سألوني عن حال الشباب فأخبرتهم بأنهم نائمون، ولكنني كنت أتمنى أن أفتح لهم الباب ونتعشى اليوم معا وندبك، لا أعرف كيف صارت اللعبة تقلقني. عبّرت عن رغبتي للشيخ فتدخل المختار غامزا الشيخ خليل، وقال: لا تستخف بالعهود، العهود تسجل في سجلات السماء، والآن مفتاح سروالك مرتبط بمفتاح البيت، والإخلال بعهد المفتاح الأول قد يفسد المفتاح الثاني، فماذا

تقول للعروس التي تنتظرك؟ أتقول لها مفتاحي لا يعمل! كان المختار نصابا محنكا ويعرف كيف يلعب، أفحمني فخرست وتابعت الأكل، أمّا الشيخ خليل فلم يعلّق على حديثنا، كان مشغولا بفخذ الخروف الموضوع أمامه عنا، فقد قال وهو يتلمّظ: الله بارك باللحم الطري، يا أخي ما من شيء ألذ من اللحم، سبحان الخالق. ضحك المختار غامزا: أي لحم تقصد يا شيخ؟ والذي تعنيه أيضا، أجابه الشيخ، الذي ببالك أيضا نعمة من أهم نعم الله، وسيتذوق ابن أخينا سمير هذه النعمة عما قريب.. أي شيخ هذا! لم يكن يعرف شيئا عما ينتظرني، أقول لكم الحق فقدت ثقتي به بعد ذلك، وحتى الحجاب الذي كتبه لي لم ينفع مع الآنسة. كنت أظن وأنا أحمله راجعا إلى البيت أنها تنتظرني فاتحة ساقيها، لكنني وجدتها كعادتها تجفل مني عند دخولي البيت. شيخ نصّاب مثل المختار! بعدما تغدينا وراح الضيوف، رقدت حوالي نصف ساعة وأفقت على صداع فظيع، تذكّرت الشباب، كان بقي حوالي الساعة حتى تنعقد الدبكة من جديد، أطلّيت من الشباك، كانت صينية الأكل لا تزال على حافته، وجدت نبيلا وكان أصغر الشباب واقفا عند البالوعة خلف الباب يبول، ناديته فأخذ مني الأكل وحاول إيقاظ الشباب، نفض رفيق رأسه، وشاكر قعد ولوّح لي بالسلام، لكن سلّوما لم يتزحزح. قال شاكر وهو يركله برجله على خاصرته: نائم من ثلاث ساعات مثل الخنزير. أخذ نبيل جرّة الماء ودلق منها على وجهه، لكن سلّوما لم يتحرك. كان قد بقي في المنسوجة حوالي ألفية. قام رفيق، وكان يكبرنا جميعا بحوالي خمس سنوات، حرّك رأس سلّوم وتطلّع صوبي بفزع: سلّوم مات يا أولاد الكلب. كانت العروس، يعني الآنسة منيرة العظيمة، كانت في الحنة وكانوا ينتظرون أن آتي ليحنّوا لي إصبعي الصغير: افتحْ الباب وادخلْ، عجِّلْ! صاح نبيل. دخلت وسكّرت الباب خلفي. كان وجه سلوم منتفخا وكان لون وجهه ولون صدره أزرق. سكّرنا الشباك وعلّقنا عليه كيس خيش، وصرنا ندور بالبيت مثل المجانين، لا نعرف كيف نتصرف. صار الواحد منا يتطلع إلى الآخر ويشرب ويبكي ويشرب. خلال أقل من ساعة ما بقي في المنسوجة قطرة واحدة، يعني كل بغل منّا شرب حوالي لتر. صرت أتقيأ من الخوف ومن السكر ومن اللعنة، وصار رفيق يدق على ظهري، ويقول لي: شحارك على هذا العرس. فجأة دُقَّ الباب ! جاء أولاد الكلب مع الحنّة، لا أعرف من قال لهم إني هنا، ولما دخلوا ورأوا سلّوما ممدّدا على الأرض انفضحت قصتنا. والآنسة منيرة ما نسيت الموضوع ولا سامحتني، وكأنه فعلا كان عليّ أن أفتح سروالي بقطعة بلور من المنسوجة المكسورة.

راح أبو إبراهيم يشرب ويتحدّث دون أن يأكل شيئا من السمكة الممدة أمامه، وكان شغل رزّوق الشاغل أن يُبقي كأسه ملآنة. لم يكن لأحد أن يقاطعه، فقد كان من الواضح أن ردة فعله ستكون عنيفة على محاولة كهذه، فهو كثيرا ما يبصق حين يعجز عن التعبير أو عن اللكم، ولم يكن بنيّة سُمّاره أن يقاطعوه، بل راحوا ينتظرون صامتين معرفة المزيد.

-17-

عراق في بيت سمير

– وماذا عن رعد؟! سألت نجوى درويش

كان رعد ككثيرين غيره قد خرج بحثا عن شمس وقمر لا ترتسم عليهما صورة الجلاّد. كان رعد قد تعرّف على أبي إبراهيم بالصدفة، حين أوقف الثاني شاحنته لشخص يقف في العتمة على هامش الطريق العام بين طرطوس واللاذقية رافعا يده أمام أضواء السيارات. حيّاه رعد شاكرا وقوفَه، معلنا أنه يبغي الوصول إلى اللاذقية فقد كان في زيارة أحد أصدقائه في ريف بانياس وتأخر به الوقت. وهكذا تم التعارف، وعرف أبو إبراهيم من رعد أنه يدرس في كلية الهندسة بجامعة تشرين، وأنه لا يستطيع العودة إلى العراق. أبدى أبو إبراهيم تعاطفا كبيرا معه، وأخبره بأنه أحيانا ينقل حمولة بين العراق وسوريا، وبأنه على استعداد لزيارة أهله هناك والتعرّف بهم، وإيصال رسالة، أو أي شيء آخر إليهم، وبأنه يكره صدّام كثيرا، وبأنه صديق للشيوعيين، متمنيا في قرارة نفسه أن يكون رعد شيوعيا، وبأنه لولا ثقته برعد ولولا أن رعد عراقي لما قال له ذلك: عجيب أخي، عجيب! – قال أبو إبراهيم لرعد–، نقضي على الشيوعيين الذين عندنا ونستورد شيوعيين من العراق! أنا أخي لا أفهم شيئا!

بعد ذلك جاء رعد إلى عين الغار لزيارة أبي إبراهيم ثلاث مرّات، وكان كل مرّة يستقبله أجمل استقبال، ويصر على إبقائه حتى المساء، بل إنه في زيارته الأخيرة أبقاه للمبيت في بيته رغم محاولات رعد الاعتذار. في ذلك المساء شاركهما غريب السهرة. رغم نفوره من إبراهيم، كان غريب على علاقة طيبة بأبي إبراهيم الذي يسكن عند خرنوبة الكاديك، حيث يوجد قبر قديم لعابر غريب تحوّل إلى مزار. تلتحف هذه الخرنوبة العتيقة السفح بجوار طريق ضيّقة متعرّجة تهبط إلى الوادي الذي ينتهي إلى البحر، وكان غريب غالبا ما يتمشّى في المساء على هذه الطريق، فإذا اتفق أن رآه أبو إبراهيم دعاه لاستراحة قصيرة، كما يقول، استراحة كانت تنتهي في معظم الأحيان بكأس من العرق. كان لدى أبي إبراهيم دائما ما يقصه على غريب من حكايات السفر، وكانت تعجبه بصورة خاصة تلك الإضافات التي تجعل لما حدث أو لم يحدث طعما آخر. في ذلك المساء لم يتحدث أبو إبراهيم، إنما كان يبدو عليه الشرود وهو يصغي إلى رعد الذي كان يجيب غريب عن أسئلته الكثيرة عن العراق وأحوال العراق، وفي ذلك المساء بالذات فعلت بيلا فعلتها. شرب أبو إبراهيم كثيرا في ذلك المساء فعرض عليه ضيفاه أن يذهب للنوم. وافق على أن يتابعا السهرة عنده في البيت. وهكذا تسامر رعد وغريب حتى ساعة مرور الصيادين المنحدرين من أمام بيت أبي إبراهيم إلى البحر. بعد ذلك اختفى رعد. سأل غريب أبا إبراهيم إن كان رآه مصادفة في مكان ما، فأجابه بالنفي. ذهب غريب بصحبة كاسر لتقصّي أخبار رعد. كان رعد يقطن شقّة من غرفة واحدة لا يدخلها شعاع شمس من أي مكان استأجرها في بناية السرّاج المقابلة لزاوية المقبرة. بعد ضغطات متتالية طويلة على زر الجرس، فتح الباب عراقي آخر.

– نعم!
– هل رعد هنا؟
– رعد مات!
– مستحيل! شهق غريب مدهوشاً.
– نعم ، شنق نفسه، وجدناه معلّقا في وسط غرفته!
– يا إلهي، ما أفظع ذلك! لماذا، متى، كيف.. بدأ كاسر يطرح أسئلة متعددة دون انتظار إجابات...
– ألم يترك رسالة قبل انتحاره؟
– لا!

حين سمع أبو إبراهيم بانتحار رعد، لعن نفسه، قائلا: " أنا الحقير، السافل، الجبان.. أنا من يجب أن ينتحر لا هو!".

– على المرء أن لا يلتفت إلى الخلف يا نجوى، لكن رعد، للأسف، لم يستطع إلا أن يلتفت! أتذكرين ثلاثية ڤاسيليف عن الحرب، رأيتِ صورة عنها في الألبوم، أتذكرين!.. واحد فقط من الجنود المنطلقين إلى الحرب يلتفت عِشر التفاته ليرى بهامش عينه المرأة السلافية التي تودّعه. وفي مكان آخر جندي واحد فقط من مئات الجنود الذين ينظرون بصرامة إلى الأمام في صفوفهم المنضبطة المنطلقة إلى حيث يؤدي الانضباط إلى موت متأخر قليلا وعدم الانضباط إلى موت مبكر، جندي واحد فقط يلتفت إلى الخلف. لا، ليس هو الحنين إلى الوطن ما دفعه إلى الالتفات إلى الخلف، إنما هي نقطة اللاعودة. يصعب على الإنسان عند نقطة اللاعودة أن لا يلتفت إلى الخلف، إلى ذلك العالم الذي لو خطا خطوة واحدة أخرى مبتعدا عنه فلن يكون بمقدوره العودة إليه أبدا. كثيرون ترهبهم نقطة اللاعودة، كثيرون هنا بالذات ينهارون، كثيرون يغمضون أعينهم ويندفعون بأجسادهم. هنا بالذات يجب البحث عن خصوصية هذه اللحظة، فاللاعودة، خلاف المتوقع، لا تعني للجسد شيئا إنما تعني الكثير للروح التي تختبئ في قيعان العيون المغمضة. ذلك الجندي كان قد ترك روحه على مسافة خطوتين في الخلف فراح يودعها بينما جسده يندفع إلى الأمام. ذلك الجندي سيموت قبل الجميع، وربما لأن ڤاسيليف قُتلَ قبله لم نر مصيره في لوحة أخرى. روح ذلك الجندي التي ظلت في الخلف ستملأه حماسة، سيندفع إليها، لكن لقاء الجسد والروح في الحرب لا يتم إلا عبر الموت. ورعد كان في حالة حرب. الحماسة الزائدة تقتل في الحرب: وفي السلم أيضا! –قاطعته نجوى–..صحيح، ولكنّها تقتل من؟ مقاتل كرعد كان عليه لكي يعود إلى وطنه أن يعبر الأرض كلها حتى تتحقق عودته..وڤاسيليف كان مقاتلا، ولكنّه ما أن ظن نفسه قد اجتاز خط النار حتى قُتل. سبق أن حكيت لك عن ڤاسيليف! كان الجميع يحاربون ڤاسيليف الممتلئ بالأساطير والحكايات والموسيقى، ولم يكن يُسمح له بعرض لوحاته، وكان يعرض في أماكن سريّة.. وأخيرا، أخيرا حصل على موافقةِ عرضٍ علني رسمي. استعد ڤاسيليف للاحتفال بافتتاح المعرض وانطلق إلى هناك، لكنه لم يصل أبدا. في طريقه إلى قاعة العرض دهسه قطار. مات.

– أنت تخيفني!

– لا تخافي! لا يُقاوم الموت إلا بالاستهتار به، بعدم الخوف. يفقد الموت معناه حين لا يُخشى..

– .....

تمتم درويش بشيء لم تلتقطه نجوى جيدا وهو يبتعد عن اللوحة مضيّقا عينيه، ملاحظا شبكة فروع تتلامح بألوان شتى، بينها الأخضر والأزرق والأحمر، فروع تشكل أشجارا في مكان وتبقى معلقة في الفراغ في مكان آخر. كان درويش يتمنى لو ينتهي بتلك المعلّقة في الهواء إلى الأرض، لو يجعل لها جذورا، لكن الجذور كانت ترتسم في مخيلته بألوان أخرى لا تصلح لأن تكون لتلك الفروع. كان يتمنى لو أنهّا تكون لها بصرف النظر عن لونها، غير أن الريشة لم تطاوعه. أمسك بالسكين في محاولة لذبح الحدود بحدِّها الأحمر والأزرق والأخضر...

– ما الذي تريد فعله بالسكين؟ هلاّ أعطيتني إياها!

مدّ درويش يده نحو نجوى بالسكين وعيناه لا تزالان على اللوحة. أخذتها من يده، منقّلة نظرها بين عينين تحفران في العمق ونصل ملوّن.

– ألا تلاحظين أن لوحتنا تخلو من فسحة سماء رغم وجود الأزرق فيها؟
– خذ قطعة نيلة من تلك التي تضيفها أمي إلى الغسيل.

– يا إلهي! إلى أين أنت تنقلينني! إلى رائحة الغسيل وهو يغلي على النار، إلى الدخان يجبر العيون على البكاء في طريقه إلى السماء، إلى تلك الأماكن حيث تتباهى النساء ببياض غسيلهن. لو رأيت النشوة التي كانت ترتسم على وجه أمي وهي تتأمل حبال الغسيل...
– أنا أيضا ابنة ريف، وأعرف معنى النيلة ومعنى النار. لو تعلم كم كنت أحب حبال الغسيل الممدودة بين الأشجار، كم تمنيت دائما أن أكون رسّامة كي أرسمها.
– يا لنار ذاكرتي! لماذا تفعلين بي هذا؟ لماذا تسحبينني إلى تلك العوالم التي تبكيني؟
– أنا من تراب وأنت من هواء. هذا هو الفرق بيننا.. أشعر بـ..
– بالتراب، بالطين.. تشعرين! انهار سقف بيت أم نصر، أخت أمّ عطا. بعد أن مات ابنها الوحيد نصر عن أربعين بسكتة قلبية في طابورٍ، أمام الفرن، لم يصلح أحد سقف بيت الطين بعد موته. أم نصر تعيش وحيدة، بل كانت تعيش وحيدة قبل انهيار السقف.
–....
– تحوَّل سقف البيت إلى كتلة قش وطين تحت ثقل ماء المطر.. أو ربما هو المطر الذي عاود الهطول.. أنت لا تعرفين كيف كانوا يطيّنون جدران البيوت، كيف كانوا يُعدّون الطينة من التبن والطين الأبيض، يعجنونه بأرجلهم العارية، ويطلون به الجدران.. كم كنت أتمنى أن يسمحوا لي بخلط بياضه ببعض الألوان، بالطين الأسود، بالأحمر، برسم أشياء على الحيطان.. وحدها أم نصر تركتني مرّة ألعب كما أشاء فرسمت جنيّات فوق الوجاق.. كم كان نصر جائعا حين مات.. أذهلني بطنه الضامر حين راح الشيخ يغسله قبل الدفن.

أغمضت نجوى عينيها. وراحت ترسم على جفنيها المطبقين فسحة سماء. راحت تقول:

– الذاكرة دائما مكان، مكان نعيش عمرنا في حالة هروب منه! يهطل في روحي مطر غزير وأبكي، يا لجمال الحزن!. أكمل درويش في نفسه دون أن يبوح.
– حزننا على أهلنا وعلى أصحابنا وعلى أنفسنا.. لم أكن أفهم سر تلك الحسرة في عيون الأهل! كانوا يتحسرون علينا. كانوا بفطرتهم يدركون بأن جيلهم لن يكون آخر جيل من المحبطين.

انفجر الرعد في الخارج، عاود المطر الهطول. كان ذلك اليوم يوما ماطرا أيضا.

-18-

عودة لم تكتمل بعد

في ذلك اللقاء حكى درويش لنجوى قصة ترحيله من الاتحاد السوفيتي:

– أَوصوا أولياء أمري بترحيلي وتهذيبي. تبيّن أن ترحيلي من أسهل الأمور، أمّا تهذيبي فصعب. اتصل بي رئيس اتحاد الطلبة ودعاني لزيارته مدّعيا أن هناك صديقا حميما ينتظرني عنده. خطر ببالي للحظات أن يكون كاسر قد وصل إلى روسيا بطريقة ما، لكنني سرعان ما استبعدت الفكرة، فكاسر لم يذكر لي أي شيء بهذا الشأن، ثم إننا في وسط العام الدراسي.. المهم قررت التوجه إلى عنوان عادل وكنت أستبعد أكثر فأكثر مع كل خطوة أن ينتظرني أحد ممن أحبهم أو أحترمهم هناك. وبالفعل حين وصلت إلى بيت عادل شرف وحيدا. لم أسأل عن أي شيء إنما انتظرت أن يبدأ هو الحديث. عرض عليّ كأسا من الفودكا فاعتذرت، النبيذ فرفضت، العرق فقلت له: أخي، أنا لا أريد أن أشرب أي شيء. كان خالي قد حدّثني عنه في إحدى رسائله من ليبيا. كتب خالي ينبّهني. كتب لي: أفضل شيء تفعله أن لا تلتقي به ولا تجلس في حضرته. هو دلس ولا تعرف متى وكيف يجرّك إلى حديث تأتيك من ورائه المتاعب. تجنّبه ما استطعت.. لم أكن أستطيع تجنّب الذهاب إلى بيت عادل، فإذا لم أذهب سيأتي هو لزيارتي وهذا ما لم أكن أريده على الإطلاق.. أصرّ عادل على تقديم الضيافة لي. قال: حسنا، إذن فنجان قهوة، وراح يضع الركوة على النار مبتسما. قال والبسمة ما زالت تعلو وجهه: يا صديقي هناك إشكال بسيط يتعلق بأوراقك، أو ربما باختصاصك! لا أعرف بالضبط، المهم هو إشكال بسيط ولكن الشباب يريدون تسويته خشية أن يتسبب لك بإرباكات في المستقبل: وماذا علي أن أفعل؟ سألته: يجب أن تراجع السفارة غدا، قال دون تردد، ولكن لا تنس اصطحاب جواز سفرك. قلت له: بديهي، فكيف أسافر دون جواز سفر، ولكن من أراجع هناك؟ قال: تسأل عن شخص اسمه نصر محمود وهو يسوي لك الأمر.

بعد أن انتهيت من فنجان القهوة الشامية، وقد شربته شارد الذهن، لم أشعر بطعمه، زوّدني عادل بزجاجة ويسكي لإيصالها إلى نصر مع تحياته الخاصة. قلت له: ولكنني لا أستطيع قطع دراستي.. قال: لا تهتم، أنا سأسوي الأمر، غدا صباحا أذهب إلى مسؤول الأجانب وأحصل لك على موافقة سفر وأوصلها من أجل عينيك إلى بيتك. أنت تعيش في السكن الجامعي التابع لأكاديمية الفنون في الشارع الخامس في جزيرة ڤاسيليڤسكي أليس كذلك ؟ قلت: نعم. تابع: وستسافر مساء في القطار. هل تريد أن أشتري لك بطاقة؟ لا شكرا، قلت له وشعور خفي بالقلق ينتابني من هذا الاهتمام المفاجئ: اهتمام عادل غالبا ما كان يأتي بالمصائب! كتب خالي من ليبيا. لكن، لم يكن أمامي إلا أن أسافر. في السفارة سألت شخصا ممن يقفون في الممر المؤدي إلى الداخل عن نصر محمود، فنظر إلي بارتياب مستفسرا عن سبب سؤالي عنه. أفْهمته أنه هو الذي يسأل عني. أشار إليَّ بالنزول إلى القبو وهناك سأجد نصر. سرعان ما تبيّنت أن نصر هو رئيس المفرزة الأمنية. عندئذ بدأت أفهم. فرح نصر بزجاجة الويسكي وشكر عادل عليها قائلا: عادل، يا أخي، شاب مذوق لا ينسى أصدقاءه! صمتُّ أنا. أمر نصر رجلين كانا يشربان المتة بالخروج وأغلق الباب. هل جواز

سفرك معك؟ سألني. فكّرت بأن أنفي وجود الجواز، لكنني تراجعت عن ذلك حين رأيت مفتاح الباب بيده. لم أكن أدري، بعد، أنه لا مهرب لي إلى أي مكان، فالسوفييت الذين تحيط أرضهم بي من كل الجهات هم الذين يطلبون ترحيلي. مددت جواز السفر فتناوله. وما أن قلّب صفحاته حتى أبلغني رسالة قصيرة: مطلوب ترحيلك على أول طائرة. ولكنني أستطيع أن أساعدك، أستطيع أن أؤمن لك إقامة هنا لعدة أيام أخرى والأهم من ذلك أُريحك من متاعب كبيرة هناك. بل ستستفيد ماديّا. سأتدبّر أمر حصولك على موافقة شحن عفش بيت، كأنك تسافر بشكل طبيعي في نهاية دراستك. يمكنك أن ترسل مع العفش إذا أردت بعض الأغراض. أنا سأرسل الحاويات من هنا وأخلّصها من الجمارك في ميناء طرطوس. أنت لن تتحمل أية تكلفة، أنا سأشتري العفش وأرسله وأخلّصه، وكل ما عليك القيام به هو أن تزوّدني بوكالة خاصة. هذا ما لم أكن أتوقّعه على الإطلاق، فكّرت، ومع ذلك قررت الرفض دون تردد: لا، شكرا، لا أريد إرسال أي شيء: ما أنت الذي سترسل، أنا من سيرسل باسمك، قال موضحا، ظانّا أنني لم أفهم. قلت: فهمت، ولا أوافق على أن ترسل باسمي أي شيء. قال غاضبا: ستندم يا حمار! وحين اعترضت قلب بي الكرسي ورفسني ثم صاح غاضبا باسم جميل. تخيّلي هذه الأسماء: نصر، محمود، جميل، عادل.. لو قرأتها في رواية لظننت أن الروائي اختارها خصيصا لتحمل سمات شخصياتها، أو من باب إظهار الضد، غير أنّك تجدين في الواقع من المتناقضات الوقحة أكثر مما تتضمنه أية رواية، أو ما يستطيعه أي خيال. أمضيت يومين في قبو السفارة، ثم نُقلت من هناك بسيارة خاصة إلى المطار. كنت قد تركت في غرفتي في جزيرة ڤاسيليڤسكي أشياء عزيزة على قلبي بينها العديد من اللوحات والماكيتات التي رسمتها في الأكاديمية وصورة كاسر وصورة غريب ورسائل منهما.. تخيّلت ذلك الوغد عادل يعبث بها، لكن الشيء الذي كنت أتوقّع أن ألاقيه في دمشق شغلني عن كل أشيائي الحميمة. عند باب الطائرة في مطار دمشق.. أجل عند الباب سأل أحدهم عنّي. كان صارما، تدرّب كثيرا على عدم الابتسام. ثم كان هناك رجلان ينتظران نقلي إلى قبوٍ أمضيت فيه أربعة أسابيع. وهناك فهمت جيدا ما عناه نصر حين قال" ستندم يا حمار". تهمتي الأولى لم تكن تعني الشباب هنا كثيرا: كان التشنيع بالواقع السوڤييتي الصديق أخف ألف مرّة على دمشق من الانتماء إلى حزب شيوعي يسعى إلى مثل هذا الواقع الذي أشنع به. أمّا تهمتي الثانية، التي يبدو أنّ نصر محمود تدبّر أمرها مع عادل شرف فكانت أخطر بألف مرّة: سألوني عن شاربين كبيرين يشبهان شاربي ستالين. قالا بأن صورة الرئيس التي رسمت عليها الشاربين لديهم: لم أرسم أية شوارب، ولست مجنونا حتى أمس صورة الرئيس، وأنا أعرف ماذا يعني ذلك!! كانت قصيدة مندلشتام التي أُعدم بسببها لا تزال محفورة في ذاكرتي. حين عرضت تلك القصيدة على معلّمة اللغة الروسيّة للتأكد من معنى إحدى الكلمات أصابها ذعر شديد. كادت تسقط مغشّياً عليها. ثم تمالكت نفسها وسحبتني خارج الغرفة وراحت تسألني كيف حصلت على القصيدة. قلت لها إنني رأيتها محشورة خلف السرير حين رحت أنظّف الغرفة. كذبت عليها. رأيت الخوف والخطر في عينيها. لم أكن متهورا إلى درجة أن أرسم شاربين على صورة الرئيس. كان واضحا أن الشاربين جاءا بسبب من توصية نصر الخاصة. بسببٍ من شاربين لم أرهما احتفظوا بي عامين وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما.

حين حدّث درويش نجوى عن قصة ترحيله من الاتحاد السوفيتي، وانقطاع دراسته، توقفت مطولا عند تلك الأشياء الحميمة التي تركها في غرفته هناك.. ثم قال لها فجأة: كلُّ ثالثٍ عزيز هناك.. لا بد أن يأتي يوم.. لا بد.. لا بد للعدالة أن تتحقق يوما...ثم توقّف كأنّما يراجع كلماته، كأنّما يتفحّص العبارات التي يطلقها كمسلّمات.

– يبدو أنّ الإنسان حين يشعر بالعجز يؤمن بالعدالة، يكون لا بد له من الإيمان بتحقق العدالة. تصبح العدالة شيئا ما له قدرة ذاتية خارقة، شيئا ما يتحقق من تلقاء ذاته، أو بفضل من الله. لا بد أن يحق الحق.. لا يصح إلاّ الصحيح.. يريحنا العقاب الإلهي أو عقاب السماء في لحظات ضعفنا، يعوّض لنا عقاب يأتي من مكان ما، عقاب يقوم به أحد ما عن عجزنا. أم هو حقا العقاب الإلهي موجود؟ لست على يقين! لا أعرف، حقيقةً، إن كان الإيمان هو ما دفع العجوز أومانسكي الذي كان معتقلا مع شالامَف إلى الاعتقاد بعقاب ينزل على ستالين من السماء.. ربما أراد العجوز أومانسكي أن يؤمن بأن كل من سيبقى حيا إلى ما بعد ستالين سيعيش.. ربما أراد أن يؤمن بأن لعنات ملايين البشر لا بد من أن تتحول إلى شيء ما مادّي يصيب ستالين بمقتل، وأنّ كره الناس له لا بد أن يصيبه بالسرطان أو بشيء ما آخر مميت.. ولكن، ومع ذلك فإيمان أومانسكي هو ذلك الإيمان الناجم عن العجز. فنحن نؤمن بالله بمقدار ما نشعر بالضعف ونلجأ إلى السماء بمقدار ما تنغلق الأرض علينا. لست أدري هل يبتهل العصفور حين تطبق عليه يدا صغيرٍ عابثٍ أو كبير.. وإذا كان يبتهل فلمن يبتهل ولمن يرسل رجاءه الأخير، ولست أعرف إن كان قد فعل ذلك الثعبان الذي حصره جارنا في بوري عتيق استخدم يوما كمدخنة مدفأة وراح يكوّم الحطب ليشويه وهو محاصر لا يقوى على المقاومة. من يدري قد يكون لدى الحيوانات من تلجأ إليه في لحظة ضعف حين تخونها مخالبها وأنيابها، أو حين تكتشف أن أجنحتها وقوائمها أعجز من أن تحملها بعيدا عن الخطر المميت. حين حُشرت في قبو السفارة، ثم في قبو فرع التحقيق لم ألجأ إلى الله، لم يخطر ببالي. خطرت ببالي أشياء كثيرة أخرى.. خطرت ببالي مشاهد من أفلام أمريكية، تصوّرت نفسي سوبرماناً يقضي على الجميع هناك ويخرج من القبو بعد أن يحرّر جميع المعتقلين. أربكتني فكرة أن يرفض أحد ما الخروج. لم تقل لي الأفلام الأميركية التي رحت فيها أحطّم الأبواب، نعم جعلتني تصوراتي بطلا في فيلم، رحت أحطّم الأبواب وأقصف أعناق السجانين وأقصم ظهورهم وأقفز من سطح إلى آخر.. لم تقل لي كيف أتصرّف إذا رفض أحدٌ ما من المعتقلين الخروج من معتقله! عندئذ فقط لجأت إلى الله. شعرت بالعجز. بدت لي يدي أضعف من الحديد بكثير، ولكن ليس يدي الضعيفة ولا الحديد ما دفعني إلى الله، إنّما فكرة أن لا يريد أحد ما الخروج إلى الحرّية. لم يكن لدي من الصبر ما يكفيني لفلسفة الخوف من الحرّية كما فعل فروم. كان كلّ ما فعلته أنني طحنت أسناني بأسناني وقلت: يا الله ما أضعفنا أمام الظلم!! ثم، وكان دمع الغضب قد ملأ عيني، رفضت الضعف فصرخت: بل ما أقوانا. وعندئذ أصبحت مستعدا لتلقّي الجَلد دون أن أدري إن كنت قادرا على الصمود أمام الألم أم لا. تبّينت فيما بعد أنني لا أصلح لتحمّل الكثير من الألم.. لكنني لم ألجأ إلى الله، بل لجأت إليهم للتوقف عن تعذيبي.

لا مكان لله في الأقبية. الابتهال إليه يحتاج إلى سماء مفتوحة. الغيم، حتى الغيم يعيق وصول الدعاء إلى الله! هذا ما اتفقنا عليه، نحن صغار عين الغار، في صباح اليوم الثالث بعد جولتين من الفشل في استحضار المطر. في ذلك الصباح أَعدتُ صناعة عروس المطر كي تعجب الله، واتفقنا على أن لا نخرج حاملين عروسنا في المساء إذا لم تكن السماء صافية. على خلاف العرائس التي كانت تشبه الفزاعات التي يضعها الفلاّحون في بساتينهم لطرد العصافير،– فقد كنّا عادة نصالب عودين أخضرين أو قصبتين، ومن خِرَقٍ نصنع رأسا للصليب هو رأس فتاة ونُلبس الصليبَ قميصَ صبيّ–، صنعتُ عروسا جميلة من أقمشةٍ زاهية الألوان، وجعلتُ لها يدين مرفوعتين نحو السماء، ليس في وضعية ابتهال، إنّما أقرب إلى راقصة فلامنغو، ألبستها فستانا صغيرا زوّدتني به سلوى.. حالفنا الحظ في ذلك اليوم.. كانت السماء صافية تماما. ومع أنّ المطر لم يكن قد هطل منذ أكثر من شهرين إلاّ أن الغيوم كانت تغازلنا كل يوم وكنّا ما أن نمدّ أيدينا صوبها حتى تُعرض عنّا إلى غيرنا.. لم يهطل المطر رغم اجتماع المشايخ وخلوتهم وخروجهم إلى جبل الصنوبر لأداء صلاة الاستمطار. قرّرنا، نحن الصغار، الدخول مع المشايخ في مباراة استمطار. فشلنا مرّتين

وفي الثالثة هطل المطر. اجتمعنا في ذلك العصر تحت تينات أم عطا، بعد أن درنا على جميع بيوت الضيعة منشدين:(هِيْدو، هِيْدو، المطر نحن منريدو– زرّيعتنا عطشانه، تحت الأرض دبلانه..). رحنا ندقّ الأبواب رافعين العروس، منشدين لأجل المطر بانتظار أن يرش على رؤوسنا أصحاب الدار الماء، يُفتح الباب، يُرشّ علينا الماء، تُناولنا ربّة المنزل حفنة برغل. الماء الذي كانوا يرشوّنه ماء مطر اختزنوه من أيام الشتاء. كان الجميع يحصدون ماء المطر عن أسطحة بيوتهم ويودعونه آبارا أُعدّت لهذا الغرض. كثيرا ما غضب إبراهيم لعدم مرور عروس المطر أمام دارهم المنفرد عن بيوت الضيعة. في تلك المرّة لطى إبراهيم الغاضب خلف أغصان تين على سطح بيت جده في ساحة الباطوز، وما أن طرقنا باب دارهم بانتظار أن يأتينا الماء، حتى جاءنا عن السطح ماء ساخن مالح. رأينا إبراهيم يضحك رافعا سرواله... أخيرا اتجهنا إلى حاكورة أم عطا وهناك طبخنا البرغل الذي جمعناه من كل البيوت. في الحقيقة سلوى هي التي طبخته ونحن ساعدناها. كان على كل بيت أن يعطينا حفنة من البرغل، ملء يدين بوضعية ابتهال. كانت الطبخة من أجل السماء وكان يجب أن يشارك الجميع في حنطتها. طبخناها نحن الصغار، وسكبنا على وجهها زيت الزيتون، وأكلناها. كان يحق للصغار فقط أن يأكلوا من طعام السماء.. كان الكبار يضحكون لرؤيتنا حاملين عروس المطر وكيس البرغل الصغير، ولكنّهم كانوا ينتظرون هطول المطر. بل كانوا متأكّدين من أنّ المطر لا بد أن يهطل استجابة لنا. في ليل اليوم الرابع هطل مطر غزير...قلت لهم: جفّ حلقي، أشعر بعطش شديد.. عزلوني، نقلوني إلى إفرادية، ومنعوا عنّي الماء. قالوا: حين تعطش، اشرب من بولك، وناولوني علبة تنك فارغة...حرق غريب إصبعه في ذلك اليوم، وسرقت أنا ملعقة من البرغل، التهمتها في السر. كان ذلك محظورا.. جاء المطر. السماء هي التي جاءت به إلينا أو أحد ما هناك لم نُسمّه. كانت علاقتنا مع السماء وليس مع الله. لم يكن الله موجودا في نشيدنا، نشيد عروس المطر، وربما هذا بالذات ما أعجب السماء وجعلها تدعو الغيم للاجتماع فوق ضيعتنا وتأمره بالنزول. هي ونحن...وفي القبو هم وأنا. فكّرت لو أننا نحن الأشخاص الثلاثين المحشورين في مهجع واحد في القبو، لو نتفق على مخاطبة الجدران أو السقف، لو نتّفق على طقس ما، لو نخترع طقسا ما للتواصل مع الجدران، مع أبواب الحديد، فلربما كانت ستنفتح بطريقة ما، وتفسح لنا معبرا. لكن أحدا من الذين هناك لا يؤمن بأي شيء. هناك يكفر الإنسان بكل شيء. هناك تنقطع الصلات بالسماء والأرض. هناك يصبح كل شيء رجلا واحدا يقول كُن فيكون، رجلا لا تفيد معه الصلوات والأناشيد التي كانت طفولتنا تفتح بها أبواب السماء... وحتى اللجوء إلى السماء يمكن الاستغناء عنه في ساعات الضيق، فقد يكفي أن يكون هناك عدد من الأشخاص يفكّرون معا بتركيز بالشيء نفسه، يكفي أن يعيشوا له معا.. شيء ما خارق يحدث.. يتحقق ذلك الشيء الذي يريدونه بقوة.. نعم بقوّة، فإرادة التحقق يجب أن تكون قويةً جداً. الإرادة يمكن أن تصبح كشعاع ليزر يخترق الأشياء.

في طفولتنا، علّمنا ثعبان كبير بأنّ ثلاثة إذا فكّروا بالشيء نفسه يتحقّق. في الطفولة لم يعق إيماننا بقوتنا تدخّل سيخ حديد وعصا. كان لا يزال بإمكاننا أن نرى ما نريده جزءا منا، وليس شيئا نُلقي به في سلّة المهملات بعد الانتهاء منه أو العجز عنه. كان ذلك في عصر يوم قائظ...حاول ثعبانٌ ألِفنا وجودَه، نحن الصغار، في حاكورة التين، حاول الاختباء في بوري مدفأة عتيق حين رأى جارنا يحمل فأسا ويتجه صوبه. كنا نمر كل يوم على مدى شهر أو أكثر قرب الثعبان، ننظر إليه مبتسمين، كأنّما نلقي عليه تحيّة مودة. كان يتمايل قليلا كأنما هو يرد التحية، لكنّه لم يكن يغادر مكانه.. أمّا في ذلك العصر فقد شعر بالخطر. لم تكفه حكمته للبقاء مكانه. لو فعل لشَغَلْنَا جارَنا عنه، ولما لاحظ وجوده، كما كنا نفعل مع الجميع، لكنّ الخوف دفعه إلى الحركة، إلى الهروب، فخرج إلى أقرب ملجأ. لم يكن الثعبان يعرف شيئا عن بوري المدفأة. كان البوري أسود من الداخل، ظنّه كهفا فلجأ إليه.. وما أن رآه حامل الفأس حتى انقض

عليه. لم يهو عليه بالفأس، إنّما على فتحتي البوري. سدّهما عليه، والتمعت عيناه. جاء بالحطب والقش اليابس وكوّمَهُ فوق البوري الذي راح يصدر أصواتَ استغاثةِ الثعبان وغضبه. كان ثعبانا كبيرا أسود اللون وكان طبعه هادئا حتى لحظة محاصرته. راحت قطع من الصدأ تتطاير عن سطح البوري حيث يضغط الثعبان بجسده القوي. كان البوري قد أتى عليه الصدأ في الكثير من المواقع. كان من شأن شقٍ فيه لو انفتح أن يتوسع تحت ضغط عضلات الثعبان. نظر إليّ كاسر ونظرت إلى غريب. تظاهرنا بمساعدة جارنا على تكويم الحطب. فرح جارنا تاركا لنا تجميع المزيد منه وراح يشعل فيما تكوّم النار. شبّت النار وازداد ضغط الثعبان المحاصر.. كان رجال الحارة قد تجمهروا.. راحوا ينتظرون رائحة الموت.. كانوا فرحين بصيد جارنا سليم. تبادلنا نحن الثلاثة نظرة أخرى. هوى غريب بالسيخ على طول البوري حيث الصدأ أقوى من الحديد وهويت أنا بالعصا لأكمل شق الطريق. برز جسدٌ قوّي لمّاع، وكمثل زانة شُدّت من طرفيها ثم حُررت على حين غرّة، قفز الثعبان مصدرا صوتا فظيعا هو مزيج من الفحيح والصراخ.. نعم تمزّق البوري وخرج الثعبان...انتصرنا على الكبار في ذلك اليوم، حرمناهم متعة القتل ومتعة الفرجة.. أعرف، أعرف، أنتِ لا تفهمين كيف يمكن أن يثير ثعبانٌ تعاطفنا، لا بد أنّك تقولين لنفسك الثعبان كائن منفّر، كان دائما رمزاً للشر، فكيف خطر ببالكم إنقاذه؟! نحن لم نكن نفكّر بالخير والشر في ذلك الوقت، كنّا نلعب قربه ولم يكن يؤذينا. قالوا لنا بعد تلك الحادثة إن الثعبان هو الشيطان، لم نصدّق ذلك، وإن الشر سيسكننا إذا أحبّنا الشيطان، رحنا ننتظر أن يسكننا الشر. بعد ذلك بيومين ارتفعت حرارة كاسر كثيرا. راحوا يضعون كمّادات باردة على رأسه. راح يهذي. قالت لي أمّه معاتبة: كلّه من الشيطان. بحثوا عن الشيخ في ذلك المساء ليعزّم عليه، ليطرد الشيطان الساخن منه. قلت للشيخ: أليس الله هو الذي أرسلنا لإنقاذ الثعبان؟! ضربني الشيخ بالعصا ناهراً: بل الشيطان هو الذي أرسلك. قلت في نفسي نحن كنّا الله بالنسبة للثعبان. تعافى كاسر ولم أشعر بأعراض الشيطان في جسدي، واحتفظ غريب بسيخ الحديد. رحنا نتباهى بتلك الموقعة. لقد هزمْنا الكبار...

في قبو فرع التحقيق تذكّرت الثعبان تمنيت لو يأتي أحد ما ويشقّ الجدار من الخارج. لم تكن في أجسادنا قوة لتمزيقه. لم يحاول أي منا توتير جسده ورغبته لفتق الجدار. كان الجدار عالما لا نهاية لسماكته. بدا العالم في الخارج كلّه جدار. هناك داخل، وهناك لا شيء كلّه جدار.. ومع ذلك كان بإمكان أحد ما أن يأتي ويهوي بسيخ حديد.. لا يزال سيخ غريب في الدار.. كان يمكن أن يُثْبت لنا أن العالم ليس جدارا، وأنّ هناك ضوءا وهواءً على بعد سنتيمترات.. لكنّ أحدا لم يأت. يبدو أن الجميع كانوا في الداخل ثعبانا هو الشر وهو الشيطان. لم يكن الخارج يجرؤ على التحديق في عيوننا. التحديق يحتاج إلى الجرأة، التحديق لا يأتي مع التسليم. خرجنا كما ترين، لكن الخارج لم يخرج بعد.. فهناك، ما زالوا يبحثون عن ثعبان لحَشْرِه في البوري وإقامة حفل شواء.

-19-

طافش في موسكو

عاش طافش في موسكو في شقة دبلوماسية من الشقق المخصصة للعاملين في السفارات وليس في سكن جامعي كالطلاب الآخرين. كان بإمكانه، لو أراد، العودة إلى سوريا والتسجيل في الفرع الذي يريد بوصفه أخا لشهيد. أجل، سمّي إبراهيم شهيدا، وأقيم له تابوت من الرخام على مقربة من السنديانة، حيث تميمة أمّون تغفو في قلب الأخضر بعدما التأم عليها جرح السنديان ورواها النسغ بماء الحياة، تغفو ملتحفة آثار أصابع كاسر.

لكن طافش لم يفكّر بالعودة لإكمال دراسته في سوريا، وليس لأن الدراسة صعبة هنا وسيكون من الصعب عليه إكمالها، لا، فالذي وهبه البكالوريا أقدر على ما هو أعلى منها. طافش يعرف ذلك، بل رأى مثالا عليه بأم عينيه أثناء زيارته للمُعَلِّم. لم يتركه المُعَلِّم يومها ينتظر على الرغم من وجود آخرين في مكتبه، بل أمر، قاصدا، بإدخاله حالا. كان المُعَلِّم يجلس خلف طاولة المكتب شابكا يديه خلف رأسه، ناظرا من علٍ إلى ثلاثة رجال يجلسون متلاصقين على حافّة الأريكة، الوجل يدفعهم إلى الركوع والخجل يقعدهم عنه. اندفع طافش نحو يد المُعَلِّم، وَجْهه أقرب إليها من يده، قبّلها مطلقا سيلا من التحيات والدعاء وعبارات التفخيم والمحبة، ثم، حين رأى المُعَلِّم يحوّل نظره صوب الرجال الصامتين، انفك عنه وخطا باتجاههم خطوة لم تكتمل بثانية، جاءه صوت المُعَلِّم: اقعد هنا، اقعد، مشيرا إلى كرسي قريب من طاولة المكتب. فهم طافش بأن ليس عليه إلقاء التحية عليهم. نظر المُعَلِّم إليهم: سمعتُ أنَّ علامات ياسر عندكم ضعيفة،- ياسر أحد الأقرباء المقرّبين-، قلتُ في نفسي غير معقول! الدكاترة يعرفون الأصول. حاول أحد الرجال، الذين تبيّن لطافش أنّهم أساتذة جامعيون، أن يشرح شيئا ما للمُعَلِّم، فرأى الأخير يمد يده كمن يُغلق براحتها ثقبا يأتي منه الهواء، ويشير باليد الأخرى، دون أن يلتفت، إلى صورة معلّقة فوق رأسه. نظر نحوها طافش، ابتسم له الرئيس من هناك: أتحبّون هذا؟ سألهم المُعَلِّم، وراحت عيناه تتفحصان وجوههم: ومن لا يحبّه، نفديه بأرواحنا.

- إذن! ياسر ينجح وبعلامات جيّدة، مع السلامة. ومد يده باتجاه الباب مشيرا إليهم بعدم رغبته في مصافحتهم. ثم، ما أن خرجوا حتى كبس زر جرس فدخل الحاجب: اعطِ الشباب ويسكي قبل خروجهم.. كان حتى أهل طافش يخشون أن يسمّوا المُعَلِّم بـ" بوطلال" في حضرة طافش. ولم يكن طافش يذكره بالاسم الذي أطلقه عليه الشيخ يونس حتى في خلوته مع نفسه.

أجل، لا يفكّر طافش بالعودة إلى سوريا، وليس من أجل الدولارات التي يتقاضاها لقاء عمل في السفارة لا يتطلّب أي دوام. أُسند إلى طافش عملٌ في الملحقية الثقافية. إنّما اقتصر المطلوب منه على قضاء الحاجات التي يأمر المُعَلِّم بقضائها. ولمّا كان طافش على يقين من أنّ أحدا من العاملين هنا لا يرد طلبا للمُعَلِّم، فما عليه إلا أن يشير بإصبعه ليكون ما يريد له أن يكون، فقد قلق على مستقبله الشخصي. فهذه المعرفة لم تكن مصدر اطمئنان وأمان بالنسبة لطافش من حيث أنّها تعني إمكانية الاستغناء عنه ببساطة، وإعادته فيما لو ارتكب خطأ بسيطا أو فَعَلَ ما لا يرضي المُعَلِّم، ولن يتساءل أحد عن السبب، وقد يكون كافيا أن يشي أحد ما للمُعَلِّم بحكاية مُختلَقة كي يعيده إلى سوريا، بل وينزل به ما هو أفظع من عقوباتٍ، سمع عنها طافش من أخيه الشهيد. وهكذا، فلم يكن أمام طافش بدٌ من اختراع فكرة تنتقل به من أخ لإبراهيم إلى ولد مدلل عند المُعَلِّم لا يجرؤ أحد على إزعاجه. لاحظ طافش منذ اليوم الأول أن الرفاق في أمن السفارة يقضون يوم عملهم واقفين في مدخلها لاصطياد الراغبين في تصريف الدولارات: هذه نقطة يمكن الاستفادة منها! فكّر طافش، ولكنّها غير كافية. وعموما، يجب التحقق منها ريثما أعثر على واحدة أخرى أقوى منها وأجدى.

أخرج طافش ورقة مطوية كان حشرها في محفظة نقوده، ورقة كتب عليها بعض أرقام الهواتف، وراح يتصل برقم كان قد حصل عليه أثناء وداع المُعَلِّم. عرض طافش فكرته. جاءه صوت، من هناك، يطلب منه انتظار مكالمة في اليومين القادمين، وأخيرا جاءت المكالمة: قدِّرْ الكمية وأخبرنا، هل يستحق المبلغ التفكير؟

تبيّن لطافش بعد مراقبته للرفاق لأكثر من أسبوع، ومحاولته تقدير المبالغ التي يبدلونها، ومحاولته كذلك، عبر مسايرتهم، معرفة فيما إذا كانوا يعملون لحسابهم الشخصي أم لأحد آخر.. تبيّن له أنّ إسقاط الفكرة أفضل من تحقيقها، فقد يتسبب له الرفاق هنا بمتاعب إذا شعروا بأنّه يعمل ضد مصلحتهم الشخصية، ولن يفضّله المُعَلِّم عليهم فلا مصلحة له بذلك، ولن يفعل شيئا هكذا من أجل عينيه.. قرر طافش صرف نظر المُعَلِّم عن الفكرة. كان الرفاق في السفارة قد أكّدوا لطافش أنّهم لا يحصلون من الجمل إلاّ على أذنه، فحصة الأسد تذهب إلى الشخص الذي أرسلهم في مهمة خارجية، وإذا قصّروا استبدل بهم غيرهم.

– فإذن، لا بد من العثور على فكرة أخرى– فكّر طافش– لا بد..–وأخيرا اهتدى إلى حلّ– سأعجب المُعَلِّم، سأسافر إلى سوريا في أقرب فرصة وأختبر فكرتي.

لم تكن الفطنة تنقص طافش، بل كان يعرف كيف يستفيد من المعلومات التي سمعها من أخيه إبراهيم ومن هنا وهناك. تعلّم طافش اللغة الروسية بسرعةٍ لم يكن هو نفسه يتوقعها، ولم تكن تنقصه الجرأة للغوص في الحياة الروسية، ولا الوقاحة لبناء علاقات مميزة مع بنات الليل. فسرعان ما عرف طافش، في موسكو، پوتانات، أو فراشات ليل، من اللواتي تتغزل بهن أغنية روسية كتب كلماتها شوفوتينسكي. بحث طافش عن پوتانا تصعب مقاومة جمالها وفتنتها، ولم يبخل، في سبيل ذلك، بالجهد والمال، وأخيرا عثر عليها. بذل طافش كثيرا من الحيلة والمال ليرسم أمام عينيها صورة من حياة أمراء العرب، ثم أغراها بسفرة ساحرة إلى سوريا تعيش أثناءها كأميرة مدلّلة. فرحت پوتانا الموسكوفية بعرض طافش، وراحت تحثّه على تعليمها ما تستطيع تدبّر أمرها به من العربية، الأمر الذي كانت حسابات طافش قد فوّتته. راح طافش يعلّمها مختارات من كلمات خمّن أنّها ستكون ضرورية لنجاح خطته.

عندما بات كل شيء جاهزا في موسكو، أجرى طافش اتصالا باللاذقية، حدد من خلاله الفترة التي يمكن للمُعَلِّم أن يكون موجودا أثناءها، وبناء عليه، اشترى بطاقتي طائرة على الآيروفلوت، وفي يوم حزيراني حار وصل طافش بصحبة پوتانا. كان أوّل ما فعله حين وصل إلى اللاذقية هو الاتصال بمكتب المُعَلِّم ورجاء التحدّث إليه. وبعد انتظار جاءه ذلك الصوت الذي ملأ قلب طافشَ رهبة وقلقا. وبعد تحيّة مضطربة، صمت طافش مصغيا، ثم: كما ترى يا سيدي، صباحا!! حسنا سيدي سأترك، إذن، صديقتي الروسية في الفندق...نعم سيدي معي صديقة روسية، جاءت معي.. نعم سيّدي.. جداً، جداً.. أَنتظرُ جعفر سيّدي؟ شكرا، شكرا، أنا مشتاق كثيرا لرؤيتك وهي أيضا، حكيت لها عنك وعن كرمك فطار عقلها. إلى اللقاء. ثم وصله صدى صوت بعيد من هناك، راح المُعَلِّم يتحدّث عبر الإنترفون: جعفر! رُح إلى الكراجات وخُذ طافش إلى شاليه.. النخيل.. لا، لا، الشمالي، يا الله، الله معك. وكان أن وصل جعفر بعد دقائق قليلة. وفي الشالية لم يَطُل انتظار طافش وصديقته، فقبيل العاشرة مساء توقّفت سيارة المُعَلِّم أمام الباب. دخل المُعَلِّم، صافح پوتانا ثم رفع يدها وانحنى لتلتقي شفتاه باليد الشفافة في وسط المسافة. أحسّت پوتانا بنبضه، وابتسمت لبريق عينيه. بادرته بكلمات أخّاذة لم تكن تعرف معناها بالضبط. نظر المُعَلِّم نحو طافش ومدّ يده لمصافحته، شعر طافش بيدٍ تشدّه إلى العناق. كانت هي المرّة الأولى التي لم يُقبّل فيها طافشُ يد المُعَلِّم. كان ذلك إيحاء بنجاح عظيم رقصت له خلايا الدم في عروق طافش طربا.

وبعد كأس عاجلة من الويسكي، تحرّك طافش في كرسيه، موحيا للمُعَلِّم بعزمه على النهوض والمغادرة، فَعَل ذلك مركّزا نظرته المتفحصة لالتقاط أدنى أمر توحي به عينا المُعَلِّم: صُب لنفسك كأسا ثانية. قال المُعَلِّم! فهم طافش بأن عليه الانصراف بعد الكأس الثانية: متى تأمرني بأن أعود؟- سأل طافشُ مبتسما-، لا بد أن أهلي مشتاقون لرؤيتي. جعفر يتصل بك ويخبرك!

بعد الكأس الثانية، نزل طافش درجات سلّم مدخل الشاليه راقصا، شعر بفرح عظيم لاهتدائه أخيرا إلى سبيل يجعل المُعَلِّم يتمسّك به. لم يبق ما يعكّر صفو طافش. كل السبل باتت مفتوحة أمامه نحو المزيد من النجاح. الدراسة شيء لا يستحق العناء. لم يخذل الأصدقاءُ السوفييت طافش، ولم يضطر هناك إلى توعّدهم بـ"محبة" صورة معلّقة فوق رأسه على الجدار. فقد زوّدت الملحقية الثقافية طافشَ بنصائح عملية تضمن له النجاح: ستجد من يحلّ وظائفك وينجز حلقات البحث عنك مقابل القليل، والامتحانات، لا تغتم، ستجد حيلة للنجاح فيها. هنا كل شيء قابل للحل، كما هو الحال عندنا. منذ تلك اللحظة شعر طافش بنفسه مهندسا. في ذلك المساء استلقى طافش على السرير، عيناه هائمتان في شيء ما بعيد. رأى نفسه مديرا عامّا يتوسل إليه أهالي عين الغار وظيفة أو خدمة: أمدّك الله يا سيدي، يا شيخ المعلمين، بالعمر الطويل، عشتَ وعاشَ أمثالك من الطيبين، أدام الله عزّك، حبيبي وحبيب الله... ثم راح ينغّم كلمة الجلالة مرددا إياها مرّات ومرّات قبل أن يقفز من سريره ويبدأ بخلع بيجامته أمام باب الخزانة المفتوح، فنتاشا تنتظره في " كونتيننتال".

-20-

درس تركيز آخر

- انظر إلى هذه الدائرة، لا ترفع نظرك عنها، لا تلتفت إلى أي شيء آخر، وفكّر بها فقط، لا تفكّر بأي شيء آخر!

كان ذلك في غرفة صف مطليّة بلون أصفر متسخ، كان ذلك شتاءً، وكانت رائحة المازوت تنبعث من البرميل الموضوع قرب السبوّرة السوداء. لم يكن في الغرفة مدفأة. كان البوري الداخل من ثقب غير متقن يمدّ عنقه عبر الجدار على يمين السبّورة، وكان مسدودا بورق من بقايا كيس إسمنت. في هذه الغرفة، في صباح أحد أيام الجمعة، حاول المعلّم جاد اختبار قدرتنا على التركيز. كان ذلك تمرينا خارج الدروس، خاصا بنا نحن أصدقاءه الصغار. قلت في نفسي: الأمر سهل.. سأجعل المكان الذي أنظر إليه يغيّر لونَه وشكلَه كل لحظة بحيث لا أملّ النظر، سأتحكّم به أنا وأُخضعه.. أمسح عنه الألوان إذا عاندني. سأثبت للمعلم جاد أنني أستطيع النظر إلى الدائرة دون أي شيء آخر والتفكير بها وحدها لوقت طويل.. ولكن..

- هل أنتم جاهزون؟
- جاهزون! ضحكنا بمرح، والتفت كل منّا إلى الآخرين قبل أن يثبّت عينيه على الدائرة.

– سأنظر إلى عيونكم مباشرة، وسأكتشف من منكم فقد تركيزه وسأُخرجه من المنافسة. أمّا من يستطيع منكم الاستمرار في التركيز خمس دقائق فسيخضع للتمرين التالي. في التمرين التالي سأحاول تشتيت انتباهكم، سأحدثكم، وألفت نظركم إلى أشياء أخرى بينما أنتم تنظرون إلى الدائرة وتفكّرون بها، وبعده هناك تمرين ثالث. هيّا، ابدأ الآن.

– دائرة!! تفكّر عيناي وليس أنا، ترسمان دوائر أخرى داخل الدائرة.. تتوالد الدوائر.. تتجه نحو المركز وتخرج منه.. أشعر بدوار. آمر عينّي بالتوقف عن رسم الخطوط التي تُتوّمني حركتها اللولبية تنويما مغناطيسيا. تستجيب عيناي، تندمج الخطوط.. شيء ما أحمر يزداد توهّجا في قلب الدائرة. تتحول الدائرة إلى فوهة تتّور.. تخرج منه دوائر، أقراص خبز. الدائرة رغيف. أشم رائحة خبز ساخن.. يشغلني الخبز.. أنتبه إلى أنني خرجت من الدائرة، فقدّت تركيزي.. كل ذلك يحصل في ثوان.. تحاول عيناي الالتفات إلى المعلّم جاد للتأكد من أنّه لم ير شرودي في الرغيف، أُوقِفهما. يتحوّل الرغيف، تتحول الدائرة إلى عين تحدّق بي دون أن ترمش.. أشعر بضغط فظيع في عينيّ.. ومع ذلك أقرّر الاستمرار. يرتسم على الدائرة صليب، تتحوّل الدائرة إلى هدف. أشعر بشعاع يخرج من عيني، شعاع حارق يخترق مركز الهدف، يبدأ مركز الدائرة بالاحتراق، أشم رائحة دخان يتصاعد من هناك.. أكزّ على أسناني، أسرّع الشعاع أكثر، تقترب الدائرة، تخرج عن إطارها تتحول إلى فوهة سبطانة.. ترتسم دائرة أخرى.. صليب تصويب في مكبّر قنّاص.. أشعر بدنو خروج الطلقة القاتلة. يتحوّل رأسي كلّه إلى عين تطلق شعاعا يُفجّر الرصاصة. أبدأ تبادل إطلاق النار مع الدائرة دون أن أتزحزح من مكاني. أشعر بأن الرصاص الذي يخرج من هناك لا يمكن أن يصيبني، ولو أصابني فلن يقتلني.. أقرّر تحويل الدائرة إلى نقطةٍ، إلى صفر. أسمع أصواتا قربي، أُضيّق الدائرة أكثر فأكثر، أكثّفها، تنصاع لي، تهرب أطرافها إلى مركزها، تختبئ هناك في نقطة واحدة.. أقول في نفسي: سأفجّر النقطة وأجعل من الفراغ دائرة، فأنظر إلى قلب دائرة الفراغ وأرى ما فيها.. أشعر بيدٍ تحط على كتفي، لا أعيرها انتباها، أسمع صوت المعلّم جاد يناديني، لا أجيبه.. لن أجيبه قبل أن أفجّر النقطة. تتفجر النقطة. تؤلمني عيناي ألما فظيعا. أصرخ قافزا من مكاني صرخة نصر: قضيت عليها..هيييه!!

أكتشف أنَّ كاسر وغريب وسلوى خرجوا من المنافسة من الدقيقة الأولى. ينظر المعلّم جاد إلى عيني نظرة متفحصة يشوبها الخوف، فشيء ما من عينيّ كان لا يزال هناك. كنت أشعر به. ينهض المعلّم بهدوء بارد. هو فقط يشير إلينا بضرورة التزام الصمت. يأخذ قالب طباشير ويرسم على السبورة كلبا، ويجعل عينيه كبيرتين راسما داخل كل واحدة منهما حلزوناً.

– ركّز الآن على عينيّ الكلب! مهما ناديتك فلا ترد، ومهما سألتك فلا تجب.. حاول أن تكون خارج منطقة تشويشي. سأرى كم دقيقة ستصمد، كم دقيقة ستحافظ على تركيزك.

حاولت طمس الخطوط الحلزونية في عيني الكلب، لم تنصع لرغبتي، حاولت تحويلها إلى خيط، خيط يمكن الإمساك بطرفه وسحبه، سحبته.. تشكلَّ خيطٌ آخر مكانه، وأخذ وضعا حلزونيا وبدأ الدوران حول مركز راح يغور شيئا فشيئا موغلا في العمق.

بعد ذلك بسنوات، جرّبت استعادةَ درسِ المعلّم جاد. حاولت استعادته مع الكلب بلاكو. كان بلاكو يعيش في دار معروف المقابلة لورشة النجارة التي عمل فيها كاسر لفترة لم تطل. كان كاسر يحب رائحة الخشب، وكان غالبا يمضي مساءاته في ورشة النجارة يساير النجار أبا صالح ويساعده في بعض الأعمال، وشيئا فشيئا صار كاسر يتقن الكثير من فنون النجارة، بل تفوّق على أبي صالح ببعض الحلول. ما عاد أبو صالح يخشى الغياب عن الورشة. راح يترك لكاسر تدبّر أمر بعض الطلبات وتصريف شؤون بعض الزبائن. لم ينقطع كاسر عن الشغل في المنشرة أثناء دراسته، فقد كان أثناء إجازاته الدراسية يمضي كثيرا من وقته في ورشة أبي صالح، إنّما لم يكن يعدّ عمله عملاً، إلى أن حلّ ذلك المساء.

فذات مساء، وبينما كان كاسر يشرب كأسا ثالثة من الشاي الأسود مغموما، تنغلق أمام عينيه المسالك والطرقات كلّما عاينها، وكان قد مضى عام ونصف على تخرّجه من الجامعة ولا عمل لديه، جاءه أبو صالح يعرض عليه استلام ورشة النجارة: لقد تعبت من الشغل ومن الناس، ليتك تريحني، ولو لفترة من الوقت، وتعمل مكاني. سأبتعد عن الناس، سأسكن في البستان، وإذا ما احتجتَ لأية مشورة أو مساعدة سأكون جاهزا لمساعدتك. ثلث الدخل للمحل، وثلثه الثاني للآلات، وثلثه الباقي لك، حلالك، ما رأيك يا ابن أخي؟ وافق كاسر بعد تردد فلم يكن يرى خبرته كافية لمثل هذه المسؤولية. ومع ذلك تمكّن أبو صالح من إقناعه في نهاية المطاف.

كان بلاكو، عادة، ينسلّ من دار صاحبه معروف وُيقعي أمام باب الورشة أو يستلقي على النشارة مصغيا إلى أحاديثنا. قلت في نفسي سأجرّب من منّا أقدر على التأثير في الآخر، على تنويمه، أنا أم بلاكو. دعوت بلاكو للاقتراب مني وأشرت إليه بأن ينظر مباشرة في عينيّ. قدّرت أنّه فهم المطلوب منه. نظرت إلى عينيّ بلاكو مباشرة ونظر إلى عينيّ، حدّقت وحدّق، ثم حرّك رأسه حركات سريعة وحوّل نظره عني، صرخت به: بلاكو! أعاد النظر إليّ، رأيت لوالب تدور في عينيه نحو الداخل، قلت سأجعل في عينيّ مثلها، رفعت سبابتي ورحت أهزّها أمام عيني مباشرة كيلا ينصرف نظر بلاكو عني، شعرت بأنّه يدنو مني، وبقوة عجيبة تشدّني نحوه، وجدت نفسي أعانقه، شعرت بقائمتيه الأماميتين تلتفان حول عنقي.

لم يطل عهد كاسر في ورشة النجارة. فمرّة، وبينما كان ينشر خشبة شوح إلى ألواح ليصنع منها بابا، دخل عجيب الورشة، تراجع بلاكو حين شعر بخبط قدمي عجيب.

– مرحبا يا أفندينا!– قال عجيب ساخرا من كاسر– كيف، إنشاء الله التاريخ نفعك بالنجارة!

نظر إليه كاسر منتظرا المزيد.

– كيف همّتك بشغل المنجور، نحن الحمد لله خلصنا من عمارة الطابقين، وخلصنا من الصحية والكهرباء، ما بقي إلاّ المنجور، شرِّفْ وخُذ القياسات!

حاول كاسر أن يشرح لعجيب أنه مشغول وأنّ لديه طلبات كثيرة، وأنه سيكون عليه الانتظار مدّة قد تصل إلى شهرين– في الحقيقة كان كاسر يحاول التملّص من تنفيذ طلب عجيب–، حاول إقناعه بأن من مصلحته اللجوء إلى معلم نجارة آخر...وبينما راح كاسر يبحث عن ألطف الصيغ لمخاطبة عجيب، علا صراخ الأخير وراح يشتم كاسر مستهزئا به، ويتوعده بحرق المنشرة إذا تلكّأ بتنفيذ الطلب، ثم بصق، وقال هازئا:

– أنا في البناية، سأنتظر تشريفك نصف ساعة، ثلاثين دقيقة بالضبط والكمال، مفهوم، يا جامعي يا فهمان! وخرج بعد أن تلا بصقته الأولى بثانية.

ما إن تلاشى وقع خطوات عجيب، حتى أقفل كاسر باب الورشة، واتجه إلى بستان أبي صالح. رأى أبو صالح الشرر يتطاير من عيني كاسر، فتقدّم نحوه متوجّسا شرّاً. سلّمه كاسر مفاتيح الورشة، شارحا له المشكلة باقتضاب شديد، راجيا إياه أن يعيره بندقية الصيد التي لديه. في البداية أضطرب أبو صالح ولم يدر ماذا يقول لكاسر أيُطيّب خاطره ويحاول إقناعه بالعودة عن قراره، أم يؤنّبه على سوء التصرف مع هذا الأرعن المدعوم من "بو طلال"، أم ماذا يقول، دون أن تخطر بباله أصلا فكرة إعطاء البندقية لكاسر، وأخيرا جاء الحل على لسان أم صالح:

– لا تضع الوقت، رُح إليه قبل أن يحرق المنشرة، هؤلاء لا يخافون الله.

وحسنا فَعَلتْ أم صالح، فبعد تطييب خاطرَ عجيب، وعده أبو صالح بتنفيذ طلباته بأسرع ما يمكن وبأحسن نوعية، ووعده عجيبُ بالمقابل بكسر رأس كاسر.

عاد كاسر إلى البيت عاجزا عن الوقوع على فكرة أو أداة تحميه من شر عجيب وجماعة "بو طلال"، بحث في البيت عن أي شيء يقاتلهم به، فلم يعثر على شيء.. اتجه إلى الخزانة التي كان لا يزال يحتفظ بكتبه المدرسية فيها، أخرج من درجٍ هناك سكين الكبّاس، السكين التي جعلت بدلة الخاكي تفرّ يوما أمامهم على طريق القصر، تفقّد نصلها، كان لا يزال حادّا.. وفي الليل الذي أعقب ذلك المساء قرّر كاسر ذبح عجيب إذا تمكّن منه، في حال دخل الدار.

–21–

معركة عمّار الأخيرة

حدّد لهم النقيب معتصم المهمّة بوضوح:

– عدم العودة دون حسام حيّا أو ميتا.

دهموا البيت العتيق يوميّا على مدى ستة أيام متتالية، ولا أثر لحسام، وفي السابع أرسل النقيبُ معتصم قائدُ سرية المداهمة في طلب الملازم أوّل جلدر. وقف الأخير باستعداد يصغي إلى أمر قتال مقتضب وبالغ الوضوح.

– أمرك. عُلِم سيّدي!

– اختر اثنين من القبضايات. بانتظار عودتكم سالمين!
– اطمئن سيّدي.

حين جاؤوا، ذلك العصر، كان الجميع في البيت عدا الهارب حسام: ربيعة في غرفة نوم البنات، الغرفة التي تنفتح نافذتها الوحيدة على حديقة داخلية مغلقة نصف معتمة، وأمّها وأبوها وأخوها خالد تلميذ الصف الثامن وزوجة أخيها الهارب حسام مع طفلها الرضيع وليد في غرفة الجلوس، وكان نبيل توأم خالد يقضي حاجته في الحمّام.

كان النقيب نوفل قد استدعى الملازم أوّل جَلْدَر، المعروف بقسوته وصدق ولائه، بعد أن راحت الشكوك تساوره حول نظافة أداء الملازم محمود ومجموعته السابقة التي تولّت مداهمة البيت وتفتيشه في المرّات السابقة، وكان النقيب يضمر شرّا للملازم محمود الذي لا يفعل شيئا سوى أنّه يقول: لم نعثر على أحد، سيّدي!، كان يتمنى، في سرّه، أن يأتي جلدر بحسام، من أجل أن يتأكّدوا هناك بأنه لم يقل إلا الحقيقة في كل كلمة قالها عن محمود.

لم يكن النقيب واثقا من أن محمودا كان يوصل الرسالة واضحة: ستموتون جميعكم إذا لم يأت حسام ويسلّم نفسه. ومما كان يزيد في شكوك النقيب إصرار الملازم محمود، الإصرار الذي عكسته عينا الملازم وليس كلامه قبيل المداهمة الأخيرة:

– لا أحد في البيت يعرف شيئاً عن حسام، سيّدي! لم يره أيٌّ منهم منذ أكثر من شهرين!
– أراك تتحدّث باسمهم يا سيادة الملازم! هل تعي ما تفعل، أم لا؟
– سيّدي، لا يُعقل أن يأتي حسام إلى البيت وهو يعلم أننا ندهمه!
– تبدو متأكدا من أنّه يعلم، من أين لك هذه الثقة، سيكون لي حديث آخر معك إذا لم تأت بحسام اليوم يا ملازم محمود.
– أرجوك سيّدي، أنا فقط أردت أن أقول إنه ليس أحمق حتى يتواجد في البيت أو يترك معلومة عند أهله، هو يعلم بـ..
– كأنّك تعرف حسام يا سيّد محمود!! ما رأيك بأن تقول لنا أنت أين هو؟ أفصحْ، أفصحْ أكثر.

بعد عودة محمود صفر اليدين في ذلك الليل، اتصل النقيب بمكان ما، وأغلق سمّاعة الهاتف واستلقى، بانتظار أن يعود رجاله الآخرون من مهمّاتهم الليلية الأخرى. في صباح اليوم التالي طُلب محمود إلى مكان ما ولم يعد. وفي العصر جاء الملازم أوّل جلدر.

– أصرّوا سيّدي!
– وماذا بعد؟!
– كما أمرتم سيّدي النقيب!
– الجميع؟
– نعم سيّدي!

على غير العادة سمع أبو حسام صوت ضربات شديدة على خشبة الباب، نهض من مكانه وقد كان ينتظر قدومهم في كل دقيقة، لكنّه لم يبلغ الباب حتى كاد لسان القفل يكسر الإطار مستجيبا للضرب. رأى أبو حسام ثلاثة رجال مسلّحين، لم يسبق أن رآهم من قبل. بدت على وجه قائدهم ملامح جعلت أبا حسام يفتح ذراعيه متوسلا الرحمة. كانوا ثلاثة فقط. أمر قائد الثلاثة مقاتليه بتفتيش الغرف وتجميع الجميع في الصالون. كان الجميع في الصالون باستثناء ربيعة ونبيل. اتجه العسكري عبد الله باتجاه المنتفعات، فيما تقدّم العسكري عمّار باتجاه باب الممر المفضي إلى غرفتي النوم. كانت الغرفة الأولى فارغة. أمّا في الغرفة الثانية فكانت ربيعة وحدها. نظرت ربيعة إلى رشاش العسكري عمّار بعينين مفزوعتين، ويدين مرفوعتين. أغلق العسكري عمّار باب الغرفة مسرعا، واضعا سبابته على شفتيه أن اصمتي، وإلا هلكت. أمرها بصوت خافت حنون:

– اقفزي من النافذة، استلقي بجوار الحائط، انتظري هناك، إياك أن تتحركي، ستموتين لو تحرّكت، سآتي وأخذك، انتظريني، مهما تأخرت لا تتحركي من مكانك، سآتي من كل بد. لا تدخلي البيت. مفهوم! عاد عمّار مقدّما تقريره لسيده بصوت مرتفع:

– لا أحد في الغرف سيدي، ناظرا نظرة ذات دلالة أكيدة نحو أبي حسام، فيما عاد العسكري الآخر مجرجرا نبيلا من قميصه.

– الجميع هنا في الصالون، إذن. قال الملازم أوّل مبتسما، ثم ابتعد خطوتين عن يدي أبي حسام وأمر الجميع بالاصطفاف أمام الجدار تحت سجّادة جدارية رسمت عليها الكعبة.

– أين حسام؟ سأل محدّقا في عيني أبي حسام، موجّها فوهة رشاشه إلى وجهه.

– أقسم بالله العظيم لا أعرف أين يكون، ولا أعرف شيئا عنه.

– وأنتِ؟! نظر إلى زوجة حسام، مدركا من تكون.

– والله، والله ما رأيته من أكثر من شهرين، أقسم بر..

– لا تقسمي، كلّكم كاذبون، وأنت، أنت أمّه لن تخبرينا، مفهوم.

لم تكن الأصوات تصل إلى ربيعة، ثم ما هي إلاّ لحظات حتى لعلع الرصاص. سدّت ربيعة أذنيها وراح جسدها ينتفض مع كل إطلاقة. بعد زخّات منه، هدأ الرصاص، لكن الطنين ما كاد يبرح أذنيها حتى جاءها صوت رصاصة يشبه مفرقعة العيد.

– أرجوك سيدي! ما ذنبهم؟! صرخ عمّار مفجوعا حين سمع أمر الملازم أول.

– اطلق النار وإلا – غرز الملازم أوّل سبطانة بندقيته الرشاشة في صدر عمّار–، جبان، سافل. قال الملازم أوّل، وتراجع ليقف خلف العسكريين.

بدأ العسكري عبد الله يطلق النار بجنون هوت معه جثث المتضرعين مضرجة بدمائها. أطلق عمّار النار أيضا. لكن خيّل إليه أنه أطلقه إلى الجدار، أطلقه وهو يبكي، منتقما من الحجارة التي لم تحم أهلها. بعد أن خرّ الجميع، دفع

الملازم أول عسكرييه جانبا، وتقدم باحثا عن نبضة أخيرة في جسد ما. هوى جسد الرضيع عن صدر أمّه. أمر الملازم الأول مقاتليه بقفل الباب والانصراف الآن، وإحضار سيارة في الليل لإخلاء الجثث.

في وقت متأخّر من ذلك الليل، نقل عمّارُ ربيعةَ إلى خارج المدينة، نقلها إلى صديق له في ضيعة ديرماما، وفي الليل التالي نقلها إلى بيت أهله في أطراف ضيعتهم رويسة سالم، وأمرهم بإخفائها عن عيون الجميع، لأن اكتشاف أمرها يعني إعدامها وإعدامه. اطمأن عمّار إلى أن أهله يعيشون في البساتين بعيدا عن بيوت الآخرين. أمر أبوه جميع أفراد العائلة بعدم دعوة الضيوف، وبالتهرب من استقبال من يأتي منهم ما أمكن، كما أمر بإغلاق باب سور البستان باكرا كل يوم، وإفلات الكلاب، وأمر بتجهيز مكان في غرفة المؤونة لإقامة الضيفة ريثما يجد عمّار لها حلا.

فكّر عمّار بأن إخفاء ربيعة عن العيون إلى ما لا نهاية أمر مستحيل، فلا بد أن يراها أحد ما في لحظة غفلة، وعندها سيبدأ القيل والقال.. إذن، ما الحل يا عمّار!؟ لا بد أن يكون لربيعة أقرباء في مكان ما، ولا بد من البحث عنهم وإيجادهم بطريقة ما.. وربما يكون الحل في ترحيل ربيعة إلى بلد آخر، فقد يكتشفون الأمر هنا وتكون نهايتهما معا. لماذا لا يفكّر، فعلا، بطريقة لسفر ربيعة؟ كان عمّار قد قص على أفراد عائلته حكاية المجزرة التي أودت بحياة عائلة ربيعة، فصلّى أبوه من أجل أن يرحمهم الرب، وبكت أمّه بكاء شديدا وهي تولول وتصيح: وحوش، مجرمين، وحوش.

لم تر ربيعة جثث أحبتها، ولا تريد أن تصدّق أنّ ذلك الرصاص الذي سمعت أزيزه كان يمزّق أجسادهم وتلك الصرخات كانت آخر أصوات لهم في الحياة. وفيما كان عمّار يرتّب أمر خلاصها كانت ربيعة تهزّ رأسها، محدّثة نفسها، طوال الوقت، محدّقة في الجدار المطلي بالحوّار تتدلى عليه زجاجات فيها تابعات محبوسات.

في الأيام الأولى، لم يكن لأحد أن ينتزع من ربيعة كلمة إلا عمّار، وأمّه التي تأتيها باكية مرّات كثيرة كل يوم.. ثمّ، شيئا فشيئا راحت ربيعة تشعر بمحبّة سوسن أخت عمّار لها، وبصلوات أبي عمّار من أجلها.. وعند ذلك فقط بدأت تبكي. بدأ بكاؤها بصورة مفاجئة، كما لو أن سد الدمع انهار فجأة فاجتاح ماؤه سهول خديها الشاحبين. بعد ذلك، صارت ربيعة تبكي، كلما رأت أمّ عمّار. كانت أمّ عمّار تأخذ البخّور مساء وتذهب إلى مقام الخضر، وهناك تبكي متوسّلة إلى صاحب المقام أن ينتقم من الظُلاّم، ويتشفع لدى الله بأن يرحم المظلومين وبأن يحمي ربيعة.

– ربنا ينتقم منهم يا بنيّتي ربنا ينتقم، وحوش.. تقول لربيعة ثم تجهش بالبكاء.

تحولت لقاءات أمّ عمّار وربيعة إلى حفلات بكاء. ولم يكن من شأن ذلك إلا أن يخفف الوطأة عن ربيعة ويعيدها بالتدريج إلى الحياة. أمّا مروان أخو عمّار فلم يكن يعجبه أنّ ربيعة محجّبة وأنّها تتكور حاشرة رأسها بين ركبتيها، عندما يدخل ليسألها عن أحوالها، فترد على سؤاله باقتضاب، دون أن ترفع نظرها إليه.

كان لدى عمّار صديق حميم في اللاذقية. كانت يد النقيب فادي اليمنى مشلولة. فقد أصابتها عدة رصاصات أثناء إحدى المداهمات، فيما جعلته رصاصة أخرى يعرج عرجا ثقيلا. سُرّح فادي من الخدمة بسبب عجزه، وفي الفترة نفسها مات أبوه بالسكتة القلبية. لم يبق في البيت إلا أخته نجوى، وأخوه الصغير يحيى وأمّه العجوز مريم، وصور أخواته

الثلاث المتزوجات. كثيرا ما شكا فادي لعمّار وحشية الأعمال التي يؤمر الجيش بتنفيذها، وكثيرا ما تمنى أن يصاب بجرح ثخين ليخرج من ذلك الجحيم، فهو لا يريد أن يقتل أحدا ولا يستطيع عصيان الأوامر، ولا يطيق السكوت عن الفظائع التي يراها. أُصيب فادي إصابته البليغة تلك لأنّه تباطأ في إطلاق النار.. وبالمقابل راح الرقيب أوّل عمّار يشكو لصديقه فادي خوفه من أن يضطر إلى قتل أحد ما، فهو لا يستطيع تصور ذلك، ولا يعتقد أن بإمكانه قتل إنسان، فكيف إذا كان هذا الإنسان ابن بلده: يا أخي إذا كان إبراهيم اليوسف وحشاً، فلا يعني أن نصبح نحن وحوشا أيضا!! قال عمّار لفادي.

تمنّى عمّار أن يصاب من اليوم الأول لدخولهم حماه، لكن أمنيته لم تتحقق. أمّا أمنية فادي فتحققت ثلاثا، ومع ذلك شكر الله كثيرا على أنّه لم ينهب بيتا ولم يستبح حرمة ولم يؤذ أحدا هناك، وشكره على إصابة هي عين الرحمة التي أخرجته من وحدةٍ مارست القتلَ بناءً على أوامر عليا.

هذه المرة جاء عمّار إلى فادي وقص عليه مأساة ربيعة:

– نعم لديها خالة متزوّجة في عمّان.

– وهل تعرف عنوانها؟

– الحمد لله رقم هاتفها موجود، ولكن أخشى أن يكون في الاتصال مغامرة، أنت تعرفهم، هم الآن يبحثون عن مطلوبين في كل مكان!

– الأفضل، إذن، أن لا يتصل أحد من هنا، فعندما تصل ربيعة إلى عمّان تتصل، ولا بد أن تجد أحدا ما في بيت خالتها. خَلّ فقط نجوى تضرب الرقم من محلّ عام، فقط للتأكد من أنّ الرقم ما زال مستخدما.

– قد يكون من الأفضل أنْ تتأكد من أنّه بيت أبي رائد. أم رائد خالة ربيعة.

اشتعل فادي حماسة لمساعدة ربيعة، حتى إنه كاد يحرك يده اليمنى المشلولة، وأبدى استعدادا لتقديم كلّ مساعدة يستطيعها.

– لا تقلق من وجود أخي، أخي يحيى يكره العسكر، ويشعر بالعار لما فعلناه هناك.. أجل، أقول فعلناه، لأنه فُعِلَ باسمنا جميعا! نجوى ستأتي بعد قليل، لا تقلق بشأنها أيضا، فقد سبق أن حدّثتك عن السفالات التي تعرّضت لها.

بيّن عمار لفادي أن المطلوب فقط هو استقبال ربيعة لعدة أيام، ريثما يرتب أمور سفرها إلى الأردن. أوضح عمّار لفادي بأنه سيحصل على جواز سفر لأخته سوسن عليه صورة ربيعة، وبأنّ ربيعة ستسافر باسم سوسن، وقد تبقى سوسن في ضيافتهم مع ربيعة حتى موعد السفر.. وما أن جاءت نجوى إلى البيت حتى اختلى بها فادي وراح يتداول معها بتفاصيل الأمر.

بعد يومين جاؤوا! ربيعة وسوسن وعمّار، شد فادي بيده اليسرى على يد عمّار، ورجاه أن يقبل منه ثمن بطاقة ربيعة، فوافقه. رحّبت العجوز أم فادي بالفتاتين، وراحت تتفحصهما، باحثة في وجهيهما عن عروس لفادي. أحست سوسن بذلك فابتسمت للعجوز، ونظرت بعطف إلى يد فادي المشلولة وهي تمد يدها لمصافحته.

وهكذا رُتِّب أمر سفر ربيعة في بيت أم فادي، وبقيت سوسن هناك يوما آخر بانتظار عودة نجوى من مطار دمشق، ثم.. ثم قال عمّار لأخته سوسن، عندما جاء ليصحبها إلى ضيعتهم رويسة سالم، في آخر أيام إجازته. كانوا قد خرجوا من المدينة وحلّ محلّهم آخرون. كان القتال قد توقّف هناك منذ ستة أسابيع.

– فادي، رجل رائع، ويستطيع بيد واحدة أن يحمي المرأة التي ستعيش معه ويسعدها، أكثر من أقوى الرجال!
اكتفت سوسن بابتسامة ذات مغزى.
قال فادي:
– ليتكِ تبقين عندنا. أجابت سوسن
– من يدري، ربما أعود!
– ما رأيك يا صديقي عمّار؟ سأل النقيب فادي.
أجاب الرقيب أول عمّار:
– أنت الرتبة الأعلى، هنا، تأمر فتطاع!
– لا، الرتبة الأعلى هي أبي.. ردت سوسن.

–22–

في مطار دمشق الدولي

في صالة الركاب، في مطار دمشق جلست نجوى وربيعة النحيلة الجسد، الشاحبة الوجه، التي يغطي شعرها وَجُلَّ وجهها منديل مائل إلى الصفرة. جلستا معا صامتتين، كل منهما سارحة في عالمها، نجوى لا تغيب من مخيلتها يد قاسية تضغط رأس درويش وتحشره في سيّارة البيجو، وربيعة تنتظر جناحين تطير بهما بعيدا عن الموت. سارحتان كل في عالمها بيد أنّهما تنتظران الشيء نفسه، تنتظران صوتا يدعو الركاب المتوجهين على متن الخطوط الملكية الأردنية للتوجّه إلى الطائرة. راحت نجوى تأسف لغضبها من درويش...فلا بد من أنّ شيئا خفيّا دفعه إلى الصراخ في وجهها والإلحاح على عودتها بعدما جاء بنفسه لدعوتها! كان يشعر بالخطر، وإلاّ لما أصر على عودتها إلى البيت بذلك العنف، وحسنٌ أنّها عادت.

– يا لهذا اليوم المكتظ بالمعاني! درويش إلى الأقبية، وربيعة من الأقبية وأنا إلى أين سأعود؟! من سيبعث الحياة في شمعي الميت بعد غياب درويش؟ لا يبدو أنّ الزمانَ زمانُ حريّة، سيكون عليّ أن أنتظر دوري، فقد يجيئون غدا أو بعد غد لاعتقالي، وقد يفعلون في طريق عودتي من هنا إلى اللاذقية، فهم يفتّشون الوثائق في كل مكان! وقد يكون اسمي أُضيفَ إلى قائمةٍ ما من قوائم المطلوبين. كان يجب أن أُخبر فادي باعتقال درويش، كان يجب أن أنبّهه إلى أنّ غرباء قد يطرقون الباب بقسوة بعد منتصف الليل...

نظرت نجوى إلى ربيعة، تمنّت لو تسافر معها، لو ترتاح قليلا من الخوف والقلق والانتظار، من كل الأشياء التي تسمى حياة هنا في هذا الزمن العصيب، لم تقل نجوى لربيعة شيئا مما يدور بخاطرها، هي فقط اكتفت بالإمساك بيدها

والضغط عليها بصمت. وأمّا ربيعة فكان سيلٌ من الصور يحجب عن عينيها كل هؤلاء المتزاحمين هنا في بهو الانتظار: الحزن في عيني عمّار لحظة وداعها، بكاء سوسن، يد فادي المشلولة، أزيز الرصاص، خالتها خديجة المتزوّجة في عمّان.. فما زالت أصابع ربيعة تذكر تلك الأرقام التي كانت تديرها أمام عيني أمّها المتلهّفتين لسماع صوت خديجة البعيدة.

كاد أن يكون سعيدا ذلك اليوم الذي عرفت فيه نجوى أن السفر إلى الأردن لا يحتاج إلى سمة دخول من المملكة، وكمثله كاد يكون ذلك اليوم الذي فتح فيه عمّار جواز سفر باسم أخته سوسن ملصوقة عليه صورة ربيعة ليجد فيه تأشيرة خروج إلى الأردن، كان عمّار قد صرّح في مديرية الهجرة والجوازات في اللاذقية بموافقته على سفر أخته سوسن، بوصفه وليَّ أمرها.

– في الساعة الواحدة سيكون الجواز جاهزا وعليه تأشيرة خروج باسم المحروسة أختك.. قال شرطي لعمّار.
– هل أستطيع أن أستلم الجواز بدلا عنها؟
– سأحتفظ به حتى تأتي، راجعني أنا. قال الشرطي مبتسماً.

تنفّس عمّار الصعداء، فقد كان حضور ربيعة معه إلى الهجرة والجوازات أمرا بالغ المشقة. فلقد أصابها رعب شديد من رؤية رجال مسلّحين ببنادق آلية على مدخل المبنى، وآخرين مثلهم يتنقّلون بين الغرف.

– اجلسي هنا، اجلسي، لا بأس عليك، خمس دقائق ونخرج! أرجوك تمالكي نفسك– أشار عمّار إلى مقعد خشبي أمام قسم وثائق السفر، راجيا ربيعة أن تجلس عليه– سأدعو موظّف الجوازات ليلقي نظرة واحدة عليك، ثم أوصلك إلى بيت أم فادي، وأعود لأكمل باقي الإجراءات وحدي. لا تقلقي.. لحظات قليلة.. راح عمّار يتحدث بصوت أقرب إلى الهمس، بصوت فيه الكثير من العطف والحنان، محاولا تهدئة ربيعة.

– هذه أختي سوسن، هي مريضة جدا لا تستطيع الانتظار، نحن بانتظار أن نتمكّن من علاجها في عمّان، لذلك جئنا للحصول على جواز سفر لها، أنا أخوها، والأوراق معي، هل تستطيع أن تعود هي إلى البيت، وأكمل الإجراءات أنا– سأل عمّارُ الشرطيَ، حاشرا في يده ورقة نقدية من فئة المائة ليرة– سأوصلها، إذا سمحت إلى البيت وأعود حالا!

– تفضّل معي– قال الشرطي، محاولا رسم علامات أسى على وجهه– خذ استمارة، خلّها توقّع، والله معها.

وهكذا كان الأمر، فما أن وضعت ربيعة توقيعها تحت اسم سوسن سلمان حتى رفعها عمّار على بساط من كلمات التشجيع والمؤازرة إلى بيت صديقه فادي، حيث كان الأخير بانتظارهما مع أخته نجوى وأمّه وسوسن أخت عمّار. كان يوما عصيبا على جميع من في ذلك البيت، لكن زغردة علت فيه في الساعة الواحدة والنصف ظهرا حين عاد عمّار حاملا وثيقة السفر. لم تستطع سوسن تمالك نفسها فزغردت. نظر فادي إلى زهر حطّت به فرحةٌ عابرةٌ على خديها، ولكن ما أن أدركته سوسن بهامش عينيها حتى أشاح بنظره صوب النافذة.

بعدما استعرضت ربيعة شريط الأحداث التي تلت ذلك اليوم الرهيب، افتر ثغرها عن طيف ابتسامة، راحت ربيعة تداري حلما بأن ترى أهلها ينتظرونها هناك في عمّان.

على هامش فضاء حلم ربيعة، في مطار دمشق، جلست فتاة شقراء طويلة بتنورة قصيرة وراحت تنفث الدخان، منقّلة عينيها بين الجميع، بينما قرفص أمام رجليها شاب حنطي البشرة، وراح يحدثها ضاحكاً عن شيء ما، مُحرّكا يديه كأنّما هو يرسم ثعابين في الفراغ. كان هذا الشاب الأسمر هو طافش بن سمير، كان ينتظر مع پوتانته التي عاد بها من حضن بوطلال إقلاع الطائرة إلى موسكو. كانت نجوى قد رأت إبراهيم مرّة، وربّما هي رأت طافش في ذلك اليوم، لكن لم يعد بمقدورها معرفته. فقد تحوّل طافش من فتى صغير يمكن أن تراه في الشارع مندفعا خلف قطة هاربة من شرّ يديه، إلى شاب وسيم بلحية شبابية حُددت أطرافها بعناية. أمّا طافش فكان يعرف درويش، كان قد ذهب ليتفرّج عليه حين قيل في الضيعة إنّه جاء، خارجا من السجن لزيارة قبر والدته. درويش لا يعرف طافش، كما لا يعرف كثيرين من مجايلي طافش ومن هو أصغر منهم. فناهيك عن غيابه سنوات بين الاتحاد السوفيتيي والسجن، فقد توسّعت عين الغار في السنوات الأخيرة كثيرا. فهنا، بنى كثير من العسكر بيوتا لأنفسهم كيفما اتفق على أرض منبسطة من أراضي الإصلاح الزراعي. تحوّلت الأراضي التي كانت تزرع بالدخان والحنطة والبطاطا سابقا إلى تجمعات من مبان عشوائية معظمها غير مكتمل وكثير منها غير مطلي الجدران، وبعضها بلا نوافذ أو أبواب، بيد أنّ فيها جميعا عائلات راحت تتدبر أمر سكناها كيفما كان. وأمّا الهضاب فقد توزّعت عليها عدّة ڤيلات، أكبرها وأجملها لضابط كان يعمل في لبنان، وبقيت بينها ڤيلا إبراهيم كما تركها صاحبها حين قُتل في حماه، ينقص سطحها بضع صفائح قرميد، وينقص جبصين غرفها التلوين. أمّا بيت النقيب أحمد بن زنّوب أخت أمّ عطا، فكانت حجارته تُرص وتعلو مع كل يوم من أيام حماه. كان أحمد ضمن الوحدات التي دخلت حماه لقمع الانتفاضة المسلحة فيها. هكذا قال لأهله حين جاء يودّعهم! بكت زنّوب كثيرا في ذلك اليوم، – لسبب ما نادرا ما كان أحد يناديها في عين الغار بأم أحمد، وأحمد نفسه كان يُنادى هنا بأحمد زنّوب وليس بأحمد معروف،– لكن أحمدَ لم يترك لها أن تبكي طويلا فها هو يعود إلى دار أهله بعد غياب قصير. جاء أحمد لعدّة ساعات يحمل كيسا عسكريا أخفى ما فيه عن أخوته، تاركا لأبيه تدبّر أمره وغادر. ثم تكررت زيارات أحمد القصيرة إلى عين الغار، ومع كل زيارة راحت البناية، التي كان قد بدأ تشييدها قبل تلقّيه أمر القتال، تتحول إلى ڤيلا أشبه بقلعة صغيرة. أثناء إحدى زياراته الخاطفة سُمِع في بيت زنّوب صوت طلق ناري. ثم انفجرت في الهواء كتلة ديناميت، وعلا صراخ. قِيل إن صلاح أخَا أحمد انتحر. غادر أحمد إلى حماه قبل أن يدفنوا أخيه، كان عليه العودة لمتابعة القتال هناك. دُفن صلاح في جبل الخرنوب في مقبرة عائلة آل معروف بالقرب من قبر الملازم يوسف. كان يوسف قد رُقّع إلى رتبة ملازم بعد مقتله في مدرسةِ المدفعية، في ذلك اليوم الرهيب حين حُبس طلاب الضباط الذين أُريدَ لهم الموت في الندوة، ثم سمعوا الضابط الذي أنيط به إعدادهم لقتال إسرائيل يأمر بفتح النار. أمر إبراهيم اليوسف ببدء جهنّم فتساقطوا جسداً يتلقى الرصاص عن جسد، جسداً يُخمد الشظايا عن جسد، وسقط يوسف، فمه مفتوح عن سؤال: لماذا؟ كان كثير من الرصاص قد اخترق جسد يوسف، وشظايا زجاج فقأت عينيه. لم يبك أحد في ذلك اليوم، بل وقف الجميع في حالة وجوم، وعندما دفنوه قرأوا الفاتحة صامتين، وانصرفوا، بعضٌ إلى ظَلامه وبعضٌ إلى فتيلٍ ضعيف يكاد لا يقوى على الظلام. كان طافش ويوسف يلعبان في طفولتهما معا على بيدر الزرع وكانا يتفيآن ظلّ غيمة واحدة. أصيبت أم يوسف بشلل نصفي: لا أستطيع فعل شيء!! قال طبيب النبات حسين للرجال المتسائلين الملفّحين بدخان تبغهم الثقيل، حين جاء لمعاينة شجرة الزيتون التي طالما تفيّأ أطفال عين الغار ظلّها. يبست في عزّ خضرتها، نخرها نيرون في غفلة من الكبار.

سمع طافشُ بحملة اعتقالات واسعة لا تزال مستمرة، وعلم بأن كاسر وغريب اعتقلا. قال له المُعَلِّم: في ضيعتكم كلاب شيوعيون يعملون مع الأخوان المسلمين ضدنا، إيّاك أن يكون بينهم صديق أو قريب لك. لم تكن حملة الاعتقالات خافية على أحد، بل كان على كل عاقل أن ينتظر دوره، لا لشيء إلا لمجرد كونه صديقا أو قريبا لمطلوب ما أو متّهم ما، أو كرهينة عنه.. تحتَ لعلعة الرصاص يمكن لكل أحد أن يكون متهما. كان الرصاص يُسمع هنا وهناك، وليس فقط في حماه.

حين ودّع عمّارُ ربيعة قرب باب الحافلة، قال لها: أرجوك، تذكّري اسمك الجديد، فكثيرا ما يكون الاسم قاتلا يا أختاه!

-23-

ليس كل الدروب إلى الطاحون!

ما أن سمعتُ باعتقال كاسر وغريب حتى لجأت إلى درويش. رجوته أن نذهب معا لمواساة سلوى. اعتذر درويش عن مرافقتي، ورجاني أن لا أؤجل زيارتي لأهل كاسر، قال: سافر اليوم أو غدا، فمن يدري؟! سألته عن نجوى قال: هي مسافرة إلى دمشق.. زُرها، أرجوك عندما تعود! أقلقني درويش.

ركبتُ الحافلة المنطلقة إلى ضيعتي عين الغار شاعرا بضيق وقلق خفي مما قد أراه في بيت كاسر. رحت أقاوم رغبة في أن يحول أي سبب دون سفري، في أن أدخل في غيبوبة وتكون الأشياء كلها قد انجلت حين أستفيق، ولمّا كنت أدرك أنّه لا بد من مواجهة الواقع رحت أقلّب الاحتمالات في ذهني مستعدا لنقل النبأ إلى نجوى. رحت أستعد لردود فعلها على كل احتمال ممكن. ولكن، يبدو أن كل إنسان يستحضر الأسوأ ليس على سبيل الاستعداد والتهيئة النفسية فحسب، بل من باب ضرورة الدراما. كل إنسان يدفع بالأمور إلى حدها الأقصى. يجب أن تكون هناك لحظات حادة، يجب أن يكون هناك تصادم بين المأمول والواقعي، يجب أن يكون هناك عذاب وموت. إذا جُرح أحدهم فيجب أن يكون هذا الجرح عميقا يودي به إلى مشارف الموت، وإذا سقط أحدهم فلا بد أن تكون الهوة سحيقة، وإلا فإن سقوطه لن يكون دراميا ذا معنى مهم. فإذا ما التقيت أحدا في طريقي وأخبرني بأن سلوى وأمّها تعرفان باعتقال كاسر فلن أفرح، سأفقد معاناة لحظة الصدمة! ولن يكون لانتظاري معنى ولا لقلقي معنى ولا للسفر نفسه معنى. كل ما يمكن أن يلي ذلك كلمات مواساة باهتة: شدّي حيلك، ستهون الأمور، لا يصح إلا الصحيح! وكثير من هذا الهراء.. لا، فهذا كله باهت، ميت، يجب أن يكون هناك ما هو أكثر من ذلك، يجب أن يعلق الأهل بين احتمالات كلّها مثيرة كأن يكون ابنهم الذي فُقِدَ أثره قد تعرض لحادث ففقد ذاكرته، أو أنه قرر فجأة مقاطعة الجميع، أو أن يكون في ثلاّجة الموتى.. أو هو في غرفته يلهو برسائل مختلفة ساخرا من مرسليها ومن أصوات الطرق على الباب. تخيلوا شخصا تصله رسائل من أناس كانوا بالأمس أعزاء على قلبه، وها هو اليوم ينظر ببرود إلى مغلفات الرسائل التي تصله منهم ويلقي بها في سلة المهملات دون أن يفضها. لا بد لمن يفعل ذلك أن يكون شخصية درامية تطيب متابعة تصرفاتها وأحداث حياتها.. لكن أيّا من هذه الأشياء لا يناسب كاسر، ولا يمكن أن يخطر ببال سلوى أو أمّ عدنان. ومع ذلك فأنتم وأنا تخطر ببالنا هذه الأشياء وأكثر. فشيء ما يدفع المرء لانتظار الأسوأ، شيء ليس لأحد أن يكون بمأمن منه، لا أنتم ولا أنا. فها أنا أضع

السيناريوهات الأكثر حدة لوصولي، متصورا نفسي بطل مسرحية ستدور على مسرح عين الغار. أتمنى للحظة لو أنني لست وحيدا في رحلتي هذه، ثم، ثم ترددت! فلذة المعاناة الدرامية أن تكون وحدك، وحتى حين يكون هناك جمهور، يجب أن تكون قادرا على الانفصال عنه، يجب أن تكون قادرا على عدم رؤيته، عدم الإحساس به وأنت تحس به بعمق، وإلا فإنك تكون ممثلا فاشلا. أما الجمهور، فكل ما عليه فعله هو أن يصفق. الجمهور يصفق للموت كما يصفق للحياة، يصفق للخيانة كما يصفق للوفاء، يصفق للقوة كما يصفق للضعف. أما أنت فعليك أن تبتسم وتتماسك وكأنّ ذلك كله لا يعنيك، مع أنك تصلّي في داخلك من أجل أن يستمر التصفيق إلى ما لانهاية. الحماسة تجعل الموت لذيذا، تجعل العذاب متعة! هذه هي الدراما. وهنا تكمن لذة الانتظار والترقب والقلق.

حين أمسكت بقبضة باب الحافلة كاترينا، كنت كممثل استعد للدور جيدا وكمشاهد استعد لمتابعة العرض مع كل ما فيه، دون الإخلال بقواعده– عدم إبداء انفعالات إلا حين تكون الانفعالات مطلوبة وبالقدر المطلوب، وإلا فإنني سأكون كمشاهد يفسد اللعبة المسرحية. رحت أتصور مجريات فصول المسرحية ومصائر أبطالها. لكن لم يبق الكثير من الوقت الذي يفصلني عن انفتاح الستارة.

لم أر سلوى منذ فترة طويلة، ولم ترني. لا بد أن تكون عاتبة عليّ، فهي لا تعرف أين كنت ولماذا اختفيت. سلوى لا تعرف شيئا عن مائتين وواحد وخمسين يوما قضيتها في بئرْ في مزرعة الأستاذ، وفي غرفة مع ثلاثة كلاب عملاقة من كلابه. لحسن الحظ ألفت وجودي الكلاب، ودفّأتني في الليالي الباردة. كانوا هناك يعلقونني في وسط البئر ويضحكون، كان بينهم واحد من ضيعتي. كان أكثرهم قسوة في التعامل معي. كان عجيب قد رجا "بو طلال" أن يمنعني من العودة إلى الضيعة عند إطلاق سراحي، ضحك الأستاذ: إياك أن يراك أحد في عين الغار! تولَّ أنت مراقبته يا عبد. أمره الأستاذ: لعيونك! فرح عجيب. كان عجيب هو من أخبر "بو طلال" بقطعة الأرض الوحيدة التي يملكها أبي: عندهم قطعة أرض رائعة، فيها نبع ممتاز! قال عجيب. أمر "بو طلال" ببيعه أرضنا بسعر بخس. خاف أبي كثيرا: لا حول ولا قوة إلا بالله، يا رب ارحمنا يا الله.. راح أبي يخاطب الله.. لمست لدى أبي ضعفا، أحسست بأنه على وشك أن يوافق على بيع الأرض. قلت له: مستحيل! أنت لا علاقة لك بالأرض، الأرض لي أنا وأنا سأدافع عنها. قلت لـ"بو طلال": لا أرض عندنا للبيع!: هذا كلامك النهائي؟ سألني عجيب متوعّدا: نعم هذا كلامي النهائي، نحن لن نبيع أرضنا. في مساء ذلك اليوم هزّ السفح دوّي عظيم. غار الماء وجف النبع. توسّل إليّ أبي أن لا أرتكب حماقة: لهم الله يا بني، لهم الله، نحن لا نقدر عليهم يا بني.. أرجوك! وعدت أبي بالسكوت: دعني إذن أسافر، لا أستطيع احتمال البقاء هنا!: نعم، نعم، هذا أفضل ابتعد من هنا أفضل: ولكن أرجوك لا تبع الأرض! قلت له. وعدني بأن لا يفعل. قلت له: سأسافر إلى دمشق. لم أكن أعلم أنّ رجال الأستاذ بانتظاري في محطة الحافلات. رأيت عجيب يتقدّم نحوي مبتسما. دعاني للحديث معه، متظاهرا باللطف وما أن دنوت منه حتى شعرت بيد تلوي ذراعي وتدفع بي جانبا باتجاه سيارة جيب، آمرة إياي بأن لا أتفوّه بأية كلمة.

أشعل سائق كاترينا لفافة تبغ، وأدار المحرّك، متفقّدا انعكاس وجوه الركّاب في المرآة. رأى وجهي يلتصق بالزجاج. لم يستطع شخير المحرّك استعادة عيني اللتين حجبت عنهما الأفق غيمة دخان... واحد ما راح يصيح: كازوز بارد... كازوز بارد... وآخر: جرائد، مجلاّت... جرائد... مجلاّت...

-24-

في بيت كاسر بُعيد الاعتقال

دخلتُ دار أم عدنان، قُبيل المساء. حين دخلت كانت العجوز تجالس جاراتها على بعد عشرين خطوة من باب الدار. لم تكن تدري شيئا عن اعتقال كاسر. كانت تنكش الأرض بفرع زيتون يابس صغير، ترسم دوائر وحلزونات وتعود لتمحوها. من يدري ربما قلق خفي هو ما كان يدعوها إلى ذلك. ربما كانت تريد أن تقول شيئا، لكن الكلمات كانت تنسل عبر يدها إلى فرع الزيتون لتتعفر بالتراب. ربما كانت تريد أن تصلّي وها هي كلمات الدعاء تتيمم قُبيل الرحيل إلى الله. كانت بين الحين والآخر تتلفت يمنة ويسرة متفحصة بوابتي الزاروب. من يدري، ربما كانت تنتظر أن يطل كاسر من هنا أو هناك، تهم بالنهوض، ولا تنهض، تريد الذهاب إلى دارها ولا تريد. وربما هي كانت تخشى الذهاب دون أن تدري لماذا تتوجس مشوارا تقوم به كل مساء. ألا يشعر الإنسان بالخوف والقلق أحيانا دون أن يعرف مما هو قلق؟

بينما كنت في طريقي إليها، كانت سلوى تطل بين الحين والآخر من على السطح فتراها العجوز. يخيل إليَّ أن الحديث التالي كان يدور بين أم عدنان وجاراتها:

– سلوى في البيت. ما بك مشغولة البال يا أم عدنان؟! تسألها جارتها. تهز أم عدنان رأسها، مشيرة إلى أنها هي نفسها لا تعرف سببا لذلك، بل لا تعرف إن كانت قلقة أم لا، ثم بعد لحظات صمت، تتنهّد قائلة:

– صدري منقبض. امشي نبخّر العجمي، زيارته تشرح الصدر– تقترح الجارة الأخرى– عندي بخور أجاويد ممتاز، رائحته تشق القلب. لا تعترض. فقد كانت زيارة العجمي طقسا محببا لديها، فهناك في مقامه في حضرة البخور، في مملكة الأخضر تشعر بالطمأنينة، بعد أن تكون قد ذرفت ما في جعبتها من دموع.

المكان قريب. هي خرنوبة عتيقة تنافس سنديانة أعتق على رعاية المقام، وسور واطئ من حجارة كبيرة نَمَت عليها الأشنيات، وتابوت أخضر ينظر عبر الباب إلى وادي الغار الذي ينحدر برفق نحو البحر.

هذا ما تخيلتُ أنه يدور بينهن فقد ذهبتْ العجائز الثلاث إلى هناك كل منهن تخبئ أملا، راسمة نصف ابتسامة على وجهها، فلعل نومهن يكون هادئا مطمئنا هذه الليلة! كانت سلوى في هذه الأثناء تذرع السطح جيئة وذهابا. هي قلقة أيضا، فسيكون عليها أن تخبر أمها باعتقال كاسر، وسيكون عليها أن تمتص غضبها وحزنها، وأن تقلق على صحتها بعد ذلك كله. سلوى الوحيدة في الأسرة التي تعرف منذ ساعات بنبأ اعتقال كاسر، فقد اتصل أحدهم بهاتف الضيعة، الهاتف الوحيد الموضوع في بيت الشيخ أبي شوقي، طالباً سلوى. قال إنه سيعاود الاتصال بعد دقائق. لم يكن أبو شوقي في البيت، فقد كان مشغولا بالصلاة على صبيّة دهستها سيارة جيب سوداء مظلّلة الزجاج. قال أبو أيوب

الذي رآهم ولم يروه، كان يقضي حاجة خلف شجيرات الرمان على تخم بستانه حين حصلت الحادثة على مقربة منه: رفضت ركوب السيارة، دهسوها. دخلت سلوى غرفة الهاتف في بيت الشيخ، لكنّ شوقيا ابن أبيه كان ينتظر هناك. قال الصوت: أخوكِ كاسر اعتُقل ورفيقه غريب، آسف، مع السلامة.

كانت سلوى تروح على السطح وتجيء، تقاوم الدمع، متطلعة نحو البحر الذي لا تراه لكنها تشم رائحته. البحر يحتجب عنها بسهل مديد من الزيتون وربوة مكسوة بالصنوبر، وبعض تخوم البطم والزرّود.

– لن أبكي لا يفيد البكاء! قالت سلوى لدمعة شارفت على السقوط.

كان كاسر، أيضا، قد قرر أن لا يبكي، قرر أن يلعن، أن يحطّم، أن يفعل أي شيء على أن لا يبكي.

كانت سلوى أوّل فتاة أحببتُها. ما أن رأيتها عن بعد حتى أدركت أنّ تلك الرغبات التي غالَبَتها صداقتي لكاسر فغَلَبتْها لا تزال تلتحف قلبي مُرهفةً السمع إلى أدنى تغير في النبض يكون لها دون غيرها. الشوق والحنين والغضب أشياء راحت تتصارع في روحي، كل منها يقول: اللحظة لي، أنا الآن من سيقول كلمته. بدوت مشتتا بين مشاعر عجزت عن الوقوف على حقيقتها. وما أن رأتني سلوى من بعيد حتى سارعت إلى هبوط درجات السلم، وما أن دنوت منها حتى اضطربتْ خطواتي. رحت أتلفّت حولي كمن يدخل هذه الدار أول مرّة. فاتني إلقاء التحية على شباب التقيتهم في الطريق، وعلى أم عطا الجالسة على عتبة بيتها. دخلت دار أم عدنان. اختلطتْ مشاعري اختلاطا عجيبا! كل شيء بدأ يعبّر عن كل شيء. تمنّيت لو أستطيع الهدوء، لو أغربل نفسي، لو أسأل خطواتي إلى أين وأصابع يديّ إلى أين ولساني إلى أين؟ لكنني لم أفعل. في البداية، لم يكن يخالطني الشك بأنني إنّما أسعى إلى مواساة سلوى، لكنني ما أن انقضت ثوان قلائل حتى لم أعد متأكدا من ذلك بتاتا. مددت يدي، نظرت إلى عيني سلوى، سحبتها نحوي، أسندت رأسها إلى صدري، لم تقل شيئا ولم أقل، قبلّتُ رأسها، تذكّرت أن الناس يمكن أن يرونا فيكون ما ليس بالحسبان، فنحن في صحن الدار وأسطح الجيران تطل عليه. لحسن الحظ لم يكن أحد هناك. قلت لها: دعينا ندخل إلى الغرفة، بقيت ممسكا بيدها متهجيّاً لغة النبض فيها. بدأت أعي حالي معها. فما أن تجاوزنا عتبة الغرفة حتى جذبتها وعانقتها عناقا طويلا، لم تقل خلاله شيئا ولم أقل. رحت ألثم عنقها.

لم تكن جارتنا أم عطا تفارق عتبة بيتها بانتظار أن يلقي عليها العابرون التحية، فترد عليهم بخطب مطولة وبنشرة أخبار عما سمعته مؤخرا. أم عطا كانت الوحيدة في ضيعتنا التي يحق لها أن تقول ما تشاء بصوت مرتفع، بل وتفعل ما تشاء. مرّة وبينما كانت تجلس على عتبة بيتها توقفت سيارة شرطة مخفر الناحية أمامها ونزل منها شرطيان، سألها أحدهما عن بيت سالم الفحل، وكان سالم ابنها. سألته لماذا يريدونه، وكانت في هذه الأثناء تخلع حذاءها بيدها مستشعرة خطرا، أجابها الشرطي:

– ليخدم العسكرية. حملقت في وجهه، ملوّحة بالحذاء، دون أن تغيّر وضعية جلوسها، صارخة:
– رُح من هون أحسن ما قطّع هالصرماية على بوزك. مين بدو يخدم! بساتين الأغوات ونسوانهم. انقلعوا، ما عندنا أولاد للعسكرية. وبالفعل لم يخدم ابنها الإلزامية، فقد قُتل في لبنان.

استأذنت سلوى دقيقة من الوقت وعدت إلى عتبة بيت أم عطا.

– مساء الخير خالتي أم عطا، كيف حالك، إن شاء الله بخير!
– الحمد لله، خير يا بني..! من دقيقتين سلّمت عليّ.. اللهم صلّ ع النبي.

لا أستطيع أن أنسى لقاءنا مساء اعتقال كاسر! يا إلهي كم كانت سلوى رائعة. لا، لم أشعر بعد ذلك في حياتي كلها بإحساس يشبه ذلك الإحساس. لو تعلمون كم غالبت نفسي كي أبتعد عنها أو أبعدها عني، وحين خيّل إليّ أنني انتصرت كانت روحي قد انكسرت. ليس إحساسي بخيانة كاسر هو ما دفعني إلى الباب، إنما إحساسي بالضعف أمام امرأة لم ألتق مثلها قبلا ولا بعدا. لو تعلمون كم بحثت، بعد ذلك، في كل امرأة عنها. في ذلك المساء، عدت إليها ثانية، لكن أم عدنان كانت قد عادت من زيارة العجمي. حين رأتني سألتني عن كاسر، سألتني إن كنت قد رأيته اليوم. نظرت سلوى خائفة مترقبة جوابي. لاحظت أم عدنان الاضطراب في عيني سلوى فشكّت بأن نكون قد أخفينا عنها شيئا مهما بخصوص كاسر: سمّي بالله! قلت لها. أنت طبعا لا تشكين بحب كاسر لك. استغربت ما تسمعه مني، ونظرت إلى فمي كأنما هي تخرج السر منه بمقلتيها: حبه لك، خوفه من أن يراك تبكين هو ما دفعه إلى السفر من دون أن يودّعك. سامحيه، بالله عليك، كاسر طيّب وسيعود بإذن الله بخير، سنحصل على رسالة منه قريبا، قريبا.. كنت أقول ما أقول ممسكا بيدها التي بدأت تتخشب. نظرتْ نحوك نظرة عتب مر، هازّة رأسها: وأنت تعرفين يا سلوى، تخبئين سفر كاسر عني يا سلوى. راحت تعاتبك وهي تبكي، ورحت أنت تعانقينها وتذرفين الدمع. قلت في سري: الحمد لله، مضت اللحظة الصعبة، لم يبق إلا أن أخترع أسبابا لسفر كاسر تقنع العجوز. قلتُ لسلوى: اغلي لنا كأسا من الشاي، نهضت سلوى تمسح الدمع عن خديها. خيّل إلي أنها غابت طويلا، ربما كانت تبكي، وربما كانت ترنّم أغنية حزينة! كنت أسمع صوتها الذي كان ساحرا كمثلها في ذلك اليوم، يأتي من ناحية المطبخ، وأخيرا ظهرتْ! بهية كانت، مشتعلة كما كانت لحظة ضغطتُ راحة يدها وتطلعت إلى عينيها، ثم لثمتهما مغمضتين. نظرتْ إليَّ بخوف. أرادت أن تقول إن القبلة في العين تعني الفراق. وكنت أشعر بأننا نفترق، بأن شيئا يمنعنا من أن نكون معا، من أن نعيش معا، شيئا لم أكن أدرك ما هو ولست أدرك الآن. عادت، أخيرا، من المطبخ حاملة الشاي. كنت قد أفرغت كل ما في جعبتي من كلام يصلح لأن أبيعه لأم عدنان مقابل أن تكف عن هزّ رأسها، أن تكف عن التنهّد. كانت أم عدنان تبكي ورأسها يهتز إلى أعلى وأسفل متمتمة: الله يهدهم، الله يكسرهم. فجأة توقفت عن الدعاء، وتوقف رأسها عن الاهتزاز، وطلبتْ من سلوى أن تحضر صورة لكاسر. وضعت سلوى صينية الشاي، وراحت تبحث في درج الخزانة عن صورة لكاسر. لاحظتُ أن هناك صورا كثيرة في الكيس الذي بين يديها. لم أكن أفهم لماذا طلبت أم عدنان الصورة، وأظن سلوى لم تكن تعي السبب بعد. قلت لسلوى: ناوليني الكيس، أريد أن أتفرج على الصور التي فيه. في الحقيقة كنت أريد أن أتفرج على صورتها هي. طلبتْ أم عدنان من ابنتها أن تشتري لها بخورا بخمس ليرات، ثم أوقفتها حين همّت بالخروج معلنة أنها ستشتري البخور بنفسها من الدكان في طريقها إلى العجمي. أخذتْ صورةَ كاسر، قبّلَتها مرّات كثيرة باكية ثم حشرَتها في عبها ونهضتْ. عندئذ فقط اعترضتِ سلوى رغبتها دون أن تتحرك لاعتراض طريقها. قالت لها: إلى أين تخرجين في هذا الوقت المتأخر! ألم تزوري العجمي اليوم؟ قالت بأنها يجب أن تضع صورة كاسر في المزار ليحميه، وأنها يجب أن تفعل ذلك اليوم، وأنه من الأفضل أن تخرج في هذا الوقت، فالجيران يتعشون ولن يلاحظوا خروجها، ولن تكون مضطرة للكذب، فهي لا تريد أن تخبرهم بسفر كاسر، وأنّها تشعر بأننا نكذب عليها فكاسر لم يسافر إلى أي مكان، بل أخذوه،

أخذه الظالمون: هدّهم الله، هدّهم الله.. راحت تقول مؤرجحة رأسها يمنة ويسرة.. ثم قالت بصوت مرتفع: قولوا للناس بأنّهم أخذوه، ليعرفوا أن كاسر بطل، أخذوه لأنّه ليس مثلهم.. ثم راحت تولول: لا يمكن أن أموت قبل أن أراه، لا، يا عجمي افرج عنه وخلّصه قبل موتي ولو بلحظة. هذه المرّة لم تكن واثقة من قدرة العجمي على إعادته إليها سالما معافى.

خرجت أم عدنان، فطلبتُ من سلوى إحدى صورها، أتعلمون بأنني ما زلت أحتفظ بها في دفتر الهواتف منذ ذلك المساء!! اقترحتِ سلوى عليَّ أن نلحق بأمها إلى العجمي. كانت تخاف من أن تُجنّ، أن تسوح في البراري فلا تعود إلى البيت. قالت لي: أمي لا تعبّر عادة عن حزنها، هي حزينة أكثر بكثير مما يبدو عليها، قد تجلس هناك وتبكي حتى الصباح، وقد يخطر ببالها أن كاسر يناديها فتخرج وراءه. وخرجنا معا نتعقبها. قلت لسلوى: سنراقبها من بعيد دون أن تشعر بوجودنا. وافقت. هناك رأيناها تلملم بعض العيدان اليابسة وتكوّمها في غضارة ثم تشعل عود ثقاب وهي تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم. اشتعلت النار. جلسنا خلف قبر عتيق نختلس النظر إليها. راحت خصلات شعر سلوى المتطايرة تداعب وجهي. مددت يدي وضغطت رأسها إلى رأسي. التصق وجهانا. دافئة كانت، وكان وجها ينبض روحَ المساء. كان ذلك أجمل من ألف قبلة. تجمّرت العيدان وتعالى الدخان الأبيض العابق بروح البخور. شمعة أخرجتها أم عدنان من بين حجارة الجدار وأشعلتها أضاءت بهو المزار الصغير. لم نعد نرى إلا الظلال. غادرْنا القبر إلى الجدار. لم تكن بنا حاجة إلى كلام. كانت سلوى تنظر إليَّ بين الحين والحين، وكنت أنظر إليها وأشدّها نحوي وإذا بوجهينا يلتصقان. وحدهما كانا يفعلان، كأن ذلك كان روح القبلة في حضرة حجارة القبور والمزار. أدهشني أنها لم تخف سكنى المقبرة في عتمة الليل، لم أشأ تذكيرها بالموت، فما أدراني أن الذي كانت تفكر فيه لم يكن سوى الموت بالذات. تمنّيت أن أقول لسلوى: المؤمنون أيضا يخافون الموت، وإلا ما الذي جاء بأمك إلى هنا في تحد لخوفها الشديد من العتمة وظلام المقابر إلا خوفها الأشد على كاسر من الموت. ترى، ألا يكون الحب مجرّد خوف من الموت يأخذ شكل شوق وحنين وعناقات وقُبَل؟ حين رحنا نختلس النظر إلى أم عدنان لم تخطر هذه الفكرة ببالي، لكن ما خطر ببالي، رغم حضور الموت، هو أن أضمّ سلوى بقوة وأطلب من صاحب المقام أن يرعى عناقنا. لكنني، أصدقكم القول، خفت. أجلْ، خفت. شعرت حقا بأن انتقاما يمكن أن يصيبنا، فإذا بي أبعد وجهي فجأة عن وجها. راحت أم عدنان تستجير بالعجمي من الظلاّم لحماية كاسر. كانت توصيه بكاسر وتعرض عليه الصورة كيلا يخلط بينه وبين واحد آخر. كانت هناك صور كثيرة متشابهة معلّقة إلى الجدار أو محشورة في الجيوب المحفورة فيه وكانت جميعها صغيرة حتى لكأنَّ جميع الأمهات اتفقن سرّاً على الاقتصاد في المكان المقدس، إلا الصورة التي علّقتها أم جابر شحادة لابنها الكبير، فقدت كانت صورة كبيرة في إطار مذهّب تليق برتبته الكبيرة ولا تترك مجالا للعجمي أن يخلط بينها وبين أية صورة أخرى، وخاصة صورة كاسر الذي ابتسم بالأبيض والأسود ابتسامة ساخرة، وكان يرفع حاجبيه كلما قرّبت أمّ الشمعة من وجهه. كان كاسر يبتسم غامزا نحو جاره ضابط المخابرات! خيّل إليّ أن جابر رآنا نتلصص من بين الحجارة المقدّسة وأننا سنُسأل عن ذلك غدا. كانت ترقد إلى جانب صورة جابر صورة ملونة لمهرّب شاب أصيب بالرصاص مرتين فجاءت أمه بصورته خوفا من أن تكون الثالثة قاتلة. ترى ما الذي يجعل هذا الخليط العجيب من الناس يجتمع هنا؟ أنا لا أعرف إن كانت أمّ عدنان قد علّقت صورة سلوى أيضا بعد ذلك اليوم، أم أن الجدران لم تعد تتسع للصور؟ جميعنا محكومون بالإعدام يا عجمي!

-25-

لقاءان وأنشوطة

- نجوى! أرجوك ارجعي إلى البيت فورا... قال درويش غاضباً.
- كيف أتركك على هذه الحالة؟ أنت تخيفني.. أتوسّل إليك لا تتورط بهذا الكلب.
- لن أفعل شيئا. أعدك. عودي إلى البيت، أرجوك، قبل أن أنفجر في وجهك وأندم. عودي نجوى هيّا.
- ولكن..
- لا ولكن، ولا شيء.. أنت غبية- يصرخ درويش بملء صوته- ارجعي قبل أن أكسّر الدنيا على رأسك.
- خلاص، خلاص. أنا آسفة. أنا راجعة.

يبصق درويش في بركة ماء خلّفها المطر ويضرب بقبضته أوّل أعمدة الكهرباء. يحاول تجنّب العمود، لكنّ الأخير يتحرك معه معترضا طريقه. يعاجله درويش بضربة قوية وركلة ورشة سباب، ثم يلتفت إلى الخلف التفاتة حادّة، التفاتة تأكيد ووعيد. تخطو نجوى في طريق العودة شاعرة بالأسى والقلق الشديد. تتلفّت حولها حذرة. ترى درويش يقاتل الماء. يخبط بقدميه دافعا مياه البرك إلى الهروب.. تلتجئ نجوى إلى مدخل بناية قريب، ومن هناك تتابعه.. ما عاد درويش يلوي على شيء. تظنّه سيتأكد من وجودها في الشارع قبل انعطافه إلى اليمين، لكنّه لم يفعل. تخرج نجوى من مخبئها، تتعقّبه بحذر.

كجذع شجرة مقطوع الرأس يسير، جذع ثخين متين بذراعين، في يده اليمنى البلطة التي قطعت رأسه، دامية النصل، ويده اليسرى تمزّق أمامه الهواء الكثيف. مع دنوّه من الزاروب الذي ينفتح عليه باب داره يزداد خطوه ثقلا. عيناه بين قدميه تتفحصان مكعّبي الإسمنت الثقيلين اللذين صارتاهما القدمان. مكعّبان ثقيلان لا يعيقان حركته ولكنّهما يؤكّدان أنّ الأرض هنا له، وأنّه قادر على هزّها، وأنّ عليها أن تصغي إليه، إليه وحده في هذا الليل.

خمس خطوات أو ست في زاروبٍ، قامتان غريبتان تمسحان جداريه. تسيران نحوه هو درويش. يتلفّت إلى الخلف! قامتان مثلهما تسدّان المدخل الذي ولج منه للتو. يتذكّر أن سيارة بيجو ستيشن لاحت له في الشارع العريض قبل انعطافه إلى الزاروب. ينظر درويش صوب باب داره الذي يبعد عنه خطوات قليلات. الباب ما زال موصدا.

- فإذن هم لا يعرفون شيئا عن وجود عزيز! هم جاؤوا لاعتقالي، وراحوا ينتظرون عودتي هنا. فكر درويش.

ترى نجوى من بعيد خمس قامات. ترى كيف ضُغط رأس إحداها وحشر في السيارة وكيف غادرت السيارة المكان. بعد دقائق من الانتظار تتجرأ نجوى على دخول الزاروب. تتقدم نحو باب الدار. تقف لحظات أمام الباب المغلق.. تسمع أصوات رجال تأتي من مكان ما غير بعيد عنها. تبتعد عدّة خطوات عن الباب، توازن مشيتها كأنما لا شيء هنا يعنيها، ثم بعد بضع خطوات تندفع مسرعة باتجاه الشارع الرئيس. تتذكّر أن درويش دلّها مرّة على المكان الذي يخبئ فيه نسخة ثانية من المفتاح. تخطو نجوى عدة خطوات إلى الأمام.. ثم تلتفت إلى الخلف، زافرة الهواء بشدّة، باصقة على الأرض، وتتوقف.

يسمع عزيز، في ظلمته على كرسي الأخ الكبير، أصوات الخبط على الباب. يسمع أصوات الرجال يأمرون بفتح الباب حالا وإلا كسروه. يرجو ربّه أن يفعلوا، لكنّهم لا يفعلون. أحدٌ ما يقول لهم إنّه رآه يغادر البيت. يتشاورون في الأمر.. تتناهى إلى سمع عزيز أصوات متداخلة غير مفهومة. أحد ما يتصل.

– ناطرين سيدي، راح ننتظر سيدي، أمرك. يقررون الانتظار.

– لماذا لا يكون للوجه قوّة عضلات اليدين؟ لماذا لا تستطيع الشفتان تمزيق اللاصق الذي يمنع اللسان من الصراخ؟.. تتلاشى الأصوات التي بدا لعزيز في البداية أنّ الله أرسلها، ثم تختفي.

كان عزيز قد قدّم تقريرا عن أنشطة درويش الجديدة منذ أيام. هناك كتب بأن درويش عاد إلى نشاطه المعادي، وبأنّه يتواصل مع أصدقاء مشبوهين، ويلتقي مع واحدة معظم أصدقائها في السجن. كانت جميع محاولات عزيز لاستعادة نجوى قد باءت بالفشل. كتب عزيز في أحد تقاريره الأمنية: حاول درويش مع صديق له هو عزّام الشيخ، صديق درس معه في الاتحاد السوفيتي– يبدو أنّهما من تنظيم واحد– إعداد عمل مسرحي يشهّر بصورة الرئيس ومكانته كرمز. كان عامل الكهرباء في المركز قد أخبر عزيز عن المسرحية. لم يفهم العامل الكثير. لكنّه استشف من خلال حديث عضو نقابة الفنّانين، الذي حضر بروفة القراءة الأولى، بينما كانوا يشربون الشاي في غرفة المدير بأنّ المسرحية خطيرة، وبأنّها ستسبب المتاعب للجميع لو عُرضت. وجدها عزيز فرصة لإعادة درويش إلى السجن..كتب تقريره في مساء ذلك اليوم بعد تقبيله لعامل الكهرباء وشكره له.. ثم قرّر متابعة جمع المعلومات بنفسه، لكشف ما قد يسكت درويش في التحقيق عنه.. جاء عزيز لزيارة درويش، وشعور بالنشوة يعتمر قلبه. فهنا سيكتشف المزيد، وهنا سيزداد حظوة، وسيثبت لهم أنّه أهم من بسّام الكلب، وبأنّهم آن الأوان ليفهموا ذلك. وضع عزيز خطته وحيدا، بعد أن اختبر لؤم بسّام واكتشف ما يحمله من شرّ تجاهه. كان عزيز قد فشل في الوصول إلى نهى صديقة بسّام وفشل بالتالي في رد اعتباره بعد حادثة رأس السنة، وكان قد تلقى رسالة واضحة من بسّام تنذر بضربة قاضية له ولنجوى لو قام بأيّة محاولة تجاه نهى بعد اليوم. كان بسّام قد ترقّى في السلّم الوظيفي..أمّا هو عزيز فما زالوا لا يقدّرونه حق قدره، ولا بد من عملية كبيرة تجعلهم يدفعون به إلى موقع أهمّ من موقع بسّام. كانت آمال عزيز كلّها معلّقة على درويش. فلم يبق أحد في الخارج تقريبا إلاّ اعتقلوه. وقد باتت فرص النجاح أقلّ فأقل.. لكن، ها هم ينصرفون عن الباب: كان عليّ أن لا أقوم بعمل فردي. كان يجب أن أنسّق معهم. كان يجب أن أخبرهم بخطتي.

ضعيفا، وصل صوت خبط أبواب سيارة البيجو. بقي الظلام ممسكا بفضاء عزيز من كل الجهات. لا أحد يمّر في الزاروب. مضت دقائق، مضت ساعات.. عاود المطر الهطول. قلّة الأكسيجين والرعب وانهداد الأعصاب، فعلت فعلها. راح رأس عزيز يثقل، راح يخونه كلما حاول رفعه، راح رأسه ينحني فيما عقله يحاول، عاجزا، رفع الرأس. غادرت السيارة المكان، ولم يبق إلا أصوات الهبوب. بقي عزيز معلّقا في الأنشوطة يقاوم النعاس. كلما كبا اشتدّ ضغط الأنشوطة على عنقه...

***** اللاذقية: 1998–2006 (صدرت عن دار "الريس" بيروت، 2009)***